اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

عدد خاص

بالفقيد الفاضل

الدكتور

أبو العيد دودو



خريف 2004

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

التحرير والمراسلة: المجلس الأعلى للغة العربية

6، شارع العقيد أحمد بوقرة، الأبيار – الجزائر

ص.ب . 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 1112 ـ 3575

الإيداع القانوني: 02 7/20

المقالات التي ترد إلى المجلة لا تردّ إلى أصحابها، نشرت أم لم تنشر.

محتويات العدد

كلمة العدد للأستاذ حسن بهلول

يسر المجلس الأعلى للغة العربية أن يقدم لقرائه الكرام العدد الحادي عشر من مجلته "اللغة العربية" الذي خصصه للفقيد الراحل الدكتور أبو العيد دودو في طبعة ثانية جديدة ومحينة ضمت وقائع حفل توزيع جائزة اللغة العربية الموسومة أبو العيد دودو لسنة 2004، وتكريم عائلة دودو ونخبة من رواد الثقافة الوطنية الذي جرى يوم 25 أكتوبر بفندق الأوراسي تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة.

هذا وقد ترأس هذا الحفل التكريمي الأستاذ الدكتورسعيد بوشعير رئيس المجلس الدستوري السابق الذي ألقى كلمة بهذه المناسبة نوه فيها بخصال الأديب الكبير أبو العيد دودو، تلاه الدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية مرحبا بالضيوف الحاضرين ومبرزا خصال الفقيد أبو العيد دودو قائلا بشأنه: " لقد ارتأى المجلس أن توسم هذه المسابقة والحفل كله باسم فقيدنا الأكاديمي د. أبو العيد دودو الذي تخرجت على يديه أجيال من الآساتذه والباحثين البارزين، وأغنى المكتبة الجزائرية بنفائس إبداعاته في القصة والترجمة والنقد فضلا عن أخلاقه العالية وخصاله الراقية".

كما ضم هذا العدد المحين كلمات أيضا كل من رئيس لجنة تحكيم جائزة اللغة العربية الأستاذ الدكتور صالح بلعيد والأستاذ عز الدين ميهوبي رئيس اتحاد الكتاب العرب واتحاد الكتاب الجزائريين والدكتور محمد يحياتن باسم الفائزين والأستاذ محمد الصالح الصديق باسم المكرمين، الذين نوهوا بالحدث والاهتمام الكبير الذي أولاه المجلس للثقافة وكذا كلمة ابنة المرحوم أبو العيد دودو التي شكرت المجلس على اهتمامه وتقديره لوالدها خصوصا ولرجالات الفكر والثقافة عموما.

كما سيجد القارئ الكريم في هذه الطبعة الثانية الجديدة المحينة بعض صور الحفل، هذا دون أن ننسى الإشارة إلى أن هذا العدد الذي –بين أيديكم– ضم ما لا يقل عن خمس عشرة مقالة حول الفقيد، بالإضافة إلى السيرة الذاتية للدكتور أبو العيد دودو كتبها هو بنفسه قبل رحيله بأيام معدودات.

تقديم وتنويه ..
أبو العيد دودو – الإنسان–
فارس البيان والمترجم الفنان

بقلم د.محمد العربي ولد خليفة / جامعي

تبوّأَ فقيد صرح الإبداع –أبو العيد دودو – موقع الصدارة في ركب النابغين من أدباء الجزائر، في النصف الثاني من القرن العشرين، حتى ليمكن القول بأنه مدرسة في فن القصة والرواية، وأحد أعلام الترجمة، مع حنفي بن عيسى وإسماعيل العربي.. لقد ساهم دودو بمنتوجه المعرفي والجمالي في إثراء العربية، ونقل إليها عددا من روائع المكتبة الألمانية، وكان بوسعه أن يهاجر إلى لغة هيغل وغوته، ويغترب عن وطنه فكرا ولسانا.

اختار دودو الوفاء لوطنه والانتماء لمجتمعه، وبلده يضمد جراحه ويبدأ خطواته نحو إعادة بناء دولته الوطنية، واستعادة مقومات شخصيته الحضارية

بعد قرن وثلث قرن من سياسات الاستئصال الثقافي والدمار والقهر الذي حاق بالإنسان والأرض والعرض في هذه الديار.

حمل الفقيد فكره وقلمه إلى جامعة الجزائر ليشارك الرعيل الأول من الزملاء الذين كانوا أشبه بالفدائيين والمسبّلين، فقد كانت الجامعة التي تعرف اليوم "بالمركزية" تبحث عن جزائريتها، وتحاول تنظيف منابرها من تلوث التراث المدغول للكولونيالية الفرنسية، المتمثل في الأطروحات المزيّفة لدراسات "الانديجينو فيليا" والإلحاح على الفروق الثقافية والتصنيف الاثني "العنصري" للسكان واحتقار الفصحى وتوجيه العناية للعاميات، لأمر في نفس يعقوب، وهذا الأمر هو التحضير عبر ثلاث مراحل لابتلاع الجزائر: من المسخ إلى السلخ إلى الابتلاع Intégration–Assimilation-Francisation

لم يكن انخراط دودو في تلك المواجهة صدفة، أو لمنافع ذاتية استهوت البعض من زملائه، ففي نشأته الأولى وسيرته خصال ومؤهلات ترشحه للريادة والنبوغ، فقد تربّى الفتى دودو في بيئة نظيفة: من مدرسة قريته إلى معهد ابن باديس إلى جامعة بغداد، ثم جامعة فيينا مدينة الفن الراقي والذوق الرفيع والجمال الخلاّب، نضجت خلال تلك المراحل سمات شخصيته وامتزجت بفكره المبدع وأدبه الراقي الذي يصدق عليه وصف القدماء بالسهل الممتنع، أي الذي يجمع بين العمق والجمال والبساطة، ويبتعد عن التكلف، ورصف الألفاظ وضحالة الأفكار أو انعدامها، وذلك علامة لا تخطئ على الفقر الثقافي والانحطاط الحضاري عبر كل أحقاب التاريخ.

تعرّفتُ على الأستاذ دودو في رحاب جامعة الجزائر في أواخر الستينات من القرن الماضي، ولم يمنع الاختلاف في التخصص الجامعي من التقارب الذي سرعان ما أصبح مودّة واحتراما، كثيرا ما جعلني أقصد دائرة اللغة والآداب العربية للّقاء بشخصية أبو العيد الجذابة والمتميزة بحضور البديهة والنكتة العفوية وبراءة المقصد.

خلال أكثر من ثلاثة عقود من الصداقة والزمالة، لم أسمع من فقيدنا العزيز قدحا وتجريحا لرفاقه من الأساتذة، أو شكوى من المسؤولين في مواقع الخفض والرفع العلمية والإدارية في تلك المرحلة الانتقالية من إصلاح الجامعة وجزأرة الإطارات المسؤولة عن الإشراف والتكوين وإرجاع التعليم العالي والبحث العلمي لوظيفته الحقيقيّة في خدمة العلم والوطن فقد كنّا معًا على اتفاق جازم بضرورة التلازم والاقتران بين العلم والوطنية.

كُنّا أحيانا نتذاكر بشيء من الحماس حول مقولة شائعة مؤداها: أن خلاصات العلم والفن والأدب والثقافة ينبغي أن تتحرر كلّها من الجنسيّة، وتتجاوز الحدود الإقليمية وتنتسب أساسا إلى الإنسانية، بمنأى عن اللون والجنس (امرأة أو رجل) وما يُسمى المحددات الإثنية، ونرجّح بعد محاجّة ونظر أن في كل إبداع أصيل لمسة تصعد به نحو العالمية، وترشحه للدخول في التراث المشترك للإنسانية.

ولكن نقطة الانطلاق نحو العالمية تبدأ حتما من الوطنية والتجربة التاريخية لمجتمع محدد، ونخب تُعبّر عن علاقة حميميّة بالزمان والمكان تلتقي فيها الموهبة بالخبرة وأعلى درجات الإتقان، فلا وجود لتراث فكري أو معرفي أو

فني يحدث في اللازمان واللامكان، ومنفصل كلّيا عن خبرة الإنسان وخصوصيات البيئة والعمران، وبصمات التجربة التاريخية التي قد تمتدُّ في أغوار الذاكرة إلى ما عرفته المجتمعات من مسرات وآلام في سالف العصر والأوان.

يَعْرف الوسط الجامعي أن بيت دودو كان أشبه بحوانيت الوراقين القدماء تتكدس فيه الكتب والملفّات التي تحمل مشروع قصة أو ترجمة وقصاصات متعلقة بعمله الأكاديمي في معهد اللغة العربية وآدابها، وكثيرا ما يتردّد عليه جمهور من زملائه وتلاميذه ومريديه يستقبلهم بابتسامة مُرحبة وبضحكاته المنطلقة من القلب بلا تكلف ولا رياء، **لا ريب أن البساطة والتواضع من أبرز سمات العظماء.**

شاءت الظروف أن نسافر في مهمّة إلى الصين الشعبية في بداية الثمانينيات وكان ثالثنا د م.ع. الزبيري، فكان رحمه الله وطيّب ثراه خير رفيق في الطريق إلى أقصى الأرض، أَنْسانا بخفّة روحه وملاحظاته الثاقبة عن نظام الحياة في الصين دولة ومجتمعا مشاق الحِلّ والترحال بين المطارات والانتقال في أجواز الفضاء في بضع ساعات من الشروق إلى الغروب والحوارات الطويلة مع نظرائنا من أهل الفكر والذكر والحكم في القاعات الشاسعة لمجلس الشعب لجمهورية الصين الشعبية، عملاق المستقبل في الربع القادم من القرن الواحد والعشرين.

أثار دودو في كل تلك اللقاءات والحوارات اهتمام العلماء والساسة والأدباء وخاصة عندما كان يمزج الجدّ بالهزل، ويقدم السؤال في صورة تعقيب،

ويجيب على السؤال بتوضيح لا يخلو من التلميح إلى المرجعية الوطنية لجزائر الثورة والتاريخ.

ليس في النيّة تقديم تقييم نقدي لتراث الأستاذ أبو العيد الذي يتجاوز الستين (60) فضلا عن مقالاته وأشعاره غير المنشورة ومحاضراته، فذلك يتطلب الغوص في أعماق نصوصه، واكتشاف ومضات عبقريته، وهو أمر ليس من اختصاصنا على أي حال، إن النقد الأدبي علم قائم بذاته له مدارسه ومقارباته الكثيرة، وليس مجرد هواية تحتكم فقط إلى الذوق الشخصي والمزاج الآني وما يغشى النفس من الميول والأهواء.

ولكن روعة الإبداع وجاذبية الجمال تتوجه مباشرة إلى نبضات القلب بدون أن تستأذن قواعد المنهج وضوابط المنطق، وتتحول في لمح البصر إلى إشراقات نورانية تُدرك بالحدس وتستصعى كما يقول الروحانيون من أهل التصوف على الحس و اللمس، وهو ما سمّاه الفيلسوف برغسون بالومضة والانقداح (Illumination)

لهذا السبب –وقبل الاختصاص الأكاديمي وبعده– نجد في مطالعة نثر دودو من المتعة والأناقة ما نجده في تراث الجاحظ بعد ألف عام أوتزيد من وفاته، ونرى فيه أيضا ما يشدنا إلى أدب طه حسين بما يتميز به من تدفق وسلالة هي البيان الحديث في أرقى صورة بعد إعجاز القرآن الكريم. **(ويجد القارئ الكريم جردا أوليا لمؤلفاته ومترجماته وتتفرد المجلة بنشر السيرة الذاتية لدودو بقلمه.)**

وإذا طالعنا ترجمات دودو المتنوعة التقينا مع عبد الله بن المقفع في كليلة ودمنة وابن رشد الحفيد وهو يعيد الحياة إلى أرسطو (أرسطاطاليس في تعبيره) ويعرض مقولاته الصعبة في المنطق والطبيعة العصيّة على الترجمة في كل اللغات تفصح عن مكنوناتها بلسان عربي مبين، ذلك هو شأن الأستاذ أبو العيد.

لولا الإعلان عن اسم المؤلف الأصلي، لما عرف القارئ أن المصّنف هو ترجمة من لغة أخرى، لا شك أن لدودو قدم راسخة في لغة الضاد وأسرار بلاغتها، ومعرفة تصل إلى حد الإتقان في لغة لوهان هردر مؤرخ الألمان الأكبر، وكاتبهم المعاصر غونتر غراس الحائز على جائزة نوبل في الآداب والذي قيل إنّ نثره تتنافس فيه لآلئ الشعر مع نغمات الموسيقى السيمفونية.

أسابيع قليلة بعد أن شرفني فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة بتكليفي برئاسة المجلس، انعقد ملتقى الترجمة الذي حضّره سلفي في المجلس أ.د.عبد المالك مرتاض، ارتأيت أن يُتوّج ذلك اللقاء الهام بتكريم شخصيتين من رواد الترجمة في الجزائر المعاصرة، ومن النخبة التي خدمت الثقافة واللغة العربية بدون أن يخوض أي منهما في معارك اللعان وامتطاء صهوة الشعارات المسيّسة والانتهازية، أو ينساق وراء المُهاترات اللفظية التي لا تُوفِّر للغتنا الجميلة أيّ رصيد في خزائن المعرفة وذخائر الفن والإبداع.

هاتان الشخصيتان هما د.حنفي بن عيسى الذي وافته المنية شهورا قليلة قبل ذلك، ود.أبو العيد دودو الذي كان يتحدى المرض المزمن وقلما اشتكى من مضاعفاته وأشجانه.

ألقى دودو في ذلك اليوم المشهود كلمة مؤثرة بصدقيتها وتلقائيتها، كما هو شأنه دائما (نص الكلمة بخط يده في هذا العدد الخاص) ودمعت عيناه وهو يرى وربما لأول مرّة صفوة من المثقفين: شعراء وكتاب وتراجمة يلهبون القاعة الكبيرة بالمكتبة الوطنية تحية وتقديرا لرجل عاش حياته راهبا في محراب القلم بعيدا عن الأضواء والصراعات العلنية والخفية من أجل الحظوة والثروة وسلطة الجاه والمكانة.

وقبل ذلك رُشّح دودو بالإجماع لعضوية المجمع الجزائري للغة العربية مع ستّة من أعلام الفكر والفن والأدب، وأعطى الرئيس السابق لمين زروال موافقته المبدئية، غير أن الأمر بقي معلقا بسبب مرض ووفاة الأستاذ التيجيني هدام رئيس المجمع، والانشغال بالانتخابات الرئاسية لسنة 1999 حيث تمّ انتخابي لنيابة رئيس اللجنة الوطنية للانتخابات الرئاسية التي ترأسها الأستاذ محمد بجاوي، ثم أُسندتْ إليَّ رئاستها بعد اضطرار الأستاذ بجاوي لحضور جلسات محكمة العدل الدولية في لاهاي، ومن المؤسف أن الشغور المشار إليه آنفا تحوّل إلى نسيان.

قبل الأستاذ دودو عضوية هيئة تحرير مجلّة المجلس وواضب على حضور جلسات المداولة والتقييم، وساهم بعدد من الدراسات المنشورة في أعدادها برئاسة أ.د مختار نويوات مرجعنا الكبير في فقه اللغة وعلوم اللسان أطال الله عمره، وزملاء آخرين كانوا منذ وقت قريب من طلابه في مرحلة الإجازة (الليسانس) وأشرف على دراستهم العليا للدكتوراه.

أشهد بأنه كان يتعامل مع الجميع بأخلاقيات عالية ويعتبرهم زملاء وأقرانا سواء أكانوا من جيله بناة جامعة الجزائر، أم من طلابه، بل يبلغ به تواضع العلماء إلى استشارتهم والاستشهاد بأبحاثهم، فهو لا يميل إلى فرض وصاية على أحد، وسرعان ما يعتريه الخجل الذي يخفيه بابتسامة رقيقة إذا نوّه أحدهم بمنتوجه الأدبي الغزير وجهده الأكاديمي الوفير.

على الرغم من الزيارات المتبادلة واللقاءات المتعددة التي كانت تحدث بالتداول في بيوتنا في السبعينيات (بسبب ندرة النوادي الملائمة)، لم يسأل أي منّا الآخر "من أين أنت؟" فلم تكن الجهة والعرش والقبيلة مدخلا عشائريا متخلفا ووحيد الاتجاه للوصول وضمان التغطية والحماية في تلك السنوات التي جمعت نخبة من الأشقاء من أهل المشرق والمغرب. فقد كان يحضر تلك اللقاءات علماء من أعلى طراز مثل محمد عزيز لحبابي، دودو، عبد المجيد مزيان، عبد الله شريط، عبد الله ركيبي، كاتب هذه السطور، بديع الكسم، إحسان النص، علي عيسى، أسعد درقاوي، عمار طالبي(...)، وعدد من كبار المفكرين الذين كانت تستضيفهم الجامعة مثل جاك بيرك، وعبد الله العروي وإيفون توران وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

لقد تربىَّ العديد من أفراد جيلنا في مدرسة ثورة التحرير الكبرى، ونهلوا من أخلاقياتها، وكانت الجزائر بطولها وعرضها بشمالها وجنوبها هي جامعهم المشترك وهي الجهة التي ينتمون إليها جميعا تحت لواء الوطنية التي بقيت مرجعيتهم الأولى والوحيدة.

وضع المجلس جائزة اللغة العربية لسنة 2004 تحت اسم د.دودو وخصّص هذا العدد من مجلته العلمية المُحكَّمة لمجموعة من الدراسات التي يمكن تصنيفها في ثلاثة أبواب:

أولها يُعنى بشخصيته ومساره وتوصيف البعض من رفاقه وطلابه لخصاله ومسلكيته في الحياة، شارك فيها سعادة سفير النمسا بالجزائر مشكورا، ويهتم الباب الثاني بدراسات حول أدبه وخاصة القصة والرواية ومميزات أسلوبه ومدى تفقهه في لغة الضاد.

ويعرض الباب الثالث، مختارات من نصوصه الأدبية وترجماته، وجردا أولويا لإصداراته، ونعلم أن بعضها ما زال مخطوطا ينتظر لفتة من أهل الحل والعقد، فذلك من أهم ما نقدمه للمؤلف في ذكرى ميلاده وليس وفاته فالنابغون يتميزون عن عامة الناس بأنهم يبدأون حياة أخرى بعد فناء الجسد، قد تكون أعظم وأطول من الحياة الأولى، أليست المعاصرة حجاب؟!

أختم هذه السطور بفقرة من كلمة قدمتها في نهاية سبتمبر 1998 عند تنصيب مكتب المجمع من طرف رئيس الجمهورية السابق لمين زروال بالقصر الجمهوري، وتضمنها مؤلف الجزائر المفكرة والتاريخيّة:

" يمثل التراكم الثقافي بعدا أساسيا في الذات الجماعية للأمة، وهي لا تقتصر على أسماء القادة العسكريين والساسة البارزين، أو على حوادث خارقة للعادة، بل يصنعها أيضا أولئك العباقرة والمبدعون الذين يعطون لتلك الذاكرة حياة متجددة، بمنتوجهم الفكري الذي قد يسبق عصره، وإبداعاتهم الجمالية التي

ترفع الأمة إلى مستوى العالمية، وتمد جسور التواصل مع تراث الإنسانية وترسخ الانتماء الحضاري والعزّة الوطنية.

إننا نميل إلى الطموح الصاعد الذي يرفع الثقافة الوطنية إلى العالمية، ولا نثق في الانتحال والببغائية التي تطلب اللجوء أو الضيافة في فردوس العالميّة لتحط من عليائها في واقع تعافه، هو في نظرها مجرد "فولكلور" للفرجة وحتى السخرية.

لقد ضاع كثير من دعاة عالمية بلا وطن ولا جنسية وفقدوا في نهاية المطاف المدار والجاذبية ".

نحن على يقين بأن د.دودو ليس منهم فكرا وقناعة ومسلكية.

كـلمـة*

للمرحوم: أ.د: أبو العيد دودو

أيها الحفل الكريم:

أتوجه أولاً بالشكر إلى السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية على هذه الالتفاتة الكريمة التي خصني بها، وأنا سعيد بها كل السعادة، ولا اعتبرها تكريما لي شخصيا، وإنما اعتبرها تكريما "لحبي لوطني، ولوطني ولكل العاملين في مجال نشر لغتنا العربية الجميلة، ترجمة، إبداعا، علما. لقد كان حبي لوطني علماً يهتف بي من الأعماق على الدوام.

إن لوطنك دينا عليك، وهو دين كبير ملازم لك، فوقه وفي جزء منه كلما وجدت الفرصة لذلك، والفرصة عندك تعني أن يسعفك الفكر، وتسعفك الكلمة، وتسعفك الصحة.

---

* كلمة للدكتور أبو العيد دودو خلال تكريمه بمناسبة انعقاد الندوة الوطنية للترجمة التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية يومي 17 و 18 جوان 2001 بالمكتبة الوطنية بالحامة، ويوجد نصها بخط يده في الملحق 1

وكل ما فعلته هو أنني وفيت بعض هذا الدين، ولا يزال منه الكثير الكثير.. ومادامت هناك قدرة على الوفاء، ومادامت هناك صحة تسمح بالعمل المفيد .. ومادام هناك قبل كل شيء فكر صاف أو ذهن صاف. فلم يكن ذهني يصفو دائما، ولكنه صفا عام **1993** على أروع ما يكون الصفاء .. فقد وجدتني فجأة اكتب الشعر، ولم اكن النابغة .. ولا أنا نابغة! اكتب الشعر وأنا على مشارف الستين. أصبحت شاعرا غزلا.. يغزل الكلمات شعرا أيضا ويتغزل بالوطن شعرا وأقول فيه :

وطني كيف اقتني شمما ونعود *** يطرد الجرح عنك والألما طلعة
الهوى نردده وهي والوهاد تزرعها *** الشمس تزرع القمما بلقانا على
وتنير الوجوه بعد ضنى *** الجنا نجما هدمتها الجنان
*** والحلما

إلى أن أقول :

كل هذا وأنت يا وطني *** في فؤادي تريده قسما

وأقول أيضا :

بيضاء تدعوني إلى وطني وطن *** لجماله يجتاحه الكمد لو أدركوها
على أبنائه نعم وتنافسوا في حبّ *** نالهم رشد فيكون فيه لعيشهم
تربته فتخاله في وثبة قدما *** رغد في أهله التاريخ والأبد
***

وإذا كنت قد ترجمت العديد من الكتب عن وطني، فإن ذلك يدخل في هذا الدين، فأنا لم أتعلم كما يقول طه حسين لأنتفع وحدي بما تعلمت، واعترف أن ذلك كان نوعا من التضحية، وكانت تضحية ضرورية، فقد ضحيت في كثير من الأحيان بإنتاجي الخاص، بإبداعي الذاتي، من أجل أن يستفيد منه الجميع في كل المجالات، لا في المجال التاريخي والاجتماعي فقط، فما ترجمة . مما يتصل بالوطن طبعا . يستفيد منه الجغرافي، والمؤرخ، والعالم الطبيعي، والاجتماعي، والنفسي، والأدبي، وما أشبه ذلك، فهناك خرافات وقصص ومعلومات كثيرة لا نكاد نجد لها أثرا في كتاب.

أعلم أننا ننظر إلى الترجمة بشيء من الاستخفاف، بل ربما الاحتقار، ففلان مترجم لا غير، ومن أجل هذا الاستخفاف ضحى بعضهم عند الحديث عن كتاب القصة القصيرة في الجزائر! لكني أنا اعتز بأني مترجم.. مترجم أيضا !ولم أتهرب أبدا من هذه الصفة فالترجمة عمل جميل، بل إبداع جميل، فرحتي به لا تقل عن فرحتي بإنجاز عمل إبداعي، بل قد تكون أكبر أحيانا، كثيرا مما يخيل إلي أن الترجمة موهبة، مثل أية موهبة أخري، ولست أدعي مع ذلك أية عظمة لنفسي، ولكن هذا لا يمنعني من القول بأن كثيرا من عظماء الأدب كانوا مترجمين أيضا، فقد كان أبو ليوس مترجما، وكان غوتة مترجماً، وكان شليغل مترجماً، وكان طه حسين مترجما، وكان أحمد حسين الزيات مترجماً، وكان المازني مترجماً وإن اختلفت ميادين الترجمة عند كل واحد منهم، شعرا أو قصة ومسرحا ودراسة وغير ذلك. يحضرني الآن قول أحد الحكماء، وما أنا بحكيم:

العلوم ثلاثة، علم يرفع، وعلم ينفع، وعلم يزين، الفقه يرفع، ولم أصبح فقيهاً مع أنني قلت لموظف مكتب الجوازات، عندما دعاني للمثول بين يديه في قسنطنية، أني ذاهب إلى بغداد لأتعلم الفقه، وأكون من رجال الدين أو الطب ينفع، ولم أصبح طبيبا، مع أنني كنت أتمنى ذلك دائما. والأدب يزين، ولم يزيني الأدب كما تشاهدون، فهل رفعتني ونفعتني وزينتني الترجمة ؟! أترك لكم الإجابة مع شكري الجزيل مرة أخرى، أعبر عنه من موقع.. السعادة الغامرة !

أ.د: دودو الأكاديمي وإنسان•
التقارب والحوار بين الثقافات

بقلم: توماس مايكل باير / سفير النمسا بالجزائر

إنه لمن دواعي سروري أن أحظى بشرف الكتابة في هذه الطبعة الخاصة من مجلة "اللغة العربية" حول ذكرى رحيل المترجم الكبير، الشاعر والفيلسوف، الأستاذ أبو العيد دودو، الذي رحل عنا يوم 16 جانفي 2004، ولا يسعني إلا أن أعرب عن بالغ أسفي لأشارك الجزائر والوطن العربي حزنهم

•- العنوان واالترجمة لهيئة تحرير المجلة

لفقدانه، وبالاضافة إلى ذلك فإن كوني ممثلا للنمسا بالجزائر، أردت التعبير عن العلاقات القوية التي كانت تربط الفقيد ببلدي.

قضى الأستاذ دودو سنوات عديدة بفيينا، عاصمة النمسا، والمركز القديم لأمبراطورية آل هابسبورغ ملتقى الحضارات العديدة، ومدينة التقاليد العظيمة في ميدان اللغات الشرقية، حيث وجد حقلا واسعا للعمل، وبصفته متخصصا في تدريس لغته الأم، فسيبقى اسمه راسخا في ذاكرة الكثير من الأكاديميين وخاصة الطلبة.

وفي فيينا، اكتشف أبو العيد دودو شغفه بالأدب الجرماني وثراءه، وخاصة الروائع الأدبية التي واكبت زوال المملكة النمساوية المجرية، وكانت ثمرة ذلك الشغف عدة ترجمات إلى اللغة العربية، تمثلت في نقل روايات وقصص إلى العربية لمؤلفين من تلك الحقبة التاريخية أمثال: فرانس كافكا Franz Kafka، أرثر شنيتزلر Arthur Schnitzler، ستيفان سويق Stefen Zweig، كما تعتبر بالنسبة للعالم العربي إسهاما وإثراء ذا قيمة من أعلى طراز.

ولم تكن علاقة أبو العيد مع النمسا أكاديمية ومهنية فحسب، بل تعدته إلى تكوين أسرة هناك حين تزوج سنة 1963 من إيما روش Emma Rauch، مربية أطفال حاصلة على شهادة، نمساوية المنشإ، وقد رافقته عندما قرر الرجوع إلى موطنه الأصلي الجزائر سنة 1968، وأصبح هذا البلد موطنا ثانيا لها، ومع أربعة أطفال نشأوا على ثلاث لغات، كانت عائلة دودو مثالية، تمثل الانسجام والتوافق بين الحضارتين وهذا ما سمح لهم بمد جسور الصداقة على جانبي البحر المتوسط.

وما يزيدني فخرا وشرفا، ما عرفته في أبي العيد دودو من تفتح وتسامح، إنه من أفضل المحامين والمرافعين عن فكرة الحوار بين الحضارات، فبلدي الذي استقبل واحتضن منذ قرون، لقاءات ومبادلات وحوارات لأشخاص من أصول مختلفة، يولي اهتماما كبيرا للحوار بين المسلمين والمسيحيين، فالحوار بين هاتين الديانتين التوحيديتين العظيمتين، قادر على إرساء قاعدة لتفاهم أفضل خصوصا في عصرنا الحالي، عصر الصراعات والتحديات الكبرى الذي اكتسب فيه الحوار مدلولا عالميا، ولذلك ينبغي التأكيد على أن الأستاذ "دودو" آمن بأهمية الحوار بين الحضارات وساهم في تقوية العلاقات الثنائية بين بلدينا.

لم يسعفني الحظ بملاقاة الأستاذ دودو إلا عند قدومي إلى الجزائر سنة 2001، فلم يتسن لي معرفته عن قرب إلا لمدّة قصيرة، يمكنني أن أجزم أنني فقدت صديقا.

Prof. A. Doudou
L'académicien et l'homme•
De rapprochement et du dialogue des cultures

Par : S.E. Thomas Michael Baier
Ambassadeur d'Autriche en Algérie

Je suis très honoré d'avoir le privilège de m'exprimer dans cette édition spéciale de la revue « Langue Arabe » consacrée à la mémoir du Professeur Boulaid Doudou, grand traducteur, poète et philosophe qui nous a quitté le 16 janvier 2004. c'est avec une grande émotion que je partage le deuil de l'Algérie et du monde arabe. En plus, je voudrais, comme représentant de l'Autriche en Algérie, dépeindre les liaisons fortes que le défunt avait avec mon pays.

• - (NDLR) Comité de rédaction de la revue **Langue Arabe**

Le Professeur Doudou a passé de nombreuses années à vienne, capitale de l'Autriche, ancien centre de l'empire Habsbourgeois, où de multiples cultures se rencontraient, et cité de grandes traditions dans le domaine des langues orientales, où il a trouvé un immense champ de travail. En tant que spécialiste de l'enseignement de sa langue maternelle, il demeurera à jamais dans la mémoire d'un drand nombre d 'académiciens et surtout d'étudiants.

C'est aussi à vienne que Boulaid Doudou s'est découvert une passion pour les richesses de la littérature germonophone et avant tout les chefs-d'œuvre littéraires qui accompagnaient la crépuscule de la monarchie austro-hongroise. C'est à cette passion que nous devons les nombreuses traductions en langue arabe, jaillies de sa plume, des romans et des contes des auteurs de cette époque tels que Franz Kafka, Arthur Schnitzler et Stefan Zweig. Pour le monde arabe, elles représentent un apport d'une valeur inestimable.

Mais les rapports noués avec l'Autriche par Boulaid surpassaient son engagement professionnel puisque c'est là qu'il a fondé une famille. En 1963, il épousa Emma Rauch, puéricultrice diplômée, autrichienne de naissance qui l'accompagna lorsqu'il décida, en 1968, de retourner en Algérie, son pays natal, pour elle, ce pays est devenu une seconde patrie. Avec leurs quatre enfants, élevés en trois langues, les Doudou ont fondé une famille exemplaire, symbolisant l'entente entre les deux cultures et c'est ce qui leur a permis de nouer des liens d'amitiés des deux côtés de la méditerranée.

J'ai eu plus particulièrement l'honneur de reconnaitre en Boulaid Doudou un avocat prédestiné et absolu du dialogue entre les cultures. Mon pays qui, depuis des siècles, abrite des rencontres, des échanges et des dialogues entre personnes de différentes origines, attribue une grande importance au dialogue entre musulmans et chrétiens. Le dialogue entre les grandes religions monothéistes est en mesure, surtout en ses temps de grands défis et de frictions, de créer la base pour une meilleure compréhension. Particulièrement aujourd'hui, le dialogue a gagné une signification mondiale. Ainsi, le professeur Doudou a reconnu l'importance du dialogue entre les cultures de

façon visionnairre. Dans cette particularité, il a constamment œuvré pour le renforcement des relations bélatérales entres nos deux pays.

Je n'ai rencontré le professeur Doudou qu'à mon arrivé en Algérie en 2001, je ne l'ai donc côtoyé que pendant une brève période. Néanmoins, je peux affirmer que j'ai perdu un ami.

أبو العيد دودو قاصّاً

د.عبد الملك مرتاض / رئيس المجلس الأعلى للغة العربية سابقا (جامعي)

أوّلا: شهـادة

أصيبت الساحة الأدبيّة، والوسط الأكاديميّ معا، في الجزائر، بِرُزْء فادح بوفاة أحد كبراء الكتّاب الجزائريّين المعاصرين، وهو الأديب القاصّ الدّكتور أبو العيد دودو الذي وافته المنيّة في الجزائر في مطلع هذا العام، بعد مرض عضال.

ونحن إذ نَعُدّ أبا العيد دودو أحد أكبر المثقّفين والأدباء والجامعيّين الجزائريين في عهد الاستقلال فبما استحقاقه ذلك التّصنيف، وليس مجرّد تأبين لفقيد عزيز، ومجاملة يفرضها الموقف الحزين؛ فقد كان، رحمه اللّه، متعدّدَ الاهتمامات الثقافيّة والأدبيّة، فعلاً؛ أرأيت أنّه كان كاتباً مسرحيّاً، وقاصّاً، وكاتبَ خاطرةٍ من الطّراز الأوّل في الجزائر، وأستاذا جامعيّاً متألّقاً، ومترجما بارعاً أغنى

المكتبة الجزائريّة، ومن ثَمّ العربيّة، بأعمال أدبيّة وتاريخيّة كثيرة نقلها من اللّغة الألمانيّة إلى العربيّة.

وأودّ بعد هذا التّقديم العاجل أن أسجّل، للتاريخ، شهادة عن علاقتنا في انتظار كتابة دراسة مطوّلة عن أعماله الأدبيّة، كلّها أو بعضها، خارج إطار هذا العمل. وواضح أنّ كتابة الشهادة عن أديب أو مفكّر تُلْقي وجهاً من الضياء على جوانب من حياته قد لا تستكمل أطرافها إلاّ بوفور بعض هذه الشّهادات لها. وكلّما تعدّدت وتنوّعت، ازدادت شخصيّة المتحدَّث عنه تبلوراً في التاريخ.

وإنّي أحاول التركيز، هنا في هذا التقديم، على أبي العيد دودو الإنسان، حيث إنّ كثيراً ممّن لا يعرفونه عن كثب، قد لا يعرفون عنه إلاّ الجانب الثقافيّ التقليديّ الذي يعرفه الناس عن كلّ أديب يقرءونه من بعيد، ولا يخامرونه من قريب.

لعلّ أوّل لقاء لا أزال أذكره وقع بيننا ذاك الذي تمّ في مكتب الأستاذ محمد الصديق بن يحيى الذي كان وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي في مطالع الأعوام السبعين من القرن الماضي؛ وذلك لتدارُس برنامج الأدب والنّقد في الجامعات الجزائريّة. وقد كنت محموماً، في ذلك اليوم، على نحو رهيبٍ... فلمّا خرجنا من مكتب الوزير أردت الذهاب إلى المستشفى لاحتقان حقنة كان الطّبيب كتبها لي؛ لكن أبا العيد دودو أبى إلاّ أن يكشفَ لي عن وجه إنسانيّ فيه لم أكن أعرفه من قبل منه؛ وهو أنّ حرَمه تستطيع أن تنهض بهذه المؤونة دون تكلّف الذهاب إلى مركز صحّيّ؛ ولذلك أصرَّ على أن أصطحبه إلى بيته

وأنا أرتعش من رسيس الرُّحَضَاء؛ فذهبت معه إلى حيّ «ليزاسفوديل» حيث شقَّتُه البسيطةُ في عمارة ظلّ فيها مقيماً إلى أن وافته المنيّة... وكذلك شأن العظماء في بساطتهم وقناعتهم.

وكذلك صار المريض في بيت دودو ضيفاً يتلقّى العلاج، ويَطعم الطّعام، وينعَم بدفء تلك العائلة الكريمة في يوم شديد البرد، وبجسم كان يقشعرّ من رسيس الحمّى...

والموقف الثاني أنّنا سافرْنا جميعاً، مع أدباء جزائريّين آخرين، إلى موسكو في مطلع الأعوام الثمانين في إطار نشاط اتحاد الكتّاب الجزائريّين؛ وكان ذلك في فصل شتاءٍ من شتاءات موسكو حيث الحرارة، أو قل على الأصحّ: حيث البرودة، تهوِي إلى ما لا يقلّ عن عشرين درجةً تحت الصفر؛ فكنّا لا نخرج إلاّ في نشاطٍ رسميّ داخل السّيّارة المدفّأة... غير أنّ أبا العيد دودو كان لا يزال يدفّئ مجالسنا بنكته الخفيفة، وابتسامته الصّافية، وصوته العذب، وتفاؤله العارم بالحياة... فاستكشفت فيه جانباً إنسانيّاً آخرَ وهو البساطة والتواضع وخفّة الروح، وخصوصاً حبّ الآخر...

وفي تلك السفرة حكَى لي حكاية عجيبة وقعتْ له بعد أن كتب إحدى قصصه ونشرها في جريدة يوميّة جزائريّة، فيما أظنّ؛ فقد اجتهد القاصّ في أن يطلق على إحدى شخصيات قصّته اسماً غريباً توقّع أنّه لا ينبغي له أن يوجد في عالم الواقع بأيّ وجه، فكان مطمئنّاً إلى أنّه اسمٌ من نسْج خياله هو وحدَه (ولا داعي لذكر هذا الاسم العجيب مخافة أن نقع نحن أيضاً فيما وقع فيه

الدكتور أبو العيد دودو نفسُه من محظور!...)؛ ولكنْ فوجئ الكاتب بعد أيّام من نشر القصّة، وبكلّ بساطة الدّنيا، أنّ رجلاً يأتي إليه بعد أن بحث عنه تحت كلّ كوكب إلى أن وصل إليه؛ وبدأ يهدّده ويعنف به، ويحتجّ عليه، ويُوعِدُه بتقديم القضيّة إلى المحكمة جزاء على ما أهانه متعمّداً، وعلى استغلاله اسْمَه في عمل أدبيّ ما كان له ليأتيَه!...

ولقد عانى الدّكتور دودو (دون ذكْر التّفاصيل) معاناة حقيقيّة في إقناع الرّجل بأنّه لم يكن يعرفه، ولا كان سمِع باسمه قطّ، وأنّه كيف يتعمّد إهانته وهو لا يعرفه، في الحقيقة، أصلاً، ولا خطر بخَلَده أنّ اسمه متداوَلٌ في الأسماء الواقعيّة المسجّلة في الحالة المدنيّة في بلديّة ما من بلديّات الجزائر؛ وإنّما وقع ما وقع على سبيل المصادفة والتّخيّل، وأنّه يعتذر له بكلّ مودّة ولطف... وبعد لأْيٍ ومفاوضة انصرف الرّجل إلى سبيله... ونزل عن تقديم القضيّة إلى المحكمة...

وآخر ما أودّ ذِكْره في هذه الشهادة عن الأديب أبي العيد دودو، أنّنا التقينا يوماً في فندق السفير بالجزائر؛ وأظنّ أنّ ذلك كان على هامش مؤتمر لاتّحاد الكتّاب الجزائريّين في أواخر عام 2001، وجلسنا للغَدَاء جنباً لجنب مع مجموعة من الأدباء الجزائريّين الشباب؛ ولأوّل مرّة أحسست بنبرة الحزن في صوت صاحبي؛ ذلك بأنّي حين ألّفت كتابي عن القصّة الجزائريّة المعاصرة عرضت لذكر أهمّ القاصّين الجزائريّين فمثّلت بأربعة أسماءٍ منهم لم يكن بينهم القاصّ دودو فعاتبني بصوت حزين حقّاً، وعهدي به مرِحاً متفائلاً في كلّ الأطوار التي عرفته فيها؛ فاعتذرت له بحرارة ومودّة، وأفهمته أنّي لم أتعمّد ذلك تعمّداً؛ ولكنّي مثّلت بأسماء قاصّين فغاب اسمُه من التّمثيل دون قصد التّغييب؛ إذ جاء في

بعض مقدّمة كتابي الْمُوماِ إليه عبارة: «ولنذكرْ من بين هذه الأقلام...». لكنّي وعدته بتدارك ذكْر اسمه في الطّبعة الثانية من هذا الكتاب. غير أنّه لَيَحْزُنُني، واللّه، أن تظهر الطّبعة الثانية واسمه موجود فيها؛ ولكنّه لا يمكنه قراءة ذلك لأنّنا فقدناه إلى الأبد...[1]

وكان آخر العهد به بضعة شهور قبل وفاته حيث هاتفته ذات مساء – ولأوّل مرّة وآخرها نتحادث في الهاتف– من وهرانَ زهاء الساعة الثامنة لأطمئنّ على صحّته، فأخبرني أنّه لم يعد قادراً على تسلّق الدّرج، فهو إذن قعيد البيت ولا يستطيع الخروج، فدعوت له بخير، وحاولت تشجيعه على المعاناة... وسبحان الباقي الذي لا يفنَى.[2]

ثانيا: قراءة لقصّة «بحيرة الزيتون»

لم تَحْظَ القصة الجزائريّة المعاصرة، كسَوائها من الأجناس الأدبيّة الأخرى في الجزائر، بما هي له أهلٌ من الدراسة والتحليل. وعلى الرغم من أنّ الجامعة الجزائريّة بدأت تستقبل طائفةً من هذه الأبحاث، إلاّ أنّ المطبوع منها قليل، والموزّع بين النّاس أقلّ، والموضوع تحت الضوء الكشّاف أقلّ من ذلك قلّةً. وإذا كان للصديق الدكتور عبد اللّه ركيبي فضلُ السبق في الكتابة عن القصة

1. جاء في نصّ مقدمة الطبعة الأولى المعدّل: «وكان من بين الذين سارعوا إلى كتابة القصة القصيرة في هذه المرحلة أبو العيد دودو، وعبد الحميد بن هدوقة، وعبد اللّه ركيبي...». (القصة الجزائريّة المعاصرة، ص.9، ط.2، دار الغرب، 2004.

2. نشر نصّ هذه الشهادة في مجلّة «العربي»، الكويت، مارس؟ 2004. ولكنّا عدنا إلى أصل هذا النّصّ فنقحناه فاختلف قليلاً عمّا نشر في العربيّ. واقتضت المناسبة أن يعاد نشره في مطلع هذه الدراسة التي نجريها في إحدى قصص الفقيد.

الجزائريّة على عهد الاستعمار الفرنسيّ، فإنّنا اجتهدنا في أن نفصل ما أوجز، ونستدرك ما فاته في كتابنا «فنون النثر الأدبيّ في الجزائر (1931–1954).

وأمّا في عهد الاستقلال فقد كان وقَع تأسيس فريق للبحث في الأدب الجزائريّ المعاصر بجامعة الجزائر. وكان لي شرف الانتماء إلى هذا الفريق الذي كان جميع أعضائه من الجامعة الأمّ، فكنت الوحيد ممّن لم ينتمِ إلى هذه الجامعة من أعضاء هذا الفريق. ولقد وقع يومئذ توزيع القاصِّين الجزائريّين –ولم يكن عددهم في نهاية الأعوام السبعين من القرن الماضي يزيد عن عشرين قاصّاً– على أربعة من الباحثين فيما أذكر: محمد مصايف، ومحمد ناصر، ومصطفى الفاسي، وكاتب هذه الأسطر... ولقد كان من نصيبي، يومئذ، خمسة قاصِّينَ هم عبد الحميد ابن هدوقة، ومصطفى الفاسي، وأحمد منور، والسائح الحبيب، وعثمان سعدي. واتفقنا على أن يُخرج كلّ منا مجلَّداً عن قاصِّيه الأربعةِ أو الخمسة الذين وُزِّعوا عليه، ليقعَ مسْح الكتابات القصصيّة بالبحث والْمُدارَسة... لكن لأسباب ظَلّتْ أجهلها لم يكتب الثلاثة شيئاً عن القصة الجزائريّة وكنت الوحيد من بينهم الذي أخرج كتاب «القصة الجزائريّة المعاصرة» الذي صدر بالجزائر عام 1990 عن المؤسسة الوطنيّة للكتاب المنقرضة. ثمّ صدر في طبعة ثانية منقحة عن دار الغرب بوهران في مايو 2004. ولقد حزنت أن لم يكن أبو العيد دودو من نصيبي في الدراسة التي نشرتها عن القصة الجزائريّة المعاصرة.

تلك نبذة عَجْلى عن بعض الجهود التي بُذلت في النقد القصصيّ المحتشم في الجزائر. وكلّ ما نرجوه أن يعمد الكتّاب الجزائريّون إلى تحليل هذا الأدب السرديّ الجميل.

وكنت يوم أن تُوُفّي أبو العيد دودو، في سفر طويل خارج الوطن، مما فوّت عليّ فرصة الكتابة عنه في تلك اللحظات المشحونة بالوجدان والعواطف والأحزان؛ فكتبت عنه مقالة، مجرّد إيَابي، أرسلتها إلى بعض الصحف الخليجيّة، بالإضافة إلى مجلّة العربيّ. (وهي المقالة التي صدّرت بها هذه الدراسة). غير أني لا أعرف إن كانت نشرت ببعض تلك الصحف فيما نُشرت بمجلّة «العربي» الكويتيّة لشهر مايو 2004 صفحة 201. ولم أشأ نشْرَها في أيّ جريدةٍ وطنيّة لغلَبة الأخطاء الفاحشة في الطّباعة، ولعموم انعدام العناية بتصحيح النّصوص الأدبيّة وإخراجها كما يكتبها أصحابها. ومثل هذه السيرة هي التي حملتني، في الحقيقة، على هجران النشر في صحفنا الوطنيّة التي أكنّ لصحافيّيها كلّ التّقدير، على كلّ حال.

وإنّي لكذلك، وإذا رسالةٌ كريمة تأتيني من الدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة يدعوني فيها إلى الكتابة عن أبي العيد دودو على نيّة تخصيص عدد من مجلّة «اللّغة العربيّة» الغرّاء (العدد الحادي عشر) لهذا الأديب الكبير، فلم يكن منّي إلاّ الاستجابة لأنّي أقدّر المكتوبَ عنه، كما أقدّر الداعيَ إلى الكتابة جميعاً.

ولَمّا كان أبو العيد دودو متعدّدَ الوجوه الثقافيّة متنوّعَها فقد كان من المنتظر التفكير مليّاً من أيّ وجه يمكن تناولُه؟ فقد كان دودو جامعيّاً، وقاصّاً، ومسرحيّاً، ومترجماً، وكاتبَ خواطر من الطراز الأوّل. وبعد لأيٍ ألفيتُني مدفوعاً إلى الكتابة

عن إحدى قصصه الجميلة وهي القصّة التي اختارَ عنوانَها عنواناً لمجموعته القصصيّة الجميلة وهي «بحيرة الزيتون».

وسنتناول في هذه الدراسة جملة من المكوّنات السرديّة في هذا النص منها: العنوان، والمضمون، والشخصيات، والزمان، والحيز، واللّغة السرديّة. ونعتذر عن عدم الاستفاضة في التحليل لضيق الزمن، وحرْصنا على الإسهام في هذا العدد، طامعين في أن يتاح لنا، مستقبلاً، من الزمن ما يكفي لإنجاز دراسة عن دودو أعمق وأشمل.

1. العنوان

لقد كانت عناوين الكتب، منذ كانت، ذات دلالة على شخصيّة كاتبها وعبقريّته؛ فقد مضى على الناس حينٌ من الدهر كانوا ربما يطلقون فيه على كتبهم عناوين طويلة لا يمكن تَردادُها بيسر بين القرّاء، فكانوا يحتالون على تيسير سيرورتها بأن كانوا يعمِدون إلى تسجيعها، ولكن هيهات! ولذلك مال الأدباء المعاصرون إلى اختيار العُنوانات القصيرة التي تتكوّن، في الغالب، من لفظ واحد، أو لفظين اثنين، صنيع دودو الذي اختار لمجموعته القصصيّة عنواناً مؤلَّفاً من لفظين اثنين لا غير.

ولعلّ الذي يقرأ عنوان هذه المجموعة يعتقد أنّ للزيتون علاقةً بالبحيرة، مثلما للبحيرة صلة بالزيتون؛ ولكن يبدو أنّ الكاتب أراد أن يبدع في العنوان فانزاح بلغته الأدبيّة إلى هذا التّعبير الذي كان سيبويه يعدّه من الكلام الفاسد؛ وذلك بحكم أنّه يستحيل وجود بحيرة من الزيتون؛ فالبحيرة تكون من الماء لا من الأشجار. غير أنّ هذا التعبير في اللّغة السِّيمَائيّة ذو دلالة انزياحيّة جميلة كما سلفت الإيماءة إلى ذلك. فلكثرة أشجار الزيتون في الحيز الذي تجري فيه أحداث القصّة، ولكثرة ماء العين التي كان ساكنو تلك الأكواخِ من الفقراء البؤساء في الريف الجزائريّ يستقون منها، فقد أمكن الحديث عن بحيرةٍ فعلاً يجتمع فيها قليل من الماء وكثير من أشجار الزيتون... وكأنّ القصد الدّلاليّ من لفظ «بحيرة» في هذا العنوان هو الماء: ماء العين، فانزاح به القاصّ إلى البحيرة لجمال وقْعها في النّفس، وكأنّه كان يفكّر –وهو أستاذ الأدب المقارن– في بحيرة لامارتين، أو بِركة المتوكل التي وصفها البحتري في إحدى أروع قصائده. ولكن هيهات أن تكون عين فاطمة التي كانت تملأ منها جرّتها شبيهةً ببركة البحتري، أو بحيرة لامارتين... فهناك الجمال والدعة والأمن، وهنا الجمال، ولكن الظلم والرعب والخوف...

وقد تناصّ الكاتب في إطلاقه الزيتونَ جزءاً من عنوان مجموعته مع المعتقدات الشرقيّة القديمة التي كانت تمجّد الزيتونة التي مجّدها القرآن الكريم أيضاً فجعلها مبارَكةً بثمرها وزيتها الذي يصلح للغذاء كما يصلح للإنارة. فقد كان الناس يتخذون من زيت الزيتون قناديلَ تنير عليهم بيوتهم أثناء اللّيل.

وواضح أنّ الحيز الذي تضطرب فيه أحداث القصّة كان مكسوّاً بأشجار الزيتون التي تتواجد، في الحقيقة، بكثرة، في عامّة شمال التراب الوطنيّ، وليس في جهة وحدَها؛ فأراد الكاتب أن يتمثل البيئة المحلّيّة ليجعلها من بين عناصر الحيز الذي كانت الشخصيّات المركزيّة –وقل الشخصيّتان المركزيتان الاثنتان فقط– تركض فيه.

ويمكن أن نلاحظ في عنوان القصة المطروحة للتحليل، بالإضافة إلى كلّ ذلك، أنّه يتكوّن من عنصرين سِيمَائيّين:

أ. **الماء**، وهو عنصر الحياة الأوّل، منه خُلق الإنسان، ومنه جعل اللّه كلّ شيء حيّاً. فلا يمكن تمثّل حياة إلاّ بماء. وكأنّ الماء هنا رمزٌ للبقاء بعد أن كان رمزاً للخَلق والنشوء، فالحياة يستحيل أن تستمرّ طويلاً في غياب الماء.

ب. **الزيتون**، الذي شجرُه يوقَدُ فيكون طاقةً نافعةً للتّدفُّؤِ في أيّام البرد، وشجرُه يظلِّل بورَقه وأغصانه المخضارّة على طول الدهر فيَأوِي إلى ظلّه النّاس أيّام الحرّ. أمّا ثمرُه فليس أنفعَ، بعد العسل، منه شيءٌ للتغذية والاقتيات. وأمّا زيتُه فهو نافعٌ للطّعام، كما هو نافعٌ للاِستضاء. فأيّ شجرةٍ أبرك من شجرة الزيتون؟

على أنّ الكاتب يبرّر بطريقة غير مباشرة إطلاقه على قصته «بحيرة الزيتون» بمشهد من أشجار الزيتون يجاور كوخ فاطمة، فيقول: «كان الخباء يقع على مرتفعٍ من الأرض، يشرف على سهل مائل، تقتعده أشجار الزيتون

المتلاصقة، وحين تعبث الريح برؤوسها تحت أشعّة الشمس الزاهية تبدو كبحيرة غامقة لامعة متموّجة».[1]

ولعلّ من أجل كلّ ذلك آثر القاصّ أن يطلق عنوان هذه القصة التي رتّبها في مطلع أقاصيصه الأخرى، على مجموعته القصصيّة التي اشتملت على زهاء ثماني عشرةَ أقصوصةً من بين عناوينها: «خيبة»؛ «القائد»؛ «الفجر الجديد»؛ «نضال»؛ «العودة»؛ «انتظار»...

ولقد ضمّن دودو هذه المجموعة نصّاً مسرحيّاً واحداً قصيراً أنشأه في فصل واحد هو «بندقيّة واحدة».[2]

وتجري وقائع هذه المجموعة حول موضوع ثورة التحرير الوطنيّة التي ملأت وجدان الكتّاب الجزائريّين، وشحذت أقلامهم، وفتّقت خيالهم، فانبروْا يبدعون ما يُبدعون. ولذلك لاحظ الصديق الدكتور عبد الله ركيبي حين كتب مقدمة هذه المجموعة لأبي العيد دود عام 1966 أنّ هذه المجموعة «التي بين أيدينا اليوم هي تعبير عن هذا الاتجاه الجديد الذي أوجدته الثورة في حياتنا، وفي أدبنا. وكاتبها الأخ الدكتور أبو العيد دودو هو واحد من طليعة أدبائنا الشبان الملتزمين بقيم تمثّل شعبنا المناضل، وأحد الذين عاشوا الثورة بوجدانهم وانفعالاتهم وعبروا عنها في أدبهم(...).

1. دودو، بحيرة الزيتون، ص.22.
2. م.س.، ص.207-213.

وحين نقرأ هذه القصص نجد أنفسنا في قلب واقع الثورة الجزائرية. ينقلنا دودو بقلمه وفنه إلى هذا الواقع فنحياه من جديد. وهو لا ينقلنا إليه بافتعال وتكلف بل يأخذ بأيدينا في هدوء وبساطة وانسياب».[1]

وإذن، فعامّة قصص هذه المجموعة تتناول أحداث الثورة الجزائريّة من قريب، فتتحدّث عن معاناة الشعب الجزائريّ وما كابد من اضطهاد جيش الاستعمار الفرنسيّ الذي كان يتسلّى بتعذيب المواطنين، فكان يستعذب تعذيبهم، ويهوَى إشقاءهم...

2. الحدث والشخصيات

ويتناول مضمون قصّة «بحيرة الزيتون» حكاية ثلاثة شخصيّات مركزيّة هي التي تصنع الحدث: الشيخ محمود، وهو شيخ كبير؛ وفاطمة، وهي فتاةٌ في سنّ السابعة عشرة تقريباً؛ وشريفة وهي أمّ فاطمة وسعيد المجاهد الذي لم يظهر على خشبة الأحداث، كما سنرى...

وتبدو شريفة وهي على فراش المرض، وتبدو فاطمة وهي تقدّم لها دواءً من الأعشاب الطّبيّة حضّره لها الشيخ محمود العجوز، في غياب الطبيب والصيدليّة العصريّة. وكان الجيش الاستعماريّ أتى على بيتِ شريفة وابنتها فاطمة هدْماً، ويبدو أنّ ذلك كان بسبب التحاق سعيد الشاب، ابن شريفة، بالمجاهدين في الجبال؛ فتكلّف الشيخ محمود بوسائله البدائيّة بناء كوخ للمرأتين

1. عبد الله ركيبي، في بحيرة الزيتون، مقدمة، ص.6.

المنعزلتين عن العالم. في حين أنّ الشيخ محمود كان يقيم بربوة مقابلة للربوة التي يقع فيها كوخ المرأتين. وكان للشيخ محمود ثلاثةُ أبناء التحقوا ثلاثَتُهُم بجيش التحرير فاستشهد اثنان منهم، في حين أنّ الثالث كان لا يزال حيّاً. وأمّا شريفة، الأمّ المريضة، فقد كان ابنها الوحيد، سعيد، هو أيضاً التحق بجيش التحرير من أجل تحرير الوطن من رجْس الاستعمار الفرنسيّ.

وكان كوخ المرأتين منقطعاً عن العالم، منعزلاً عن بقيّة الدُّور، وكان جيش الاستعمار أتى على البئر العامّة التي كان أهل ذلك الوجه من الأرض يستقُون منها فردمها ردْماً حتّى غاض ماؤها، فبقِيت عينٌ منعزلة تقع تحت أشجار كثيفة لم يهتدِ إليها أجناد الاحتلال فظلّ الأهالي يستقون منها في غفلة من أعينهم.

وكانت شريفة مَوْرُودَةً فلم تُفْرِقْ من رُحَضَائِها إلاّ بعد طول مُعاناة، وإلاّ بعد ارتشاف السّائل الطّبيّ التقليديّ الذي حضّره لها الشيخ محمود. وكانت فاطمة تخشى أن تقضي الأمّ نحبها فتتركها وحيدةً في ذلك الكوخ المنعزل البعيد فيزداد شأنها سوءاً وشقاءً. ولذلك ظلّتْ تمرّض أمّها وهاجسُ الخوف لايزال يتأوّبها من ذلك الهمّ الثقيل. غير أنّ الأمّ أفْرقتْ من حُمّاها التي ظلّت تُلْهِب جسمها زمناً، بعد أن يئِستْ منها ابنتُها فاطمة، فكانت نهاية القصّة سعيدة، ولو على هون ما...

أمّا الشيخ فكان يعيش مع زوج ابنه الأكبر وطفلين لها؛ فكانت هي التي تقوم على شؤونه اليوميّة. ولم يجتزئ الشيخ بتقديم كلّ أبنائه الثلاثة إلى الثورة، بل طمِع هو أيضاً في أن يلتحق بالثوّار الذين ردّوه إلى كوخه في لطفٍ، لعلوّ سنّه، ولعدم قدرته على سرعة الحركة التي تتطلّبها حرب العصابات، فسلّم بذلك على

مضض. ولكنّه اهتدى إلى طريقة لا تكلّفه ركْضاً ولا كَرّاً؛ فكان يجنّد الشباب الذين كانوا يعودون من ديار الهجرة في فرنسا. وقد وُفّق في مهمّته فاستطاع أن يجنّد قريباً من خمسين رجلاً، فكانت تلك مهمّته التي نذر أن ينهض بها في سبيل تحرير الوطن من رجس الاستعمار.

غير أنّه تعرّض يوماً لضرْب مبرّح كاد يودي بحياته، فقد صادفه جند الاستعمار يتجوّل في ضواحي العين فأهانوه، بعد أن ضربوه حتّى أدمَوْه، بتخريق ثيابه كلّها وهو أمام الفتاة فاطمة التي نجت من التّعرية والاغتصاب بأعجوبة. ذلك، والاضطهادُ يتمحّض لتمزيق الثياب والإهانة؛ وأمّا الضّرب فقد كان بعقب البنادق التي أسالت دمه بعد أن طُرح أرْضاً فمُرِّق في التراب فأُذِلَّ إذلالاً. ولم يصدّق محمود وفاطمة أنّهما نَجَوَا من تلك المحنة الرهيبة؛ فقد كان يمكن أن يُقتَلا ولا أحدَ يدفع عنهما الظلم والأذى شيئاً... ولكنّ اللّه سلّم...

وعادا أدراجهما إلى كوخ فاطمة حيث كانت شريفة بانتظارهما، وقد حاولت النهوض من فراشها والحمّى لا تزال تلهب بعض جسمها؛ فقد خشِيَت أنّها لن ترَى ابنتها فاطمة بعد أن التحق ابنها سعيد بجيش التحرير فتبقى وحيدةً ولا من رحيم. وبدأت فاطمة ترقّع ثياب الشيخ محمود وتضمّد جراحه التي كانت لا تزال تنزف دماً. ولكنّ ذلك كلّه لم يبالِيَاهُ؛ فقد كانا ينتظران من ذلك الموقف الأسوأ والأفظع، ولكنّ اللّه لطَف.

ونلاحظ أنّ الحدث في هذه القصة بُني على ثلاثة شخصيّات وطنيّة هي فاطمة الصبية، وشريفة العَوَان، ومحمود العجوز؛ فكأنّ هذه الشخصيّات تمثل

كلّ الأسنان لدى الجزائريّين. وكأنّها رمز لإسهام جميع الطّبقات في الثورة بمقدار المستطاع. كما نلاحظ أنّ هذه الشخصيات كانت فقيرة مطحونة إلى درجة أنّ الصبيّة فاطمة حين زار كوخَها العمُّ محمود لم تجِد مسحوقَ قهوةٍ تحضر له منه فنجاناً. ولا تتحدّثْ عن السكّر الذي كان عزيزاً على الجزائريّين على عهد الاستعمار الفرنسيّ، في البوادي والأرياف، فكان كالكبريت الأحمر! وفي تصوير هذه الشخصيّات فقيرة مطحونةً إدانة للاستعمار الفرنسيّ الذي أهمل شأن المواطنين الجزائريّين فلم يلتفت إلى تحسين حياتهم الاجتماعيّة فظلّوا يعيشون في فقر مدقع، وبؤس شديد.

في حينَ ظهرتْ مجموعة من الجنود الفرنسيّين كانوا مارّين بذلك الوجه من الأرض بحثاً عن الثوّار الذين اشتبكوا بهم بعد تلك الحادثة؛ وكأنّ المجاهدين كانوا يرَون جند الاستعمار من حيث لم يكن هؤلاء يَرَوْنهم؛ فوقع الانتقام للفتاة والشيخ في آخر النهار. وكذلك يبتدئ الحدَث في هذه القصّة بتمريض شريفة المحمومة في الكوخ، ثمّ ينتهي في الغابة القريبة باشتباك بين المجاهدين وجند الاستعمار.

غير أنّ هناك أموراً ظلّت غائبة من أحداث هذه القصّة، ومن ثَمّ ظلّت مفتوحةً، في الحقيقة، للقارئ يؤوّلها كيف يشاء... فمن حقّ القارئ أن يتساءل، مثلاً، عن: أين زوج الشيخ محمود؟ فهل وقع تطليقها أو تُوُفِّيَت؟ ومتى كان ذلك، أو هذا؟ ومتى تزوّج الابن الأكبر للشيخ محمود؟ وإذن كم كانت سِنَّا طِفْلَيه اللّذين تركهما يعيشان مع أمّهما بعد أن التحق بصفوف جيش التحرير؟ ومن استشهد من أبناء الشيخ محمود: آلْأَكبرُ الذي كان متزوّجاً وأباً لطفلين، أم

الأصغران، أم سوى ذلك شأناً؟ وما كانت حرفة الشيخ في الأصل؟ أكان فلاحاً أم كان هاجر من قبلُ إلى فرنسا ليعمل في بعض معاملها فكان متقاعداً، أو غير متقاعِدٍ؟[1]

ثمّ ما سرّ هذه المرأة التي تبدو عَوَاناً: بحيث لا هي عجوزٌ طاعنة، ولا هي فتاة ناضرة؟ وكيف قُتِل بعلُها في مجازر ثامن مايو من عام 1945 فبقيت أيِّماً مع فاطمة وسعيد الذي التحق بجيش التحرير في الروابي المجاورة؟ وما سرّ عطف الشيخ محمود السخيّ على شريفة وفاطمة؟ («لقد توقّفت أفكارها [أفكار فاطمة] عند الشيخ لحظة. لقد أظهر لها ولأمّها طيبةً، لم يسبق لهما أن عرفتاها. كان الشيخ قد صعد على كبره إلى الجبل القريب في القرية، ليبحث عن الطبيب، ويأتي به لمعالجة أمها، ولكنه اضطرّ إلى الرجوع من نصف الطريق، وقتما تبيّن له أن قسماً من جنود العدوّ لا يزال يفتش بعض الفجوات. وفي أثناء عودته جمع بعض النباتات، ومزج بعضها ببعض، ثمّ عصرها واستخرج منها سائلاً أخضر غامقاً، ظنّ أنه سيشفي شريفة أو يطرد عنها رعدة الحمّى»). لقد كانت السيدة فقدت بعلها، إذن، في مجازر ثامن مايو عام 1945.[2] مما كان يعني أنّ السيدة شريفة –الشخصيّة الورقيّة على كلّ حال– كانت لا تزال فيها بقيّة من شباب... أكان الشيخ محمود يهمّ، إذن، بأن يتزوج شريفة طالما كان، هو أيضاً، أيّماً؟ وما كان المانع من ذلك؟ وإلاّ فلِمَ كان يتكلّف التنقّل بين كوخه وكوخ المرأة المنقطعة ويبحث لها عن الأعشاب الْمُبْرِئة حين حُمَّتْ؟ أكان ذلك لمجرد الشهامة أم كان

1. لم يكن نظام التقاعد معمولاً به في فرنسا فيما قبل الحرب العالميّة الثانية، فيما يبدو، ولذلك ألفينا كثيراً ممن عملوا في فرنسا انطلاقاً من بدء الهجرة إلى العمل في سنة 1914 لم يتمتّعوا بحق تعويضات التقاعد... فذلك تأويل قولنا «أو غير متقاعد».

2. ينظر دودو، م.م.س.، ص.16.

لغاية أخرى؟ فلا بدّ أن يكون وراء كلّ حركة في أيّ عمل سرديّ: علّة، وغاية معاً...

ويبدو أنّ رسم ملامح شخصيّات هذه القصّة تمّ على الطّريقة التّقليديّة بحيث نجد القاصّ يصطنع ضمير الغائب في السرد (هو، وهي)، بالإضافة إلى وصْف ملامح فاطمة وكأنّها مسجّلة فعلاً في الحالة المدنيّة ببلديّة من بلديات الجزائر، وذلك حين يقول: «كانت فاطمة فتاة ريفيّة، تجاوز سنها السادسة عشرة بقليل ضعيفة التركيب. ناتئة العظام، شاحبة المحيا، ذابلة العينين، كئيبة النظرة. معروقة الأطراف».[1]

فهذا الوصف يشي بتبنّي الطريقة السرديّة التقليديّة في التعامل مع الشخصيّة، وتقديمها إلى القارئ على أنّها شخص يولَد، فيحيَى، فيموت. في حين أنّ الشخصيّة ليست إلاّ مكوّناً ورَقيّاً من مكوّنات السرد الأُخَر مثل النسج اللغوي، والحيز، والزمان، والحدث... وإلاّ فما ذا كانت الغاية من وراء هذا التقديم الذي كأنّه من كتابات القرن التّاسع عشر؛ فقد كان يمكن الكاتب أن يحتال على ملامح فاطمة من خلال تعامل الشخصيّات الأخرى معها، وخصوصاً أمها كأن تقول لها مثلاً:

- مالَكِ يا ابنتي اغتديتِ نحيفة شاحبة، وأنت في شبابك الأوّل؟ أو:

-عزيز عليّ أن أراك على هذه الحال من الشحوب والهزال، مع أنّك صبيّة في مقتبل العمر؟

1. م.س.، ص.15-16.

وكان يمكن الكاتب أن يحمّل الاستعمار الفرنسيّ أيلولة هذه الصبيّة إلى ما آلت إليه من البؤس والهزال والشحوب: لشيوع الفقر بين المواطنين الجزائريّين لاستبداد المعمّرين بكلّ الثروات والأرزاق، ولشظف العيش، ولانعدام العمل، ولازْدِراء الاستعمار للجزائريّين أيّما ازدراء...

أمّا أن يقدّم القاصّ شخصيّته تقديماً جاهزاً إلى قارئه فلا يترك له حقّ التفكير ولا التخمين فلا!... لقد غدت الكتابة السرديّة، وكلّ أجناس الكتابات الأدبيّة، مُناصَفةً بين الباثّ والمتلقّي؛ بحيث لا يقدّم الأوّل إلى الآخِر كلَّ شيء جاهزاً، ولا على أساس أنّ الباثّ يعرف كلّ شيء من شأن الأحداث والشخصيات والأحياز... وممّا أوقع القاصّ في ذلك أنّه اصطنع ضمير الغائب الذي لا يستطيع، بحكم وظيفته التقليديّة المحدودة، أداءَ وظيفة سرديّة غنيّة مفتوحة تعلو على ما في طاقته. ولعلّ من أجل ذلك أمسى كتّاب السرديّات يفزَعون إمّا إلى ضمير المتكلّم بتقمّص الشخصيّة التي لا تعرف مصيرها سلفاً، وإمّا إلى ضمير المخاطَب الذي يصف الشخصيّة ويعاملها على أنها واقع حاضرٌ ليس بإمكانه معرفة ما وراء لحظة ذلك الحاضر...

وعلى الرغم من أنّ دودو حين كتب هذه القصص كان لا يبرح في أوّل الشباب، وفي ذلك من العذر له ما هو، إلاّ أنّ إتقانه للّغة الألمانيّة وعيْشه في النمسا وغيرها من البلدان الأوربيّة التي تعرف ماهية الأدب بعامّة، والكتابة السرديّة بخاصّة، تجعلنا نتساءل عن سرّ الوقوع في الطريقة التقليديّة في كتابة عامّة هذه الأقاصيص الجميلة على كلّ حال؟...

3. الحيـز

يطلق عامّة النّقّاد المعاصرين، وخصوصاً نقاد الرواية على مفهوم «الحيز» مصطلح «الفضاء». وربما أطلقوا عليه في شيء من السذاجة «المكان». والحقّ أنّ هذا المكان يتمحّض في حقيقته للجغرافيا. في حين أنّ الفضاء أعمّ دلالة وأوسع من أن ينصرف إلى المساحة التي تضطرب فيها شخصيات عملٍ سرديّ ما. فلو أطلقنا على هذا المفهوم مصطلح «المكان»، هنا، لكان علينا أن نبرهن على حدوده الجغرافيّة وتضاريسه السطحيّة برهنةً دقيقة، والحال أنّه مجرّد مكوّنٍ سرديّ من بين المكوّنات السرديّة الأُخَرِ؛ فكيف نُقحم مفهوماً في غير مكانه؟ أرأيت أنّ الأحياز الواردةَ في هذه القصة من أحراش وماء وزيتون يمكن أن توجَد في أيّ ولاية من ولايات الوطن الشماليّة؛ وإلاّ فمن يستطيع أن يدلّل جغرافيّاً على حيز هذه القصّة فيجرؤ على أن يطلق عليه مكاناً؟

ذلك، وإنّا قد كنّا تناولنا هذه المسألة بتفصيل في كتابات لنا سابقة، منها كتابنا: «في نظريّة الرواية» (نشر عالم المعرفة، الكويت).

والحيز الأدبيّ في هذه القصة، كما سبقت الإيماءة إلى ذلك، يَسْتَميز بالانقطاع عن العالم الخارجيّ؛ ذلك بأننا ندرك أنّ كوخ شريفة وابنتها يقع منعزلاً عن دور القرية التي تبدو بعيدة عنه. كما أنّه يقع في ربوة من الروابي المكسوّة بأشجار الزيتون. في حين أنّ كوخ الشيخ محمود، فيما يبدو، لا يبتعد كثيراً عن

كوخ المرأتين من وجهة، ولا تختلف معالمه الحيزيّة عنه أيضاً. فهو يقع في منطقة لا هي جبليّة ولا هي سهليّة، ولكنها حيز دون ذلك. كما نفهم من إسراع الفتاة فاطمة إلى العين لتستقيَ جرّةً من الماء لتشرب منها أمّها الموزُودة أنّ موقع هذه العين لم يكن بعيداً عن موقع الكوخ.

ومما يلاحَظ من شذوذٍ في موقع الكوخين أنّ الشيخ محمود حين أراد أن يأتي بالطبيب لشريفة المريضة كان عليه أن يصعد، «على كبره، إلى الجبل القريب في[1] القرية»[2]. ذلك بأنّ العادة جرتْ على أنّ القرية تكون في السفوح والسهول غالباً، والدُّور المنعزلة تكون إمّا في سفوح الهضاب أو على ضفاف الأودية العميقة، وإمّا في قمم الجبال الشاهقة. أمّا أن يصعد صاحب الكوخ المنعزل إلى قرية تقع منه في مكان أعلى، فذلك يصعب تقبّلُه إلاّ في أحوال الاستثناء.

ولقد كان هذا النّصّ الذي نحن بصدد تحليله يندفع نحو الجمال يغترف منه، بعد أن يتمثّلَه أنيقاً قشيباً كما في قوله وهو يصف وجهاً من أوجه الربيع البديع: «لقد ولّت أيّام الشتاء القاسية، وأقبل الربيع بشمسه وزهره، وعبيره ونَوره، فاستراحت الأرض بعد طول غرَق وسَيَخان».[3]

---

1. يبدو أنّ الكاتب يريد إلى «من».
2. دودو، م.م.س.، ص.17.
3. م.س.، ص.16.

وكانت المسافة التي تفصل ما بين كوخ المرأتين، وكوخ الشيخ محمود «بعيدةً نوعاً ما».[1] ولقد تعني عبارة «بعيدة نوعاً ما» الغامضة أنّ هذه المسافة ربما كانت تقدّر بألفٍ، أو ألفَيْ خطوة، على أقصى تقدير. ومثل هذه المواصفة تزيد هذا الحيز غموضاً من وجهة، ولكنّها تعني انعزاله عن العمران، وانقطاعه عن مجتمع السكّان من وجهة أخراةٍ؛ فهو حيز وحشيّ، ولا شيءَ يوجد فيه غيرُ أشجار الزيتون، وتلك العينِ المنقطعة هي أيضاً عن الطريق العامّ.

وعلى الرغم مما ذكرنا فإنّ نصّ القصّة مع ذلك يحاول توضيح ملامح هذا الحيز القصصيّ، وتحديد معالمه وذلك بتقديم وصْف سريع له يمثُّل في أنّ كوخ المرأتين –الأمّ وابنتها– كان «يقع على مُرتَفَع من الأرض، يُشرف على سهل مائل، تقتعده أشجار الزيتون المتلاصقة، وحين تعث الريح برؤوسها تبدو كبحيرة غامقة، لامعة متموّجة».[2]

فليس الحيز هنا واضح المعالم، بارز الملامح فحسب، ولكنه جميل أنيق بما تبدو عليه مَرْآتُه من أناقة ونضارة.

ويتوَكّدُ جمال هذا المشهد الحيزي في موقف آخر؛ وذلك حين يخاطب الشيخ محمود فاطمة الصبيّة فيقول لها: «ها هي أشجار الزيتون تُعطي منظراً واحداً على اختلاف جذورها».[3]

---

1. م.س.، ص.19.
2. م.س.، ص.22.
3. م.س.، ص.26.

غير أنّ الواضح في هذا الحيز أنّه كان جبليّاً وعراً، وكانت المسالك إليه شِعاباً لا طرُقاً، ولذلك نجد الفتاة فاطمة حين تذهب إلى العين لاستقاء الماء «سلكتْ طريقاً ملتوياً، تحفّ به أشجار الزيتون حتّى نهايته، حيث تقع العين في حضن زانة كبيرة، وهي تبعد عن الخباء بمقدار ربع ساعة»[1] من المشي للراجل.

غير أنّ النصّ يقع، من بعد ذلك، في شيء من التناقض في التعامل مع الحيز القصصيّ حين يرقَى بالحيز الجبليّ المنقطع عن العالم إلى شارع معبّد عريض؛ أرأيت أنّ فاطمة وهي آيِبَة من العين «أسرعتْ تحثّ الخطى آخذةً طريقاً تؤدّي إلى الشارع الرئيسيّ الذي تحجبه نباتات العليق».[2]

الشارع لا يكون إلاّ في قرية كبيرة، أو مدينة، فكيف استحال هذا الحيز الجبليّ الوعر، بقدرة قادر، إلى شارع رحيب؟

وأيّاً ما يكن الشأن، فإنّ الحيز الجبليّ آمَنُ وأرحم للشخصيّة، وأنجى لها، وأقرب إلى سلامتها من الحيز السهل العريض، في مثل هذه المواقف...

1. م.س.، ص.27.
2. م.س.، ص..28.

4. الزمـان

تركض أحداث هذه القصّة في زمن مكثّف، قصير؛ بحيث لم يجاوز بضعة أيّامٍ. وذلك شأن التعامل مع الزمن في الكتابة القصصيّة التي خاصّيّتها الأولى هي التكثيف في الحدث والزمن والمكان واللّغة السرديّة جميعاً... ولقد اتخذ الكاتب «حِيَلاً» فنّيّة ذكيّة للإفلات من تكاليف التفاصيل الزمنيّة بأن عمَد إلى التعامل مع الزمن الغائب؛ ذلك بأنّه لو ذكر كلّ تفاصيل هذا الزمن بأجزائه الصغيرة لكان نصّ القصّة طال، ولكان ربما تحوّل إلى نصّ روائيّ قصير...

فالأُولى: إنّ أحداث القصّة الغائبة تبدأ قبل الأحداث الحاضرة بيومين اثنين على الأقلّ: «منذ يومين تعوّدت [فاطمة] أن تجلس قرب فراش أمها شريفة. وذلك كلّما شعرت بسطوة الألم، والوحدة».[1] وإذن، فهذه المريضة –الأمّ شريفة– التي نراها طريحة الفراش أُصيبت بعلّة الحمّى منذ يومين اثنين، مما يسمح للزمن بالانفساح قليلاً إلى الوراء.

والثانية: إن الزمن العامّ الذي يظرف أحداث قصة «بحيرة الزيتون» كان ربيعاً وليس غيره: «لقد ولّت أيّام الشتاء القاسية، وأقبل الربيع بشمسه وزهره وعبيره ونَوره، فاستراحت الأرض بعد طول غرق وسيخان».[2]

1. م.س.، ص.16.
2. م.س.

ويبدو أنّ القاصّ أراد لهذا الزمن أن يكون باسِم الثغر، ناضر الطلعة، عطر الأطراف؛ وذلك بأن جعَلَه ربيعاً قشيباً. وفي ذلك ما فيه من رمز لذهاب عهد القساوة (فصل الشتاء)، وإقبال عهد الأمل والإشراق.

والثالثة: إنّ زمن القصة الْمَعِيش فيها لم يجاوز أربعاً وعشرين ساعة: تبدو شريفة على فراش المرض وابنتها تمرّضها، والحمّى تُلهب جسمها. ثم يأتي الشيخ محمود لِيَعُود المريضة، وقل: يتفقّدَ هاتين الوحيدتين المنعزلتين، ويأتي إليهما بشيء من مسحوق القهوة والسكّر، في كَرَم الجزائريّ وشهامته. وتمضي ليلة واحدة على ذلك، وتُخرج فاطمة أمَّها شريفة التي بدأت تُفْرِقُ من حُمّاها إلى بعض فناء الكوخ. وترغب الأمّ إلى شرب الماء، فتتذكّر فاطمة أنّ ماء جرّتها بائت، ومن الأَوْلى أن تأتي أمَّها بماء من العين ليومه، فتذهب بجرّتها إلى العين لتملأها، لتضعها على رأسها، لتجدَ جند الاستعمار في بعض طريقها، ليتصادف ذلك مع مرور الشيخ محمود، ليُعرّيَه الجنود الأعداء ويضربوه ويهينوه وفاطمةَ، ليتركوا الشيخَ يتخبّط في دمائه، ليعود محمود وفاطمة من بعد ذلك إلى كوخ شريفة التي كانت تكلّفت الخروج من الكوخ حين سمعت حركة الجنود الفرنسيين، لتضمّد فاطمة كِلاَم الشيخ في كوخها، ليسمعوا من بعد ذلك، وقبل أن يحلّ الظلام، إطلاق نار في جبل قريب من الكوخ... فلقد وقعت معركة بين المجاهدين، وأولئك الجنود المتغطرسين لم تُعرف نتائجها؛ لتنتهي أحداث القصّة...

فالأحداث كما نرى يتسارع زمنها بشكلٍ لافتٍ، وهي سيرة الزمن الذي يليق بكتابة القصّة، حيث لم يكد يجاوز أربعاً وعشرين ساعة.

والأخرى: هناك في هذه القصة ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح «الزمن الغائب»، وهو ذلك الذي يتمحّض خصوصاً لشخصيّة شريفة التي كانت تغيب عن الوعي فلا تسمع ابنتها حين تحادثها؛ وإذن، فلا تجيبها. وكانت ربما هذَتْ هذَيَاناً فلم تكن تعي الزمان ولا المكان الذي كانا يحيطان بها.

5. لغة السرد

لا تبرح اللّغة هي مفتاحَ المعرفة، بحكم كونها أداة للتعبير، وترجماناً للتفكير. ومَن لا يملك اللّغة لا يستطيع أن يكون كاتباً ولا مفكّراً، بل ولا إنساناً أيضاً. واللّغة، هنا، لغتان: اللّغة المعجميّة، واللّغة الفنّيّة.

أ. اللّغة المعجميّة

فأمّا اللّغة المعجميّة فإنّ الكاتب تعامل معها بحذق، وإن لم يُفْلت من بعض الْهَنَات. ونودّ أن نذكر منها طائفة في هذا المقام دون المبالغة في متابعة الصغائر والكبائر منها؛ فمن ذلك اصطناعه لفظ «الخِباء» وكان الكاتب يريد به إلى المنزل الحقير، وهو الذي اقترحنا له استعمال الكوخ. وقد تكرّر هذا الاستعمال عدّة مرّات[1]؛ فقد اتفقت المعاجم العربيّة على أنّ الخباء هو ما يُصنع من وبر أو صوف أو شعر للسكن.

ولا نحسب أنّ أهل الشمال الجزائريّ يصطنعون الأخْبية عوضاً عن الدُّور مهما تكن بسيطة أو بدائيّة.

1. ينظر، مثلا، ص.15؛ 16؛ 22.

ومما لاحظناه في نسج لغة القصّة أنّ الكاتب كان متأثراً باللّغة المشرقيّة فنجده يطلق على شهر مايو لفظ «أيار» فيقول: «فقدتْ أباها في ثورة أيار. شهر الدماء والدموع والألم».[1] ولا أحدَ من الجزائريّين، ولا من أهل المغرب العربيّ أيضاً جميعاً، يطلق على شهر مايو –أو ماي– عبارة «أيار» المشرقيّة. كما نجد الكاتب يصطنع عبارة «يا حبّة عيني»[2]التي تتناجَى بها فاطمة في ادِّكَارِها أخاها سعيداً.

ب. اللّغة الفنّيّة

يبدو أنّ اللّغة الفنّيّة، لدى أبي العيد دودو، في قصّة «بحيرة الزيتون» أحسن حالاً وأفضل شأناً من اللّغة المعجميّة؛ فهو يتعامل معها برقّة ورشاقة وسموّ. فالكاتب حين يصف، مثلاً، إفْلات الزمن من شتائه إلى ربيعه يبدع إلى أن يقترب من مستوى الشعريّة فيقول: «لقد ولّتْ أيام الشتاء القاسية، وأقبل الربيع بشمسه وزهره، وعبيره ونَوْره؛ فاستراحت الأرض بعد طول غرَقٍ وسيَخان. وكانت فاطمة تأمل أن تهبّ على أمّها نسمةٌ ربيعيّة، فيها نقاء وشفاء...».[3]

لقد ولّت أيّام الشتاء ببردها وزمهريرها، وسحائبها المتراكمة في السماء، ورياحها المزمجرة في العراء، وأقبل فصل الربيع البديع بكلّ ما فيه من ورود عطرة، وأزهار عبقة، وأشعّةِ شمسٍ مُنعشة، بعد أن كانت تلك الأيّام طالت حتّى

1. م.س.، ص.16.
2. م.س.، ص.20.
3. م.س.، ص.16.

غرِقت الأرض في الأوحال... كما يعمِد النّصّ إلى اصطناع لغة شعريّة رمزيّة مثل قول شريفة في هذيانها:

«الظلمة، ما هذه الظلمة؟ لم تخضرّ الأشجارُ بعد؟ لم تشرق الشمس بعد! (...) زيتوننا يتطاير. انهارت تينتنا الكبيرة... الكلب يتقاطر دماً. أكل الذئب الماعز. سقط نجم كبير. برقٌ ورعد...».[1]

فهذه اللّغة، كما نرى، شعريّة رمزيّة إلى حدّ كبير. في تمزّقها الشعريّ المكثّف. وفي زخمها الدلاليّ المعمّق. فقد امتزج فيها الهذيان بالمساءلة، والتقريريّة بالإيحاء، ووصْف الحال بالرغبة العارمة في الإفلات من الوضع المزري الذي تعيش فيه الشخصيّة، ومن خلالها الشعب الجزائريّ كلّه...

وعلى أنّ هذا النّصّ كثيراً ما يعمد، في الحقيقة، إلى اصطناع هذه اللّغة السرديّة المثقلة بالحركة السرديّة الرّشيقة، كقوله حين عرض لشأن شخصيّة الشيخ محمود وعلاقته بشريفة، أو قل: وعلاقته بالكوخ الذي بناه لشريفة خصوصاً: «أجال الشيخ محمود نظرته في الخباء، كأنّه يبحث عن خلل أو عطب فيه، ورجعت به أفكاره قليلاً إلى الوراء. كان الخباء يقع على مرتفَع من الأرض، يشرف على سهل مائل، تقتعده أشجار الزيتون المتلاصقة، وحين تعبث الريح برؤوسها تحت أشعّة الشمس الزاهية تبدو كبحيرة غامقة لامعة متموّجة».[2]

وإذا كنّا استشهدنا ببعض هذا النّصّ من قبل، في هذه الدراسة، فلأنّ ذلك كان خالصاً للحديث عن الحيز. في حين أنّ استشهادنا به هنا ينصرف إلى

1. م.س.، ص.20.
2. م.س.، ص.22.

استكشاف اللّغة الشعريّة التي كان القاصّ يصطنعها في سرد الأحداث، ووصف الأحياز، وبناء الأزمان، والحقّ أنّ عامّة اللّغة السرديّة في هذه القصّة تجنح للشعريّة والتكثيف، بحيث تقرأ القصّة فتُحس، في بعض أطوار القراءة، أنّك تقترب من النّصّ الشعريّ المنثور.

أشيـاء من دودو..

بقلم: عزالدين ميهوبي / اتحاد الكتاب العرب واتحاد الكتاب الجزائريين

إذا أردت أن تحلم فما عليك إلا أن تكتب عن أبي العيد دودو.. فهو حلم ظل طويلا في حياتنا ثم تلاشى في لحظة كنا فيها منشغلين بهم الوطن والإنسان التائه بين جدران الخوف والموت والبحث عن شيء يسمى.. الأمل.

أقول هذا لأنني أدعي بمحبة كبيرة أن لي مع الراحل الكبير أبو العيد دودو أشياء تكشف عن معدن هذا الرجل المختلف أبدا.. فهو مبدع أولا وصديق ثانيا.. وإنسان أبدا.

سأروي للقارئ بعض الأشياء التي علقت بذاكرتي من "جراء" التواصل المستمر مع هذا الكاتب الرائع والإنسان اللطيف..

كنت أزوره بين الحين والآخر في شقته الواقعة بحي "الاسفوديل" بابن عكنون.. ولم تكن مكتبته تتسع لاستقبال اثنين فكيف بالثلاثة، وما أن يلاقيك في مدخل الباب حتى يطلق واحدة من نكاته الغريبة والعجيبة، فهو ذو دعابة مستحبة، وكثيرا ما يقصده أصدقاؤه لروحه المرحة وتعليقاته الجميلة، وروايته لحكايات عاشها في صباه وأيام دراسته ببغداد أو النمسا.. وكنت أعجب لهذا الرجل في أيامه الأخيرة وهو يقول لي كلما زرته إنني أشرف على وضع اللمسات الأخيرة لترجمة كتاب فلان.." ويضيف "لم يسبق أن ترجمه العرب، فهو مفيد.." وبعد أن يلقي كثيرا من اللوم والعتاب على الذين لم يعودوا يزورونه.. يسحب من تحت المخدة دفترا يسجل فيه شيئا من يومياته ويشرع في قراءة بعضها، كم هي جميلة ومرة، وأشهد أنها بقدر ما تحمله من متعة في السرد وتوثيق كثير من الأحداث والوقائع، فإنها تحمل إدانة واضحة وصريحة للكتاب الذين وظفوا اسمه في مسائل لها صلة بالثقافة دون استشارته، ويعتبر ذلك استثمارا في تاريخه وسمعته..".

في العام 2000 دعيت للمشاركة في "مهرجان المتنبي للشعر" بمدينة زيوريخ بسويسرا، وطلب مني المنظمون إرسال النصوص التي أنتخبها لإلقائها في المهرجان قصد ترجمتها، لكنني وبتباه كبير، قلت لرئيس المركز الثقافي العربي السويسري الشاعر العراقي علي الشلاه "سأكفيكم مسألة الترجمة، فنحن نملك في الجزائر من يقدر على ذلك وزيادة.. إنه الدكتور أبو العيد دودو". وذهبت إلى الراحل الذي عرضت عليه الأمر فكان سعيدا بأن ألجأ إليه واعتبر ذلك جزءا من المسؤولية تجاه الأدب الجزائري

والتعريف به في الخارج، وترجم لي في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام نصين قال لي عنهما "إنهما جديدان بالترجمة" هما "اللعنة والغفران" "بكائية بختي" ثم اقترح علي أن يترجم ديوان "كاليغولا يرسم غرنيكا الرايس" كله إلى الألمانية "وعلمت منه رحمه الله قبل وفاته بأيام أنه شرع في ترجمة بعض النصوص منه..

عندما وصلت سويسرا في ربيع 2000 وجدت أسماء كبيرة في المهرجان منهم سورتاريوس (ألمانيا) وعبد المعطي حجازي (مصر) محمد الفيتوري (ليبيا) تيوبالدي (سويسرا) فوزية السندي (البحرين).. وكنت من الشعراء الأربعة الذين اختيروا في افتتاح المهرجان، في قاعة المسرح الأرضي بزيوريخ، وكان من بين الحاضرين سفيرنا ببيرن وعميد السلك الديبلوماسي آنذاك عبد الملك قنايزية، والحقيقة أن الحضور جميعا أجمعوا أن ما ألقيته كان مفاجئا لهم وأن المفاجأة الأكبر كان في الشحنة التي كانت تحملها ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، فقد شعر الجمهور السويسري والألماني أنهم أمام نصوص عميقة شعرا ولغة.. حتى أن الممثل السينمائي الذي تم اختياره لإلقاء النصين المترجمين تفاعل بصورة مذهلة مع ما ترجمه دودو لدرجة جعلت الحاضرين يتفاعلون معه حد البكاء..

وفي ختام القراءات سألني الصحافيون عن المترجم فقلت "إنه جزائري.." فعلق بعضهم "لكأنه من الألمان الأوائل..".

وفي العام الموالي جاء الشاعر علي الشلاه إلى الجزائر، وأول ما طلبه مني أن أعرفه على الدكتور أبو العيد دودو، فذهبنا معا لزيارته، فزاد إعجاب الشلاه بدودو عندما رأى هذا الرجل المتواضع المقيم في بيت متواضع، ينجز ما عجز عنه كتاب أمنت لهم وسائل مادية مريحة جدا.. وطلب منه أن يلبي دعوة المركز للدورة الثالثة من المهرجان كضيف شرف، وأن يكتب كلمة عن "الشعر والدين" باللغتين العربية والألمانية لتطرح إشكالية موضوع المهرجان، فاعتذر الدكتور أبوالعيد دودو لدواعي صحية لكنه كتب مقالا عن علاقته بالدين والشعر، وصدر في نشرة المهرجان كما كتبه.. واتصل بي علي الشلاه عقب سماعه خبر وفاته وهو يقول لي "عرفناه متأخرين..".

أبو العيد دودو فلتة في تاريخ الأدب المعاصر، فهو الشاعر والقاص والمترجم والناقد والمحقق والمؤرخ.. والمربي الذي نشأت على يديه أجيال وأجيال.

لن أنسى يوم هاتفته طالبا منه أن يشارك معي في ندوة بالتلفزيون موضوعها "ذكرى تأسيس اتحاد الكتاب الجزائريين" فقال لي "هل تعتقد ياعزالدين أن رجلا اجتمع فيه 13 مرضا قادر على أن يتحدث في ذكرى مثل هذه.. إنني أخشى الضوء". وبعد انتخابي على رأس الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب هاتفني فرحا وهو يقول لي "كنت أعرف أنك ستفوز.. لأنني ما زلت مؤمنا أن في الجزائر رجالا يحبونها ويحبون الأدب.. هنيئا لنا ولك".

وعندما علمت بوفاته كنت خارج الوطن، واتصل بي التلفزيون الجزائري ليعرف رأيي في الفقيد الراحل فقلت "لم يكن خسارة للجزائر فحسب، فهو خسارة للعرب والألمان.. لأنه أخذ على عاتقه ترجمة كل ماله صلة بالجزائر، كتب بالألمانية، أدبا وتاريخا، ثم راح يترجم أمهات الكتب التي أثرت في الفكر الإنساني كمؤلفات هايديغر..

شعرت وأنا أزوره في بيته قبل وفاته أنه يستعجل نفسه في بلوغ شيء ما، فكان لا يتوقف عن الكتابة، يترجم مسرحية لهذا، ومقالا لذاك، ويقدم لكتاب كهذا ويطلب رأي ذاك في هذا العمل أو هذه الترجمة.. ولا أبالغ إن قلت إن في جعبته من الأعمال التي لم تنشر ما يفوق العشرين.. لأنه بإيجاز، ولد ليكتب، وكتب ليظل خالدا في ذاكرة الكتابة، وفي وجدان الذين أحبوه.. فليس هناك من لم يحب الراحل أبو العيد دودو.

الدكتور أبو العيد دودو

نبذة وجيزة عن حياته وآثاره

أ.د. مختار نويوات / رئيس تحرير مجلة اللغة العربية (جامعي)

فكّرت طويلا فيما يمكنني أن أعرض من حياة المرحوم أبي العيد دودو من آثاره فوجدتُني أعجز ما يكون عن ذلك لأنّني لم أحْظَ بلقياه لا صبيّا ولا شابّا ولا في مقتبل كهولته. إنّما عرفته، في أوائل الثمانينيّات، أستاذا ومديرا بمعهد اللغة العربيّة وآدابها، بجامعة الجزائر المركزيّة، وعضوا نشيطا من أعضاء اللجان المتنوّعة المهامّ بوزارة التعليم العالي والبحث العلميّ وفي اتحاد الكتّاب الجزائريّين ومحرّرا ممتازا شارك بعدّة مقالات في بعض الدوريّات الوطنيّة كمجلّة الثقافة، ومجلّة المجاهد الثقافيّة، ومجلّة المجلس الأعلى للغة العربيّة. خبرته عشرين سنة أو يزيد فعرفت مكانته وقَدَرْتُهُ حقّ قدره وتوطّدت بيننا عرى صداقة متينة كما عرفت من نماذج

أصالة المعدن ونبل الأخلاق وتواضع العلماء وتقديس الواجب ما بهرني وزاد من إعجابي به.

بَيْدَ أنّي كنت أسأله عن بعض مراحل حياته وعن شخصيّات لفتت نظري في بعض أقاصيصه مثل "عرس الذئب"، و"يدي على صدري"، و" أبو شفة"، فعلمت منه . وكنت أحسستُ بذلك . أنّ حوادث هذه الأقاصيص الثلاث جرت له هو. من هذه النماذج وغيرها، وممّا طالعت من نبذ جدّ موجزة عن حياته في الصفحات الأخيرة من بعض مؤلّفاته وممّا أخبرني به أخي سعد الدين والدكتور عبد المجيد حنّون، وكان وثيق الصلة به، تمكّنت من أن أتعرّف معالِمَ حياته، الكبرى.

ولد أبو العيد دودو يوم الأربعاء في 17 رمضان 31/1352 يناير 1934. ولعلّ ولادته بهذا التاريخ من الشهر المعظّم وبقرب من حلول عيد الفطر هي التي جعلت أهله يختارون له على سبيل التفاؤل اسم (بلعيد). وهي عادة منتشرة عندنا. ومن ذلك العيد وبلعيد ومحمّد العيد ورمضان وعاشور والربيع والخميسي والجمْعي وغيرها من الأسماء. هذا إن لم يكن أُعطِي اسم أحد أقاربه المتوَفَّينَ. ولد بدوار (تامنجر) من بلديّة (العنصر) دائرة (الميليّة) ولاية (جيجل). توفّي والده وتركه صغيرا في حضن أمّه. ولئن صدق حدسي فإيّاه يعني متحدّثا عن " أبي شفة ".قال في هذه الأقصوصة : " فابتسم، ولم أدر ما كان يدور خلف ابتسامته، ولكنّه راح بعد ذلك يصف والدي بأنّه كان رجلا، فمات وهو يحاول أن يجعل من الغابة أرضا، يزرعها قمحا وشعيرا، ليضمن منها حياة أطفاله. سقط ميتا والفأس في يده، وذلك

بعد أن حقّق شيئا ممّا أراد ". (الطريق الفضّي: ص 54). وأدخِل الكتّاب فحفظ ما تيسّر من القرآن واختلف إلى بعض المدارس الابتدائيّة الحرّة فتعلّم قليلا من مبادئ العربيّة. لكنّ الأقدار شاءت أن يرعى قطيعا من الماعز جدّ قليل. يقول في مجموعة الأقاصيص السابقة (ص 37–8) وقد أكل له الذئب جديا :" ووجدتُ لساني يسرع إلى لغة الرعاة المفضّلة فأخذت أسبّ وألعن كلّ شيئ، مع أنّ هذه اللغة كانت غريبة عن لساني، فلم أستعملها قبل ذلك اليوم. كنت في السابق أتذكّر كلمة أمّي حين تغضبني بعض مِعازي بتعنّتها وعصيانها. فقد قالت لي أكثر من مرّة (إيّاك أن تكفر كما يكفر الرعاة الآخرون ! **فلا يليق بمن مرّ كلام الله في فمه أن يكفر._تذكّر دائما أنّك قرأت القرآن !**)._ وفي يومي ذاك لم أتذكّر كلّ هذا. أنساني الذئب كلمتها فشتمت الدنيا، لعنتها وكفرت".

أخذه عمّه بعد ذلك إلى قسنطينة وآواه وكان تاجرا بسيطا لم يستطع أن يوفّر له رغد العيش والحياة الميسّرة مع حبّه له وعطفه عليه. وأحيل القارئ الكريم على قصة "يدي على صدري" من مجموعة "دار الثلاثة" (ص 49–74)، فإنّ اليد يده والصدر صدره. وفي سنة 1947 أدخِل معهد الإمام ابن باديس حيث قضى أربع سنوات درس فيها مبادئ الصرف والنحو واللّغة، وشيئا من الفقه والتاريخ الإسلاميّ والجغرافيا. وكان المرحوم الشيخ أحمد حمّاني خير سند له بالمعهد. وقد أشار إليه دون أن يسمّيه في "يدي على صدري" . ثمّ التحق بجامع الزيتونة، شأنه في ذلك شأن طلبة العلم من الجزائريّين. وبعد برهة أرسِل في بعثة من بعثات جمعيّة العلماء المسلمين

الجزائريّين إلى بغداد فانخرط في سلك طلبة دار المعلّمين العليا التي كوّنت، فيما بعد، مع غيرها من الكليّات والمدارس العليا، جامعة بغداد الحاليّة؛ فإنّ هذه الجامعة لم تؤسّس إلاّ سنة 1956 . ورَحُبَت به الدّاران : دار المعلّمين ودار المأمون وبيت الحكمة، وغزُرت ينابيع المعرفة فنهل منها وعلّ، ووجد أساتذة أكفاء يحسنون عدّة لغات ويستمدّون من ثقافات شتّى، أساتذة باحثين رسّخوا معارفه وأثروها وفتحوا له آفاقا جديدة واسعة. وببغداد تعلّم شيئا من الإنجليزيّة ومن الفارسيّة، وبها زاد شغفه بالمطالعة وصلته بالتراث وكتاباته تدلّ على ذلك وعلى أنّه كان طُلَعَةً سريع الإدراك مرهف الحسّ.

تخرّج من دار المعلّمين العليا سنة 1956 فيمّم فيينا بالنّمسا وبها تعلّم اللغة الألمانيّة إلى أن أجادها وشيئا من اللاتينيّة (تراجع بعض التفاصيل في أقصوصة "الحبيبة المنسيّة" من "مجموعة بحيرة الزيتون"، ص 127). درس بجامعتها خمس سنوات وتعاطى البحث العلميّ إلى أن تخرّج منها سنة 1961 دكتور دولة برسالة حقّق فيها كتاب "التاريخ المنصوريّ " لابن نظيف الحمويّ ونقله إلى الألمانيّة، وكان ذلك سنة 1961 (وقد نشر الرسالةَ سنة 1982 مجمع اللغة العربيّة بدمشق،وكان نشرها مستشرق بموسكو). والمنصوريّ نسبة إلى الملك المنصور أبي العلاء ناصر الدين محمّد بن عمر بن شاهنشاه (567-617) صاحب حماة. وهو ابن الملك الظفّر تقيّ الدّين عمر وابن أخي صلاح الدّين الأيّوبيّ وجدّ المؤرّخ الشهير أبي الفداء. وكان المنصور أديبا مؤرّخا محبّا للأدب والعلماء محسنا لهم. ثمّ إنّه أبلى بلاء حسنا في الحروب الصليبيّة. ولعلّ ذلك ما جعل الدكتور دودو

يحقّق " التاريخ المنصوريّ" ويترجمه. والظاهر أنّه أوّل من فعل ذلك وأوّل من عرّف، من المعاصرين، بأبي الفضائل محمّد بن نظيف الحمويّ.

وبعد تخرّجه من جامعة فيينا، حصل بها على منصب أستاذ للعربيّة فدرّس بها، ثمّ انتقل إلى جامعة كيل (Kiel) بالجمهوريّة الفدراليّة الألمانية فحاضر فيها بقسم اللغات الشرقيّة. وبالنّمسا وبألمانيا جدّ في دراسة اللغة الألمانيّة حتى اكتسبها بل حتّى أجادها. واحتكّ بالمستشرقين الجرمانيّين، وما أكثرهم وأقدرهم على البحث العلميّ الثريّ العميق الدّقيق ! وعنهم أخذ الطرائق العلمية المنطقيّة في النشر والتحقيق والدراسة والنقد والترجمة والميل إلى التأليف، والمثابرة على العمل، وتوسيع الأفق بمعرفة اللغات. وبعد ثماني سنوات قضاها بأوروبا وبعد تزوّده بثقافة عالية عاد إلى وطنه.

التحق سنة 1969 بجامعة الجزائر المركزيّة، بمعهد اللغة العربيّة وآدابها فعيِّن أستاذا للأدب المقارن والآداب الأجنبيّة ونظريّة الأدب فقام بواجبه خير قيام رغم داء عضال لازمه إلى أن وافته المنيّة في مستهلّ سنة 2004 .

والحقيقة التي لا مراء فيها أنّه أوّل أستاذ جامعيّ للأدب المقارن يعتمد العربيّة أساسا. درّسه وأشرف فيه على عدّة رسائل حرّرت باللغة الوطنيّة على مستويَي الماجستير ودكتوراه الدّولة. نعم ! أُسِّس بجامعة الجزائر منصب (1963) وجمعيّة ومجلّة (1964) للأدب المقارن، إلاّ أنّه لم يكن من بين المؤسّسين لذلك أستاذ جامعيّ واحد ولا كان فيهم من يحسن

العربيّة. إنّما كانوا بحكم دراستهم وشهاداتهم إلى الفرنسيّة أقرب منهم إلى العربيّة*.

بقى أنّ نعدّ المرحوم أبا العيد دودو أوّل المؤسّسين، بجامعة الجزائر، للدّراسات المقارنة التي تعتمد العربيّة لغة دون أن نغضّ من شأن ما أنتج زملاؤه من دراسات قيّمة ترفد هذا الجانب من الأدب أو تصبّ في مجاله.

---

* في القرنين التاسع عشر والعشرين كان محمّد بن أبي شنب (1869– 1929) يجيد العربيّة والفرنسيّة ويعرف العبريّة والإسبانيّة والألمانيّة والفارسيّة والتركيّة وشيئا من اللاتينيّة. وقرن التعلّم بالتعليم منذ كان مدرّسا للغة الفرنسيّة بقرية تامجارت، بالقرب من المديّة، فبمدرسة الفاتح بقصبة العاصمة؛ ثمّ انتقل إلى مدرسة قسنطينة الرّسميّة (1898)، فمدرسة الجزائر (1901). ولمّا أنشئت جامعة الجزائر سنة 1908 نُدِب إليها مساعدا لتعليم اللغة العربيّة دون أن يتخلّى عن منصبه بمدرسة الجزائر. وفي سنة 1922 ناقش رسالة بالجامعة نال بها درجة دكتوراه الدّولة في الأدب العربيّ. وذلك ما سمح له بأن يخلف رسميّا على كرسيّ اللغة والأدب العربيّ المستشرق René Basset المتوفّى سنة 1924. لم يدرّس كأستاذ جامعيّ بأتمّ معنى الكلمة إلاّ خمس سنوات. وكان الوحيد القادر على الإنتاج في ميدان الأدب المقارن وهو الذي كان يعرف ثماني لغات، والذي وهبه الله حبّ المعرفة والفكرَ الوقّاد وسعة الأفق والطموح الوثّاب ولمقدرة النادرة على العمل. لم يَنِ عن البحث مدّة ثلاثين سنة فكان غزير الإنتاج في شتّى الميادين: ألّف في اللغة والعروض والفقه والحديث والتاريخ وحقّق ونشر ونقل إلى الفرنسيّة العديد من المخطوطات التراثيّة لا سيّما ما تعلّق منها بالأندلس والمغرب العربيّ وسعى لحفظ هذا التراث من الضياع، مخطوطا وشفويّا ونظم الشعر ونشر الدراسات العديدة ومنها ما هو في صميم الأدب المقارن كالدّراسة التي نشرها بالفرنسيّة في"المجلّة الإفريقيّة"، 1919، 483 ـــ 93 بعنوان " الأصول الإسلاميّة للكوميديا الإلهيّة".

حرّر خمسا وسبعين دراسة (75) معظمها بالفرنسيّة في دوريّات فرنسيّة أو في كتب مستقلّة ووضع معاجم مهمّة حفظ بها الأمثال العاميّة واللغة الدّارجة في عصره.وشارك بأربع وستّين مادة (64) في تحرير "دائرة المعارف الإسلاميّة" القديمة. وهو جهد عظيم يحقّ للجزائر أن تفخر به. لكنّ صاحبه حذا فيه حذو المستشرقين الرّامين قبل كلّ شيئ إلى خدمة لغاتهم وثقافاتهم ومواطنيهم ومصالحهم. وهو ما عابه عليه الشيخ البشير الإبراهيميّ، رحمه الله ! في مقال خصّه به في جريدة البصائر، مع إعجابه به. غير أنّ الظروف التي ألّف فيها الدكتور محمّد بن أبي شنب وتحكّمت في جهوده العلميّة لم تعرفها الجامعة الجزائريّة في عهد الاستقلال.

آثـاره:

أمّا آثاره فأوسع من أن يحيط بها بحث مهما طال ومهما بذل صاحبه من جهد لأنّها ثمرة حياة كاملة مليئة بعمل دؤوب لا يعتري صاحبَه سأم أو كلل ولأنّ الحافز عليها الطموح العارم الجامح، والرّغبة الأكيدة في تحقيق الذّات بهدفها الأسمى، وخدمة البشريّة في أشرف معانيها، والجزائر التي كانت في مقدّمة اهتماماته وأعماله الأدبيّة والفكريّة والتي كان يكنّ لها من الحبّ والإخلاص ما لا يعلمه و لا يجزي به إلاّ الله.

سأحاول جهد ما استطعت أن أقدّم للقارئ الكريم، وبكلّ إيجاز، ما تيسّر لي من معرفة مؤلّفاته، آملا أن يعنى الباحثون الجزائريّون وغير الجزائريّين بدراستها دراسة معمّقة تليق بمكانته وتثري المكتبة العربيّة كما أثراها هو طيلة حياته بعمل دؤوب لا يعرف الرّاحة إلاّ لماما، على ما كان يقاسي من أوصاب مضنية مزمنة. من هذه الآثار ما هو منشور متاح للقراءة، ومنها ما قلّ وجوده أو نفد، ومنها ما لم ينشر أصلا، فهو ينتظر الطبع؛ وليس ذلك بعزيز على بلاده التي وهبها حياته.

وقد رأيت أن أختار من أعماله نماذج دالّة في نظري، محاولا تلخيصها، ليتمكّن القارئ من معرفة محتواها وطريقة صاحبها في معالجة المواضيع على اختلاف أنواعها، ومن أخذ صورة مجملة عن اهتماماته الأدبيّة والعلميّة. ذلك أنّ عنوان الكتاب مجرّدا غامض الدلالة وقد لا يوحي بشيئ.

كان يؤلّف لمواطنيه وللباحثين منهم وبخاصّة طلبته الذين بذل جهودا مضنية في تكوينهم وتوسيع مداركهم وفتح آفاق جديدة لهم وإنارة سبيلهم وتزويدهم بوسائل تعينهم على العمل. وكلّ ما ترجم، بالفعل، من اللغات الغربيّة لا سيّما الألمانيّة منها، أو نوى ترجمته وأعدّ العدّة لها، يرمي إلى هذه الغاية.

من أهمّ هذه الكتب المترجمة " **العمل الفنّيّ اللغويّ . مدخل إلى علم الأدب**" (619 صفحة)، للناقد الألماني الشهير فولفغانغ كايزر:، Kayser Wolfgang (1906–1960). ألّف كايزر هذا الكتاب سنة 1948. وقال الدكتور دودو في مقدّمة الترجمة "إنّه لعب دورا أساسيّا في الدّراسات النقديّة الألمانيّة المتّصلة بتحليل الشعر وتأويله". وذكر أنّه عانى في نقله إلى العربيّة عناء شديدا لوفرة المصطلحات الأجنبيّة وعدم مطابقة دلالاتها لما يقابلها في الآثار العربيّة أو عدم وجود تصوّر الكثير منها في التراث (ومع ذلك ترجمه ترجمة جيّدة لكنّها لا تنقاد إلاّ لمن يعرف من طلبتنا بعض اللغات الغربيّة ودرس محتويات المادّة).

يتناول الناقد الألمانيّ الضليع باللغات الغربيّة الأساسيّة، معتمدا نماذج شعريّة ونثريّة كثيرة، في نصّها الأصليّ، يتناولُ بالدراسة والتحليل وبتصنيف دقيق، موضوعات متعدّدة متكاملة.

يستهلّ كتابه بالحديث عن ضرورة فهم النصوص الشعريّة بشكل موضوعيّ بقراءة صحيحة وتفسير صحيح ويتطلّب ذلك موهبة خاصّة

وتحمّسا للعمل والقدرة على معايشة التجربة الشعريّة الخاصّة بصاحب النصّ. ويتطرّق بعد ذلك إلى موضوع الدراسة الأدبيّة ومفهوم الأدب وتاريخه وتحقيق النصوص والربط بينها وبين صاحبها ووسائل تحقيق ذلك، وإلى مفاهيم التحليل الأساسيّة في المضمون والحافز متحدّثا أثناء ذلك عن المثل والرّمز والخرافة، وإلى المفاهيم الأساسيّة للشعر من نظام في القصيدة بمقاطعها وأبياتها وقافيتها وموسيقاها وغير ذلك ممّا يدخل في باب العروض بالمعنى الذي تقتضيه طبيعة الألسنة الغربيّة، وإلى الصور البلاغيّة من تشبيه واستعارة وكناية ومن مجازات متنوّعة يتفق تصوّرها أو يختلف عن تصوّرنا لها، وإلى الإيقاع بشتّى وجوهه في الشعر والنثر، وإلى الأسلوب وطرائق دراسته واستثمارها في الإبداع الفنّي شعره ونثره. ويختم المؤلّف كتابه البديع بعرض ممتع ثريّ لكلّ ما يتّصل بالشعر والشعريّ والملحمة والرواية والقصّة والمسرحيّة وأنواعها وقواعدها ومقتضياتها . وممّا يزيد في أهمّيّة هذا الكتاب ثبت مراجعه الذي يتجاوز الخمسين صفحة بالحرف الدقيق، والنماذجُ الشعريّة الوافرة التي اضطرّ الدكتور دودو إلى ترجمتها من لغات عديدة. وذلك أصعب ما في هذا العمل المضني لأن النصّ المترجم، مهما كان، لا يمكن أن يؤدّي ما يؤديه الأصل لاختلاف الألفاظ والدلالات والجرس والتأثير من لغة إلى أخرى. وهذا واضح لا داعي إلى الإطالة فيه.

أراد الأستاذ – رحمه الله ! – فيما أراد، بترجمة هذا الكتاب النفيس، تزويد طلاّبه وكل باحث بذخيرة علميّة تكون لهم مرجعا ثريّا بمضمونه

ونماذجه وبأسماء لامعة من العلماء المتمرّسين بالأدب ودراسته والنظر إليه نظرة جديدة. ما ذكرنا من المصطلحات في إيرادنا لمحتويات الكتاب يعرفه طلبة الجامعات ويدرسونه في البرامج المقرّرة لهم لكنّهم يتناولونه من منظور عربيّ محض يكاد لا يتغيّر مفهومه منذ عهد بعيد. وما قدّم إليهم بين دفّتي هذا الكتاب يفتح لهم آفاقا جديدة ويوسّع مداركهم.

وممّا يجري مجرى هذا الكتاب، وإن لم يكن له نفس الأهمّية بالرغم من أهمّيّته الكبرى، تأليف آخر نشره بعنوان "**دراسات أدبيّة مقارنة**"، يشمل سبعة عشر عنوانا. يورد فيه نماذج شعريّة طويلة بعد أن يعرّف بأصحابها وبأهمّ آثارهم ولا سيّما التي يقتبس منها النصّ أو النصوص كما يضع هذه النماذج الشعرية أو النثريّة في سياقها التاريخي أو الأدبيّ. وقد يبيّن أصلها الجزائريّ أو العربيّ القديم إن كانت من التراث ككتاب الحيوان للجاحظ أو شعر تأبّط شرّا أو غزل العذريّين كقيس بن الملوّح (مجنون ليلى).

يترجم في الكتاب أربع قصائد طويلة خاصّة بالجزائر تربو، في معظمها، على مائتي بيت، وكلّها للرحّالة الألمانيّ هاينريش فون مالتسانل (1826–1874) الكاتب الشاعر اللغويّ مؤلّف كتاب "ثلاث سنوات في شمال غربيّ إفريقيا" في أربعة أجزاء، نقل منه الدكتور دودو الأجزاء الثلاثة الأولى الخاصّة بالجزائر (715 صفحة)، مبيّنا أهمّيّته الكبرى في مقدّمة كلّ جزء من الأجزاء المنقولة، وصاحب قصّة "مدخّنو الحشيش"، وقد نقلها أيضا، وكتب أخرى عديدة منها ديوانه "أصداف الحاجّ".ولا يقصد بالحاجّ إلاّ نفسه.

في هذا الدّيوان وفي غيره من مؤلّفاته توجد هذه القصائد الأربع الرّائعة التي ترجمها المرحوم في كتابه "دراسات أدبيّة مقارنة" بعد أن مهّد لها وعلّق عليها. وهي:

- صورة مدينة الجزائر، ص 30–38.
- صورة البليدة، ص 39–49.
- صورة شلال مازونة، ص 51–57.
- صورة الصحراء، ص 59–65.

ويورد بعد ذلك نماذج من الآداب الألمانيّ والنمسويّ والرّوسيّ والإسبانيّ أوغيرها من الآداب اقتبست من التراث الجزائريّ أو العربيّ أو غيره من إبداعاتنا المباشرة وغير المباشرة. ففي "صورة من الأدب الشعبيّ . مريم" يعيد، عن كتاب ألمانيّ ضاع منه ونسي اسم مؤلّفه يعيد قصيدة جزائريّة شعبيّة غزليّة أوّلها في غير أصلها :

إنّ قلبي ليلتهب بنار الحبّ
لامرأة تنحدر من الفردوس،
فلكم، أنتم يا من لا تعرفون مريم،
أريد رسم صورتها.
مريم هي الباي عثمان بنفسه،
حين يبدو على البعد بأعلامه
وطبوله الصاخبة وخلفه رجاله.

وواضح أنّ هذه القصيدة التي تحتوي على اثنتين وسبعين بيتا في ترجمتها عن الألمانية قديمة ومن الصعب إرجاعها إلى أصلها إن لم تدوّن أو دوّنت وضاع مخطوطها.

أمّا الروسيّ ألكسندر بوشكين (1799–1837) فيورد له، من "قصيدة النبيّ"، مقطوعة يستوحي فيها السيرة النبويّة وينقلها إلى العربيّة كما ينقل قصيدة أخرى بعنوان "محاكاة مقطوعة عربيّة" (1835) يقتبس فيها من الشعر الغزليّ العذريّ، وثالثة بعنوان "محاكاة القرآن" (1824) يقول فيها :

أقسم بالشفع والوتر
أقسم بالسيف، بالقصاص،
أقسم بالنجم، بالغسل الصباحيّ،
أقسم بصلاة التراويح !
كلاّ ! كلا ! لن أتخلّى عنك !
ترى، من ذا الذي حرصتُ على إيصاله إلى المغارة
الآمنة وأخفيته عن نظر المطاردين ؟
ألم أسق الظمآن من منبع الصحراء العذب ؟
ألم أهب لسانك القدرة على الحكم والغضب المقدّس ؟

ويقرأ قصّة شعبيّة روسيّة "الفلاّح والإوزّة" في كتاب "روسيا الضاحكة"، وهي، فيما يقول، "قصّة معروفة متداولة في أيّام روسيا القيصريّة"؛ ويجد أنّها "قصّة الأعرابيّ والدجاجة" التي رواها الجاحظ في كتاب الحيوان، فينقلها إلى

العربيّة ويستنتج أنّ "التأثير العربيّ ظاهر [فيها] لا يمكن إنكاره بأيّ شكل من الأشكال" (ص100).

والحقيقة أنّ تأثير الجاحظ في الأدب الشعبيّ الشرقيّ والمغربيّ والعالميّ تارة واضح كلّ الوضوح. وقد خبرت ذلك في كثير من الحكايات التي تروى في الجزائر مرتبطة ببعض الأشخاص أو النواحي، وهي في الحقيقة ممّا أورده الجاحظ في كتاب الحيوان أو في رسائله.

ويدرس في عدّة عناوين من هذا الكتاب أثر المغرب والأندلس بخاصّة والمشرق بعامّة في الآداب الغربيّة لا سيّما في القصة والمسرحيّة والإبداع الشعريّ بنماذج فلسفيّة وأدبيّة، شعريّة ونثريّة يترجمها ويعلّق عليها ويحلّلها ليجعلها في متناول القارئ ويُتبِع كلّ عنوان بما يخصّه من مصادر ومراجع.

ومن مؤلّفاته في الأدب المقارن وروافده . والترجمة أوّل الروافد له . "**الشاعر وقصيدته**" عرّب فيه ستّ عشرة مقطوعة لستّة عشر شاعرا من مختلف دول أوروبيّة مع تحليلات وافية حرّرها هؤلاء الشعراء، و" **العازف الأعمى وقصص أخرى**" للأديب النمساويّ أرتور شنيتسلر (Schnitzler Arthur :1862-1931) ، و" **أصل العمل الفنّيّ** " للفيلسوف الألمانيّ مارتن هايدغر (Heidegger Martin : 1889-1976)، و"**الحمار الذهبيّ**" للفيلسوف الجزائريّ لوكيوس أبوليوس المداوري (نسبة إلى مدينة مداور، مداوروش الحاليّة). واسمه اللاتينيّ Lucius Apuleius

(124/5–180). عاش إذن في القرن الثاني الميلادي ودرس الخطابة والفلسفة والعلوم الطبيعيّة والفلك والطبّ. له عدّة مؤلّفات لكنّه اشتهر بقصّته "الحمار الذّهبيّ" (Asinus aureus). وليست "أوّل رواية في تاريخ الإنسانيّة" كما هو مثبت في غلاف الترجمة. إنّما هي أوّل رواية وصلتنا كاملة. وترجمة الدكتور دودو تملأ فراغا كاملا في المكتبة العربيّة. وهي رواية رمزيّة لم يقم بدراستها أحد، رواية ذات نزعة أفلاطونيّة روحيّة صوفيّة. يتجلّى ذلك في الفصل الحادي عشر منها وهو الأخير. وقد قابلت نصها في الترجمة العربيّة المأخوذة عن الألمانيّة بترجمتها الفرنسيّة انطلاقا من النصّ الأصليّ فلم أجد فرقا إلاّ في الأسلوب. وذلك ما يدلّ على الجهد البالغ الذي بذله المعرّب الأمين. وعرّب الفقيد روائع من المسرح العالمي المتميّز الممتاز سنثبتها في قائمة مؤلّفاته، أمّا الدراسات فاخترنا منها دراسة واحدة قام بها وهو في غربته. وهي تدلّ على حنينه إلى وطنه وعلى طموحه الوثاب وعبقريّته المبكّرة.

اخترنا مؤلّفه الذي نشره بعنوان **<u>كتب وشخصيّات :</u>** ويشمل قسمين :

الأوّل ترجمة لأربعة أعلام جزائريّة قصد التعريف بها والتنويه بمكانتها العلميّة والأدبيّة ولشاعر فارسيّي اكتسب بمواهبه وإبداعه شهرة عالميّة ولشاعر آخر ألمانيّ بارز؛ والثاني نقد لأربعة كتب من تأليف بعض مواطنيه ، ودراسة للقصّة القصيرة في الأدب الجزائريّ المعاصر. وقد نصّ على أنّ الكتاب ألّف في الخارج، بألمانيا، ما عدا المقال الأخير.

ترجم لمحمّد بن الحسين الطبنيّ (نسبة إلى طبنة على أربعة أميال من مدينة بريكة الحاليّة)، من كبار الشعراء، ولأبي مضر زيادة الله بن علي بن الحسين التميميّ الطبنيّ، ولأبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني. كلّهم عربيّ الأصل ومن أسرة واحدة. وكلّهم شعراء وأدباء ذاع صيتهم في القرن الرابع الهجريّ ورحلوا إلى الشرق والغرب واتصلوا بأكابر عصرهم فوقّروهم وأكرموهم. وترجم لابن مرزوق العجيسيّ التلمسانيّ أبي عبد الله محمّد بن أحمد (ت. 781) ترجمة وافية ذاكرا مؤلّفاته، مبرزا منزلته العلميّة وأهمّ مراحل حياته وصلته بعظماء عصره وأثره في الحركة الفكريّة الجزائريّة. وفي ترجمته للجاميّ عبد الرحمن بن أحمد(ت.898) يبرز ميله إلى الأدب المقارن وإعجابَه وإعجاب الغربيّين بالأدب الفارسي وبخاصّة في شعر أقطابه السبعة وينصّ على أنّ الشاعر الألمانيّ غوته (Goethe) كان " يتّخذ من لسان الغيب حافظ الشيرازي توأما له، ويتبارى معه في اللذّة والألم، ويخلع عليه لقب القديس" وعلى أنّ الفيلسوف شليغل (Schlegel) قال : "يجب أن نبحث عن الإبداع الأسمى في الشرق". ويعرض المؤلّف في هذه الترجمة بصفة خاصّة لعبقريّة الجامي وشعره الغزليّ وملاحمه لا سيّما ملحمته الشعريّة "سلامان وأبسال" التي تبلغ مائة وألف بيت. كما يعرض إلى نقلها إلى بعض اللغات الغربيّة. ويختم القسم الأوّل من الكتاب بترجمة قيّمة للشاعر الألمانيّ فريدريك هولدرلين (Hölderlin Friedrich) المتوفّى سنة 1843، يترجم له بأسلوب أقلّ ما يقال فيه أنّه "من السهل الممتنع". وقد يكون المبدع الجزائري الذي عرف اليتم والمعاناة وقسوة الأيّام وجد بينه وبين الشاعر الألمانيّ صلة روحيّة ما.

أمّا القسم الثاني من الكتاب فنقْدٌ بنّاء نزيه لمقالة " محمّد العيد رائد الشعر الحديث" ول"دراسات في الأدب الجزائريّ الحديث" ولمجموعة شعريّة بعنوان "ثائر وحبّ"، وكلّها لأبي القاسم سعد الله، ولكتابَي"من وحي الثورة الجزائريّة" للجنيدي خليفة و" القصّة القصيرة في الأدب الجزائريّ المعاصر" من تأليف عبد الله خليفة ركيبي.

خير ما يمثّل الغاية من هذا الكتاب قول المؤلّف نفسه في مقدمته الوجيزة لهذا العمل:" لقد كانت هناك أمور دفعتني إلى كتابة هذه الدراسات، وفي مقدّمتها الرغبة في إقامة نوع من الاتّصال الفكريّ مع الوطن أيّام الغربة، والاهتمام بماضيه وحاضره الأدبيّ، وتتبّع إنتاج بعض شعرائه وأدبائه في هذه الفترة أو تلك".

أمّا فنّه الإبداعيّ، لا سيّما القصصيّ منه، فصورة صادقة لحياته وشخصيّته، ولآماله وأحلامه، ولحبّه العميق لوطنه الذي وهبه كلّ جهوده الفكريّة وناضل عنه مغتربا وفي أحضانه وشاطره السرّاء والضرّاء. وهو كذلك أدب إنسانيّ بأسمى وأنبل معاني الإنسانيّة تغنّى بالفضيلة ودعا إلى مكارم الأخلاق وجسّدها بقلمه وبسلوكه.

والظاهر أنّه عالج الأقصوصة منذ زمن بعيد وأنّه لم ير نشر محاولاته الأولى في هذا الفنّ. ذلك أنّ ما بين أيدينا لا يمكن، بأيّ شكل من الأشكال، أن يكون له طابع المحاولة. هو فنّ ناضج والناضج تسبقه "الباكورة" بدلالة اللفظ في معظم لهجاتنا المحلّيّة. تقرأ "بحيرة الزيتون" أو

"دار الثلاثة" أو "الطريق الفضّيّ"، تقرؤها بكلّ ما فيها فتجد صاحبها ضليعا بفنّه، عالما بأسراره، متمكّنا من قواعده. وقد يستغني عن القاعدة لسبب يدركه.

وهو أدب يتّسم بواقعيّة مدهشة تغلُب عليها دقّة الملاحظة وقوّة الذاكرة ورهافة الحسّ وسلامة الذوق وحُسْن التأتّي واختيار الكلمة المعبّرة والأسلوب المناسب. تطالع "عرس الذئب" في مجموعة " الطريق الفضّيّ" فتكاد تقسم أنّ الكاتب لا يُصدِر إلاّ عن تجربة مريرة عاناها. وقد سألته عن القصّة كما ذكرت في أوّل المقالة فأخبرني أنّ الحادث لإحدى المجموعات، و"الحبيبة المنسيّة" و"مجرّد بطاقة" .

فمجموعة "بحيرة الزيتون" لا تكاد تخرج في مضمونها عن "ثورة التحرير المباركة" وكفاح أبطالها ومعاناة شعبها من الاضطهاد والتجهيل والفقر المذلّ. وتتغنّى بالفجر السعيد الذي كان ينتظره كلّ مواطن. كلّ قصّة تصبّ بعنوانها وبمحتواها في هذا المصبّ. وينقلك الكاتب فيها وفي غيرها من المجموعات إلى تلك العهود، إلى شبابك، وما أحلى الشباب ! إلى أحلامك، وما ألذّها ! إلى شعبك، تعكسه لك كلّ صفحة بمعتقداته وتقاليده وأعرافه لا كما تعكسه المرآة الجامدة بل كما يراه الشاعر المفكّر بخفقان قلبه وحصافة ذهنه وكما هو وكما يجب أن يكون. وبذلك يتّحد الكاتب والطبيعة والحقيقة والخيال وتلك غاية الفنّ.

ذلك ما يفسّر أسلوبه المفعم بالصور البلاغيّة من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها ممّا يظهر مقصودا، ولا أراه كذلك. إنّما هي طبيعة صاحبه كما عرفته: يرى الحياة في كلّ شيئ فيصدر عن موهبة راسخة فيه. والشواهد على ذلك كثيرة يطول ذكرها. وقد يلجأ إلى بعض العبارات العامّيّة على ألسنة الأولاد أو بعض أفراد الشعب؛ يقصد إليها قصدا بعد أن يعطيها القالب الفصيح أو يتركها كما هي. وذلك ما يزيد النصّ واقعيّة وصدقا. لكنّه نادرا ما يلجأ إلى الدارجة.

وقد يستعمل الرمز في حديثه عما يخالج أعماق نفسه من تأمّلات ورسم المثل العليا لنفسه وللإنسان. يورد القصّة في شكل حلم مرعب أو مضايق على الأقلّ متوخّيا طريقة الحلم من رؤًى تتطلّب التعبير والتأويل ويعطيك بعض المفاتيح التي تمكّنك أو قد تمكّنك ممّا أراد لأنّ التأويل مبنيّ على الحدس والتخمين والدّربة وبعد النظر.

لم أرم في هذه العجالة إلى تحليل فنّه أو دراسة أعماله. إنّما رميت إلى تقديم بعض منجزاته الفكريّة تقديما مجملا، كما يتّضح من العنوان، وإلى التعبير عن إكباري له ووفائي له حاضرا وغائبا. تغمّده الله برحمته!

ولقد رجا منّي بعض إخواني أن أذكر للناشئة ما تيسّر لي ذكره من مؤلّفاته المنشورة؛ فها أنا ذا ألبّي رغبتهم معتذرا لهم عمّا يوجد في القائمة من نقص لم يتح لي أن أجتنبه لأسباب أوضحتها في أماكنها، شاكرا فضل من أعانني على القيام بهذه المهمّة.

مؤلّفاته المنشورة :

أ- الإبداع والدراسات :

-بحيرة الزيتون (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 1967 .

-دار الثلاثة (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 1970.

- الطريق الفضّيّ (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 1981.

-الطعام والعيون (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 2001.

- البشير (مسرحيّة)، الجزائر، بدون تاريخ.

- التراب (مسرحيّة)، الجزائر، 1968.

- صور سلوكيّة (ظهر منه ثلاثة أجزاء)، الجزائر، 1985 وما بعدها.

- الجزائر في مؤلّفات الرحّالين الألمان (1830-1855)، الجزائر، 1970.

-الشاعر وقصيدته (عرض ودراسة وتعريب)، الجزائر، 1986.

-دراسات أدبيّة مقارنة، الجزائر، 1991.

- من أعماق الجزائر (معلومة مأخوذة من الغلاف الخارجيّ لكتاب العمل الفنّي اللغويّ . مدخل إلى علم الأدب).

-جزائريّات (نفس الملاحظة السابقة).

- هاملت وعطيل (نفس الملاحظة السابقة).

ب . الترجمة :

– مذكّرات بفايفر، لمسيون بغاير (simon pfeiffer) الجزائر، 1974.

- مدخّنو الحشيش في الجزائر لهاينريش فون مالتسان، (maltzan) الجزائر، 1968.

- –ثلاث سنوات في شمال غربيّ إفريقيا، لهاينريش فون مالتسان (3 أجزاء)، الجزائر، 1980.

– قسنطينة أيّام أحمد باي تشلوسر (schlosser)، الجزائر.

–الحمار الذهبيّ للوكيوس أبوليوس، منشورات كتاب الاختلاف، الجزائر، 2001.

–من القصص النّمساويّ، (عن الغلاف الخارجيّ لكتاب العمل الفنّي اللغويّ.

-مختارات شعريّة ونثريّة لغوته (Goethe).

- ما هي العولمة لأريش بك، الجزائر. لم أطّلع عليه العازف الأعمى وقصص أخرى (Der blinde1912, Géronimo und sein Bruder) لأرتور شنيتسلر (Schnitzler Arthur)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003.

- أصل العمل الفنّيّ (Der Ursprung des Kunstwerkes) لمارتين هايدغر (Martin Heidegger)، منشورات كتاب الاختلاف، الجزائر، 2001.

-كتاب الطريقة والفضيلة،لتاو تيه كنغ (Tao Te King)، دار هومه، الجزائر، د. ت.

ج. المسرحيّات المترجمة :

-الضيف الحجريّ : (Kamienni Gost)، لألكسندر بوشكين(re Pouchkine Alexand Sergeïevtch)، الجزائر، 1976.

-الهروب إلى الله :(Die Flucht Zugott) لشتيفان تسفايغ (Zweig Stefan)، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

-مسرحيّة بادن لتعليم الموافقة : (Das Badner Lehrstück vom Einverständnis) للشاعر الألمانيّ برتولد بريخت (Brecht Bertolt), الشركة الوطنيّة للتوزيع والنشر، الجزائر، 1976.

– الإنسان الطيّب (Der Gute Mensch von Sezuan) لبرتولد بريخت، الجزائر

-حديقة الحبّ (Amor de don Perlmplin con Belisa en su jardin)، للوركا (Federico Garcia Lorca)، الجزائر، 1976.

-هو السبب والعامل الأوّل لتولستوي (L.N .Tolstoï). لم أطّلع عليه ولم أهتد إلى عنوانه باللغة الروسيّة، الجزائر.

-مسرحيّة دانتون (1835, Dantons Tod)، لبوخنر (Büchner Georg). الجزائر. لم أقرأها.

د– بعض المقالات :

-شاعر وقصيدة – قراءة لمعزوفة السيّد الأصمّ بوزيد حرز الله، مجلّة "اللغة العربيّة" للمجلس الأعلى، العدد السادس، سنة2002.

- حركة العاصفة والاندفاع الألمانيّة – دراسة نقديّة. العدد السابع من المجلّة السابقة، سنة 2002.

- الساحر والسحر – دراسة نقديّة. العدد الثامن من المجلّة السابقة، سنة 2003.
- رودلف غاير وأعشى قيس. العددالتاسع من المجلّة السابقة، سنة 2003.

الدكتور أبو العيد دودو:
1934-2003

بقلم: أ. أبو القاسم سعد الله

آخر العهد

كنت على بعد أمتار من سرير المرحوم الدكتور أبي العيد دودو عندما أتاه اليقين، لقد سمعت قبل يوم من وفاته أنه كان يعاني من أزمة قلبية وأنه أخذ إلى قسم الاستعجال في أحد المشافي، فذهبت صباحا في سيارة أجرة لأعوده، وعندما وصلت فاوضت المستقبل على الزيارة فأجابني بأنها غير ممكنة لأن المريض في غرفة الإنعاش. فألححت عليه فطلب مني الانتظار، وبعد هنيهة عاد المسؤول وسألني باهتمام عن وجه القرابة مع المريض فأجبته بالواقع، ظنا مني أنه يريد التأكد من هويتي، ولكنه فاجأني أعزيك فيه، فقد فارق الحياة لتوه...

كانت صدمة لم أكد أفيق منها إلا وأنا أقول بصوت مرتجف: إنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك آخر العهد بالصديق دودو الذي عرفته وعاشرته وتراسلت معه منذ سنة 1952 حين كان هو في طريقه من تونس إلى العراق للدراسة ضمن بعثة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكنت أنا طالبا في جامع الزيتونة بتونس.

وقبل أزمته القلبية الأخيرة بحوالي أسبوع زرته في بيته فحدثني عن آخر أخباره الصحيّة ومعاناته وعن نحافة جسمه التي وصلت بوزنه إلى 54 كلغ فقط، وعن انتفاخ بطنه وأطرافه من مضاعفات الأدوية، كما حدثني عن مشاريعه الأدبية وسألني معلومات إضافية عن (يوهان بيرنت) الألماني الذي كان قد ترجم له كتابا عن الأمير عبد القادر. وتذاكرنا كالعادة في شؤون الجامعة والنشاط الثقافي لبعض الأصدقاء، وما تنشره المطابع والصحف، وأهداني بعض كتبه التي صدرت أثناء غيابي عن الوطن.

نشأته ودراسته

دعني الآن أذكر بعض التواريخ الهامة في حياة الدكتور دودو. فقد ولد سنة 1934 في بلدية العنصر، ولاية جيجل، في بيئة طبيعية خلابة، وبعد ثلاث سنوات توفي أبوه (سنة 1937) فبقي يتيما ينتظر من يعوله ويرعاه، ولم يتحدث دودو في سيرته عن والدته، فهل تزوّجت وتركته ربيبا؟ أو حدث لها ما حال بينه وبينها وحرمه من حنانها في تلك السن المبكرة؟ وأنت تلاحظ من حديثك معه هذا الحنان المفقود عنده والشعور باليتم، كما تلاحظ في أمثلته

ومشاعره وتصرفاته شيئا من آثار تلك الطفولة المضطربة، ولولا العناية الإلهية واحتضان الخيرين له لكان مستقبله لا يختلف عن مستقبل جيله الذي لم يدرس ولم يتعلم أيام الاستعمار.

ولكنه ذكر في سيرته أن والده أدخله جامع القرية لحفظ القرآن الكريم، وهذا غريب لأن عمره كان لا يزيد عن ثلاث سنوات عند وفاة والده، وعلى كل حال فقد بقي في جامع القرية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حين أخذه أحد أقاربه، وهو أحمد دودو ليدرس في قسنطينة وأدخله مدرسة قرآنية ثم مدرسة ابتدائية خاصة كان يديرها الشيخ محمد الزاهي، وأثناء حديثي معه كان يشير إلى وجود أخ له يسكن حي بلوزداد بالعاصمة، وربما كانت له أخت أيضا.

عاش دودو أيضا حياة مضطربة سياسيا، فالجزائر كانت في عهده تعيش مرحلة مخاض انتهت بمحنة الثامن مايو 1945 التي وجدته فتى في الحادية عشرة من عمره، وكانت الأحزاب السياسية تسعى إلى وضع برامج تتلاءم مع الوضع الجديد الذي عبر عنه ما يعرف بدستور الجزائر وما تلاه من تزوير للانتخابات والتلاعب بالقيادات، وكانت أبرز الأحزاب والتنظيمات الفاعلة عندئذ هي حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وحزب البيان الديمقراطي، والحزب الشيوعي الجزائري، ثم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

في سنة 1947 افتتحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس فكان دودو من طلابه، وفي المعهد درس أربع

سنوات على شيوخ تخرجوا من جامع الزيتونة أمثال: أحمد حماني وعبد الرحمن شيبان وعبد القادر الياجوري وعبد المجيد حيرش... وتشبع منهم دودو بمبادئ الحركة الإصلاحية، وهؤلاء الشيوخ وأمثالهم هم الذين بقي دودو يدين لهم بالولاء وبالفضل في تكوينه الأول، ولكنه بقي أيضا يحتفظ لهم بذكريات خاصة تجعله يمثل دور كل شخصية منهم، فهذا يقلده في صوته، وهذا يقلده في عصبيته، وثالث يقلده في جدّه، ورابع يقلّده في هزله، وكان دودو يمثل معهم–كما يظهر من كلامه– دور الطفل المشاغب مع كل منهم...

وبعد استكمال البرنامج الدراسي لمعهد ابن باديس توجه دودو إلى تونس للمشاركة في امتحان شهادة الأهلية التي حصل عليها سنة 1951، وفي السنة الموالية أدرجته جمعية العلماء في بعثتها الدراسية المتوجهة إلى العراق سنة 1952، ولا ندري من ساعده على الذهاب إلى تونس فالعراق، فهل هو قريبه أو بعض شيوخه أو أهل الخير والإحسان؟.

وبعد أربع سنوات غادرت أنا أيضا تونس في اتجاه مصر للدراسة، وكان دودو عندئذ يوشك على استكمال دراسته في بغداد، ولم نتراسل أو نلتق منذ لقاء تونس، فقد تخرج سنة 1956 من دار المعلمين العالية في بغداد بينما لم أكمل أنا سنتي الأولى في مصر، وبعد تخرجه لم يأت إلى القاهرة التي كانت ملتقى المغتربين الجزائريين والتي كانت تعج بالطلبة والمناضلين وينشط فيها الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني، فلماذا اختار دودو دون زملائه، أوروبا، والنمسا تحديدا، لذلك بقي هذا الأمر مجهولا عندي إلى الآن رغم أهميته في تحديد معالم حياته، ولعل الإجابة عنه توجد

في مذكراته المخطوطة، وقد يكون جوابه لدى بعض رفاقه الذين درسوا معه وعرفوه عن كثب أيام بغداد، مثل الأساتذة زروق موساوي ومولود شرحبيل ومشري الجموعي.

الدراسة في النمسا

عندما حل دودو بالنمسا كان وسط أوروبا يعاني من حرارة الحرب الباردة التي أفرزت مشاعر قومية جديدة رغم هيمنة الاتحاد السوفياتي على المنطقة وحياد النمسا المفروض عليها، كما أفرزت الحرب العالمية الثانية ألمانيتين شرقية وغربية، وكان دودو يتعامل، بعد النمسا، مع مستشرقي ألمانيا الغربية، ومن ثمة كان يعيش تحت تأثير ثقافة الغرب "الحر" الذي يتزعم محاربة الشيوعية، وكانت إيديولوجية الشرق والغرب تتصارعان في التأثير على النمسا وألمانيا معا، كما ظهر ذلك في محاولة انقلاب المجر ثم تشيكوسلوفاكيا سنة 1956، ونحو ذلك من التوترات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي جعلت دودو يعيش حياة مضطربة أيضا سواء في النمسا أو في ألمانيا.

فقد كان وسط أوروبا كالرمال دائم الاضطراب والحركة، إلى أن حان موعد رجوعه إلى وطنه، وكان دودو يذكر تلك الفترة المضطربة أحيانا بشيئ من المرارة لأنه أثناء الثورة الجزائرية عرف بعض المسؤولين على خدمتها من أبناء جلدته، وحين طلب من بعضهم بعد رجوعه إلى الجزائر شهادة تشهد عن نشاطه لصالح الثورة رفضوا.

حين تحدث دودو في سيرته الذاتية عن ظروف انتقاله من العراق إلى النمسا اكتفى بالقول بأنه التحق بجامعة النمسا سنة 1956 فدرس فيها الأدبين العربي والفارسي، واللغات والفلسفة إلى سنة 1961 حين حصل على الدكتوراه عن تحقيق كتاب من التراث العربي الإسلامي وهو (المنصوري) لابن نظيف الحموي، وهذا الإنجاز الذي طبعه بعد سنوات يدل على أن دودو كان ما يزال تحت تأثير عاملين: الأدب العربي القديم والاستشراق، وهو التأثير الذي لازمه طول حياته، رغم أن معظم إنتاجه كان في الترجمة والأدب الحديث.

بدأ دودو ينشر– وهو في النمسا– بعض القصص عن الثورة الجزائرية منذ سنة 1960، كما نشر مراجعات للكتب في المجلات التونسية وغيرها، ومن ذلك مراجعته لكتابي (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) الذي صدر في القاهرة سنة 1961، وقد نشرها في مجلة الفكر التونسية.

وفي نفس الوقت تزوّج من نمساوية، وتعاطى التدريس في جامعات النمسا وألمانيا، وارتبط باللغة والأدب الألماني يدرسه ويتذوقه، وكانت فيينا– رغم أفول نجمها السياسي– ما تزال مركز إشعاع ثقافي متميز، ولا سيما في فنون الموسيقى والعمارة والرسم والنحت، وكانت طبيعة النمسا الجذابة على نهر الدانوب الساحر وسط جبال وأودية وحضارة أهلها قد أثرت في دودو القادم من جبال جيجل وطبيعتها الخلابة وشواطئها الجميلة فعوضته النمسا عما فقده في مراتع صباه وطفولته.

ويبدو أن بعض المستشرقين الذين كان يتعامل معهم قد استغلوه استغلالا كبيرا جعله لا يحمد سيرة أكثرهم ولا طريقتهم في التعامل العلمي معه، فقد شكا لي أكثر من مرة منهم لأنهم كانوا لا يعترفون بجهوده في البحث والترجمة وتوفير المادة العلمية لهم عن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وعن الأدب الجزائري بصفة خاصة. وكانوا يكتمون اسمه فيما ينشرونه من أعمال، بل كانوا ينسبون جهوده إلى أنفسهم حين ينشرون بحوثهم.

عاش دودو هذه التجربة ثماني سنوات، وهي فترة شاب مغترب كان عليه أن يعيل أسرة وأن يشق طريق البحث وأن يصل إلى الأستاذية في جامعة من أعرق الجامعات الأوروبية. وخلال ذلك أسهم في التعريف بالأدب العربي في دوائر المستشرقين والباحثين في وقت اشتد فيه حرص الألمان (سواء كانوا نمساويين أو غيرهم) على التعرف على الوطن العربي سياسيا واقتصاديا وما ينتجه من آداب وثقافة تجعلهم يبحثون عن موقع قدم لهم وسط المتنافسين الأمريكيين والأروبيين. وفي هذه الأثناء أيضا كتب دودو مسرحية (التراب) وأضاف قصصا جديدة نشرها فيما بعد في مجموعتيه (بحيرة الزيتون) و(دار الثلاثة).

عودته إلى الجزائر

حل دودو بوطنه مصطحبا معه كل أفراد أسرته في خريف سنة 1968. وبسماع من أصدقائه نزل في المركز العائلي بابن عكنون، دون أية تسهيلات مادية، ولولا نجدة هؤلاء الأصدقاء له لهلك، ومما زاد الطين بلة

أنه أصيب بنزيف في الأيام الأولى من عودته، ومن ثمة تطور معه المرض وظل يعتريه من وقت إلى آخر إلى أن قضى عليه.

شق دودو طريقه بكفاءة في الجامعة وفرض نفسه على المحيط الأكاديمي والثقافي بقلمه العربي الراقي رغم أنه كان يعيش في قلب أوروبا، ومساهماته في المسرح والمحاضرات والصحافة الأدبية والترجمة. وصبر حتى عودلت شهادته وانتظم في سلك الأساتذة، وكان أعداء الثورة وأعداء الجزائر العربية المسلمة ينصبون الفخاخ لأمثاله ويتصيدون لهم الهفوات تخطيطا لدفعه إلى العودة من حيث أتى ليبقى الجو خاليا لهم دون منازع ولتبقى الإيديولوجية الاستعمارية هي السائدة في الجزائر. وكانوا مختفين في ظاهر الأمر وراء رموز وطنية كالعلم والنشيد ووراء فلان وفلانة من الفرنسيين الذين ساندوا الثورة، بينما هم يخربون البلاد من الداخل بعرقلة الكوادر الوطنية حتى لا تتولى زمام الأمور أو تشارك في قيادة البلاد على نحو يضر بالامتيازات التي حصلوا عليها من السلطة الاستعمارية قبل مغادرتها الجزائر.

شارك في لجنة إصلاح التعليم، وفي إدارة شؤون الجامعة، وفي المؤتمرات الثقافية والأدبية في داخل الوطن وخارجه، وقد سافر ضمن الوفود التي أرسلتها وزارة التعليم العالي للتعاقد مع الأساتذة العرب، وكان في كل ذلك يشارك بفعالية، ويبدي آراء صائبة ونظرات ثاقبة تصب دائما في مصلحة الجزائر، وكان صريحا لا يعرف المواربة ومقنعا بإخلاصه وحزمه، وقد ساعدته ثقافته الألمانية على أن يكون دقيقا ملتزما، سافرت معه في

عدة مناسبات، وكنا نشترك في المسكن والمطعم، كما نشترك في جلسات العمل وتبادل الأفكار، وكان السفر معه متعة ومشكلة في وقت واحد، كما سنشير.

حياته الاجتماعية

من لم يعرف حياة دودو الاجتماعية يعتقد أنه كان يسكن فيللا ضخمة وأنيقة تتوفر على كل مرافق الراحة وعلى مكتبة كثيرة الرفوف والأدراج وعلى مكتب فخم يجلس إليه ليحرر وينشر أوراقه ووثائقه. ولكن الواقع غير ذلك. فقد كان يسكن شقة صغيرة في الطابق الثالث بحي حسن محيوز (الأسفوديل سابقا) في ضاحية بن عكنون، وليس للعمارة التي يسكنها مصعد، ولذلك كان يعاني في سنواته الأخيرة من صعود السلم أثناء مرضه من ضيق التنفس والضغط.

وأحيانا كان يضطر عند الأزمات وفي سنواته الإخيرة إلى عدم النزول أصلا حتى لا يصعد السلم، وإذا دخلت مكتبه الذي يضم أيضا مكتبته فإنك لن تجد أكثر من بضعة أمتار أو غرفة صغيرة يستقبل فيها زواره، ويخلو فيها للكتابة حيث يوجد جهاز حاسوب، ومتكأ يجلس أو يتمدد عليه عند التعب، وبعض الرفوف الخشبية العتيقة المثقلة بالكتب إلى حد الانطواء بالكتب ذات الأحجام الكبيرة كالقواميس. وتكاد هذه الرفوف تقع على رأس الجالس أو الممتد تحتها. ولا يستطيع الزائر أن يتمطى في الغرفة أو يمد

رجله أو يده لأنه لا مجال لذلك لضيق المكان الذي لا يحتمل أكثر من زائرين أو ثلاثة في نفس الوقت، تلك هي كل ثروة دودو من أدوات الكتابة وجو البحث والعطاء الأدبي والعلمي، ومن وحي ما كان يعانيه دودو وما عانيته أيضا، كتبت ذات مرة عبارتي المعروفة بأن "الكتابة في الجزائر معجزة".

تعارفنا ومراسلاتنا

أول لقاء بيننا كان في تونس كان في خريف سنة 1952 عندما كان دودو ورفاقه مسافرين بالطائرة إلى العراق في بعثة جمعية العلماء المشار إليها. فقد ودعتهم في صباح يوم خريفي في مطار العوينة (وهو مطار تونس القديم) بكلمة وقطعة شعر. فعلت ذلك بصفتي رئيسا للبعثة الزيتونية لجمعية العلماء في تونس. وقد بقي الدكتور دودو يذكر هذا اللقاء ويذكرني به في أغلب لقاءاتنا، لماذا؟ لأنه لا يخلو عنده من النكت التي لا تتخلى عنه أو لا يتخلى عنها. فقد كنت شابا مثلهم، ومع ذلك وقفت بينهم عند مصعد الطائرة أوصيهم بوصايا لا تصدر إلا عن شيخ معمم، أو داعية أو معلم، فحثثتهم على طلب العلم، واغتنام الفرصة التي أتيحت لهم، بطريقة وعظية أبوية.

وحين حل دودو بالعراق وجده يعيش في ظل ملكية دستورية نصبها الإنكليز، وكان على رأس العراق عندئذ شاب يافع هو فيصل الثاني ومن ورائه اثنان من ثقاة الإنكليز هما عبد الإله الذي كان وصيا على العرش، ونوري السعيد الذي كان في أغلب الأحيان هو رئيس الوزراء والحاكم الفعلي

للعراق، وفي صيف سنة 1958 أطيح بالنظام الملكي وجيء بنظام جمهوري في انقلاب دموي كان من نتيجته إبادة الأسرة المالكة، ولكن دودو كان قد غادر العراق إلى النمسا قبل الانقلاب، أي سنة 1956، كما أشرنا.

بدأت أتراسل مع دودو منذ الستينات، وكنت عندها في أمريكا طالبا في جامعة منيسوتا، ثم مدرسا في جامعة ويسكنسن، بالإضافة إلى الأمور الشخصية كانت مراسلاتنا تدور حول الوضع في الجزائر، ولا سيما بعد انقلاب 1965، وحالة كل منا في الغربة، ومشروع العودة إلى الوطن، كما كان دودو يسألني عن رأيي في بعض إنتاجه الأدبي، اعتقادا منه أنني ما زلت أتعاطى الأدب والنقد كما كنت أتعاطاه في تونس والقاهرة.

وكان قد قرأ لي أبحاثي وأشعاري المنشورة في مجلة الآداب البيروتية، وهي الأبحاث التي جمعتها في كتابي: دراسات في الأدب الجزائري الحديث (1966)، وكان قد سبق له-كما أشرت- التعريف بكتابي عن محمد العيد (1961)، وقد أتبع ذلك بدراسة عن شعر محمد العيد وحياته بالتعاون مع المستشرق (فيلهم هونرباخ). وأرسل إلي مخطوطة مسرحيته التراب لإبداء رأيي فيها (1966).

وحين صدرت الطبعة الأولى من مجموعته القصصية بحيرة الزيتون (1967) وهو ما يزال في النمسا، أرسلها إلي لتقديمها إلى القراء.فكتبت عنها كلمة نشرت في جريدة الشعب بتاريخ 13 يناير 1968 وفي الفقرة الأخيرة من هذه الكلمة رسالة إلى دودو حول رجوعه إلى الجزائر، وفي هذه

الرسالة كلمات مرة عما كنت أعانيه منذ رجوعي في أكتوبر 1967، حتى يكون على بينة من أمره إذا أصر على العودة.

طالما تراسلنا في شأن المساهمة في الحركة الفكرية في الجزائر والوطن العربي، وفي شأن المقارنة بين تجربته الثقافية في النمسا وتجربتي في أمريكا، وكنا نشترك في الشكوى من الوضع القائم عندئذ، ولكنه كان أكثر مني خوفا لأنه أصبح، خلافا لي، رب عائلة. وقد سبقته إلى جامعة الجزائر بحوالي سنة، وسبقته كذلك إلى المعاناة التي عبرت له عنها في كلمتي عن (بحيرة الزيتون) حين بقيت سنة دراسية دون سكن ولا راتب ولا اعتراف بشهادة على يد زمرة ممن تركتهم فرنسا ممثلين لها، وكانت الجامعة هي أوضح مثال على تغلغل النفوذ الفرنسي في العقل الجزائري، وقد انعكست هذه الحالة على مراسلاتي مع دودو فأخذت أشكو إليه وأصف له العراقيل التي تعترض أمثالنا فيزداد حيرة وخوفا.

عرف دودو عني أشياء كثيرة لا يعرفها غيره، كما أزعم أنني أعرف عنه أشياء كثيرة لا يعرفها غيري بحكم التلاقي والثقة المتبادلة والتناجي حول ما كان يدور في الجزائر من أحداث وما يتندر به الأصدقاء والزملاء حول بعضهم في مجالسهم الخاصة وفي كتاباتهم، والتعليق على تصريحات المسؤولين وعلى المسائل الإدارية والثقافية، كما كنا نتشاكى من الأمراض والأزمات الصحية، وفي إحدى سنواتي في الخارج (20 فبراير، 1978) أخبرني بالأزمة القلبية الحادة التي تعرض لها والنزيف الذي عاناه ونصائح الطبيب الذي عالجه، فكتبت إليه أبياتا أهدئ فيها من روعه، منها:

طبيبك يا دودو طبيب مزيف *** فنبضك موزون وقلبك مرهف
وما بك إلا الفن عز بموطن *** عليك فناجاه الوجيب المخفف
يموت على المزمار لحن مقيد *** ويسلو الهوى والفن قلب معنف

وكان دودو قد أدى مناسك العمرة في إحدى زياراته للحجاز، وكان رفيقه في أدائها المرحوم محمد الصديق بن يحي الذي كان يشاع عنه أنه من اليساريين المتحمسين ضمن المسؤولين الجزائريين، وقد روى لي ذلك-وهو مندهش- من أداء ابن يحيى مناسك العمرة في خشوع ملفت للنظر وكيف كان متأثرا برهبة المكان والشعائر وأنه قام بجميع الأدعية المطلوبة.

وقد تبادلنا الآراء والكتب والنصائح أثناء المحن التي مرت بها البلاد، وكنا نتشاور في بعض المسائل الحساسة ويطلعني على أمور ربما لا يطلع عليها غير خاصته. وأذكر أنه قال لي ذات مرّة، إنّ جهة معينة عرضت عليه الإقامة في عاصمة أوروبية وراتبا محترما وعملا حرا يختاره على أن يوافيها من هناك بأخبار بعض الحركات والأفراد، ولكنه رفض هذا العرض وفضل البقاء حيث هو يبدع الأدب ويكافح المرض ويكون الطلبة.

السفر معه وسخريته

كان السفر معه متعة لان الحديث معه لا يمل، فهو لا ينفك يروي النكت والحكايات والطرائف والتجارب مما يخفف عن المهموم همه وعن المحزون حزنه، ولكن السفر معه أيضا كان مشكلة لأن صحته دائما هشة معرضة للصدمات المفاجئة، فهذا نزيف يصيبه، وهذا ضيق في التنفس،

وهذا نقص في الدواء، وهذا خفقان غير عادي للقلب، فقد كان سيسافر مع وفد من الكتاب إلى ليبيا سنة 1969 ولكنه في آخر لحظة أصيب بمرض في القلب أجبره على التخلف، وكان سيلتحق بنا في طرابلس ولكنه لم يستطع، فألقى أحدنا كلمته عن المسرح نيابة عنه، وفي القاهرة ودمشق سنة 1970 سكنت معه في غرفة واحدة، وكان يفضل مشاركتي في الغرفة لأنني أهتمّ بحالته الصحيّة ربما أكثر من غيري، وقد أصيب أثناء ذلك، سيما في دمشق، بوعكة حادة، وكان لا يسافر إلاّ والدّواء معه، ومع ذلك كان لا يتوقّف عن المرح وتلطيف الأجواء بملاحظاته عن النّاس وحتى عن نفسه أحيانا.

ذكر لي مرّة أنه كان في سوق الحميدية في دمشق فالتقى بشخص بدين وطويل اسمه (الصناديقي) فسلم عليه دودو بحرارة وعانقه ثلاثا على عادة الشرقيين، ثمّ تأمّل في وجهه وسأله وهو مرتاب: ألست أنت هو الصناديقي؟ فابتعد منه الرجل وهو يقول: لا، غلط ! وانصرف وترك دودو في دهشة من أمره. ومن ميزات دودو أنه يحسن تمثيل صوت ذلك الرجل الخشن ونبراته الشامية. وكذلك كل الشخصيات التي يمثلها. وقد لفتت نظره عبارة يرددها المتكلّم المصري عندما يتوقف عن الكلام ليبحث عن فكرة، فالمصري عادة يقول: بقول إيه؟ فكان دودو يرد على محدثه المصري ساخرا: ما تقولشي حاجة !.

وكثيرا ما كان يحكي لنا نحن أصدقاءه، قصصه عندما نزل القاهرة أول مرّة وهو في طريقه إلى بغداد أو أثناء إقامته في عاصمة الرشيد. ولا

شكّ أن زملاءه في البعثة يعرفون الكثير من الصور الاجتماعية التي كان يضعها أمامهم مما تلتقطه عدسته الذكية. وكان زملاؤه أنفسهم لا يسلمون من نكته. فالعراقي الذي لا يحسن الإنكليزية كان– كما يقول دودو – يقرأ بالعربية اسم شركة (سنجر ليمتد بصره Singer Limited Basrah) أي شركة سنجر المحدودة لمدينة البصرة، وهي الشركة الخاصة بآلات الخياطة، يقرأها العراقي البسيط هكذا: (سنجر لِيَمْتَدَ بَصَرهُ)، بينما كلمة (ليمتد) تعني بالإنكليزية: المحدودة، وكلمة (بصرة) هي مدينة البصرة المعروفة.

وكان دودو يقلد صوت المرأة الإنكليزية الحاد النبرة كما شاهدها في الأفلام وهي تنطق بعبارة (أوه) التعجبية. كما يقلد الشيخ الإيراني في العراق وهو يفسر القرآن الكريم بصوته المستطيل وغنته الفارسية المتصلة والمرتفعة عند حروف اللهاة، فيروي دودو أن الشيخ كان يقول في تفسير الآية الكريمة: (وما توفيقي إلا بالله): إن "ماتول" تعني ذهبوا، و"فيقي" قيل إنه نهر في جهنم... وربما كانت هذه في الواقع من نكت العراقيين عن بعضهم وأخذها دودو عنهم. أما ما يرويه عن شيخه الأعمى الذي اسمه (البصير)، فهو تقطيعه أبيات الشعر أثناء درس العروض بعبارة موسيقية صوتية يكررها الشيخ بغنة عراقية وهو يتمايل ويضرب بيده على فخذه هكذا: أها، أها، أها. وبذلك كان الشيخ (البصير) يفعل مع بيت المتنبي في وصف مشية الأسد المتأنية وهو في كبريائه :

يطأ الثرى مترفقا من تيهه *** فكأنه آس يجس عليلا

فيقطعها الشيخ لتلاميذه، وهو يترنح إعجابا بالصورة الشعرية التي رسمها المتنبي للأسد هكذا: أها، أها، أها... بدلا من التفعيلات المعروف، لقد كان دودو يروي ذلك وغيره في المجالس الأخويّة بروح مرحة وابتسامة ذكية يرافقها أحيانا اهتزاز البدن وحركات اليدين لأداء التمثيل على أحسن وجه. وكانت روحه المرحة تجعله حب الطرب وشرب الدخان ومنادمة الخلان الذين يبادلونه الشعر والنكت والذكريات الطريفة.

لم أر في حياتي إنسانا يعاني من مرض خطير ثم يسخر منه في ذات الوقت مثل الدكتور دودو. لقد طالت الأمراض الخطيرة سنوات، وتطورت معه أطوارا، وأدخلته المستشفى عدة مرات، وأوصلته إلى الموت ثم أعادته منه إلى الحياة عدة مرات أيضا، أمراض جعلته يعجز عن الحديث أحيانا وعن المشي أحيانا أخرى، وعن صعود بضع درجات من السلم الذي يوصله إلى شقته، وعن التنفس إلا بصعوبة. كما جعلته بدينا فوق ما يرغب، ثم نحيفا أكثر مما يجب.

وفي كل الحالات كان دودو يصارع المرض بإرادة الحياة وبقوة الإيمان والأمل في الانتصار عليه. وكانت وسيلته إلى ذلك هي التداوي والابتسام الدائم والسخرية الذكية. كان يحصي لي الأدوية التي يتناولها في اليوم الواحد فتصل إلى أكثر من سبعة عشر (17) دواء، من بينها ما يؤخذ كاملا وما يؤخذ أنصافا أو أرباعا، وما يؤخذ في زمن متباعد وما يؤخذ في زمن متقارب. ومع ذلك كان لا ينفك عن الابتسام والنكتة التي لا تفارقه كما

لا يتوقف عن رواية الذكريات الخفيفة مع فلان وفلان منذ كان طالبا ومع آخرين عندما كان في سفر أو في اجتماع.

دودو واللغة العربية

بدأ دودو دخوله إلى عالم المعرفة بحفظ أجزاء من القرآن الكريم، فتحصن بذلك لسانه وذوقه وسلوكه وتقوت معارفه الدينية والتاريخية. وكانت دراسته في معهد ابن باديس قد حببت إليه اللغة العربية والثقافة الإسلامية والوطنية وانطبعت في قلبه وعقله صورة الجزائر العربية المسلمة المتميزة عما كان يراه ويلاحظه في الجزائر الأخرى التي يسيطر عليها المستعمر ويذل أهلها ويسرق تراثها وثرواتها. ولذلك كان لا يطيق أولئك الجزائريين الذين يدعون إلى التعاون مع المستعمر السابق أو الذين يعتزون بانتمائهم الثقافي إلى ثقافته.

وفي العراق درس دودو في دار المعلمين العالية التي هي مؤسسة تربوية معدة لتخريج المعليمن والتي كانت تحت كوكبة مختارة من علماء وأدباء العراق المتضلعين في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي والحضارة العباسية الراقية، وكان هدف جمعية العلماء من إرسال البعثة هو تخريج فوج من المعلمين الذين يتولون التدريس فيما كانت تعد له العدة وهو إنشاء كلية ابن باديس في قسنطينة، ولكن المشروع لم ير النور لظروف الثورة، فتوجه الأساتذة والطلاب إلى أداء مهام وطنية أخرى، ولكن دودو وجد نفسه محصنا

لغويا وثقافيا، مكتشفا لميوله الأدبية وأصالته العربية، فكانت غيرته على لغة الضاد لا تعادلها إلا غيرته على حضارة العرب والإسلام.

إنتاجه الإبداعي والمترجم

تمثل إنتاج الدكتور دودو في مجموعة إبداعية ومجموعة أخرى من المترجمات الهامة، بدأ إنتاجه الإبداعي وهو في النمسا، كما أشرنا، فكتب القصة القصيرة والمسرحية والمقالة، وأصدر من ذلك مجموعتيه: بحيرة الزيتون التي ظهرت قبل عودته إلى الجزائر، ثم دار الثلاثة التي ظهرت بعد ذلك، كما كتب مسرحية التراب في النمسا ولكنه لم يطبعها إلا في الجزائر، ومعظم قصصه عندئذ تعكس حياة الناس في الجزائر سواء في قريته الصغيرة أو وطنه الكبير، فهي قصص مستوحاة من ذكريات طفولته في مسقط رأسه أو من تجاربه في قسنطينة أو من وحي الثورة.

ويمكن القول إن القسم الأول من إبداعاته كان نوعا من السيرة الذاتية، أما القسم الثاني فقد كان متخيلا مما عاشته الثورة من تلاحم القوى الوطنية للتخلص من الاستعمار واسترجاع الاستقلال، وقد كتب دودو وهو في الجزائر أيضا قصصا وصورا سلوكية، كما كتب مسرحية جديدة سماها البشير، وأسهم بالمقالات والبحوث والمداخلات، وحتى بالأشعار في الفترة الأخيرة من حياته.

وإذا حكمنا على إنتاجه من حيث الكم فإن أغلبه يتمثل في الترجمة من الألمانية إلى العربية، فقد وصلت أعماله المترجمة (بما فيها الكتب ذات

الأجزاء) إلى أكثر من أربعة وعشرين (24) بين مطبوع ومخطوط، وهناك أعمال أخرى ترجمها وتركها مخطوطة. ولا يعني هذا أنه ترجم من الألمانية فقط ما هو ألماني، بل إنه ترجم من اللغة الألمانية أدبا روسيا وهنديا وصينيا وغيره، لقد أتقن دودو اللغة الألمانية حتى أنه كان يترجم منها مباشرة دون استعمال الورق والقواميس، فقد كان يمسك القصة أو الفصل من الكتاب ويجلس أمام الراقنة قديما ثم شاشة الحاسوب حديثا ويأخذ في الترجمة من النص الذي أمامه.

ومن كثرة مترجمات دودو الأدبية تولدت عنده القدرة على المقارنة بين الآداب العالمية الحديثة والمعاصرة، واستطاع أن يغني مادة الأدب المقارن في الجامعة وأن يبرز فيها، ولا بد هنا من ملاحظة وهي أن إتقان دودو للغتين العربية والألمانية قد جعل القارئ لا يحس بأن الأثر الذي يقرؤه مترجم عن لغة أخرى، فهو يقرأه بعربية جميلة سلسلة وبأسلوب متسق لا اضطراب فيه ولا تمحل، فعمل دودو المترجم يظهر وكأنه نص في لغته الأصلية، ومن ميزات طريقته أنه لا يكتفي بترجمة النص بل يضيف إليه تعاليق تناسبه، كما يكتب له مقدمة أو مدخلا للتعريف بالمؤلف الأصلي وتوضيح النص المترجم وظروفه.

ولكن هذا النمط من السلوك لا يعني أن الدكتو دودو قد وضع القلم جانبا واستسلم للفناء، أو أنه تخلى عن مطالعاته واستحضار مصوراته وتسجيل مذكراته، لقد كانت ذاكرته نشطة كأنها غير معنية بالمرض الذي هد جسمه، فكان يدون أفكاره في يوميات ودفاتر حتى اجتمع له منها

مجلدات، وإذا كتب دودو إلى صديق له- ومنهم صاحب هذه السطور- كان يطيل الكتابة ولا يكتفي بجواب عن سؤال أو رسالة مجاملة، بل إنه كان يحرر صفحات تصل أحيانا إلى السبعة والعشرة، وكان يمضي وقته في المطالعة والترجمة وقراءة رسائل الطلبة وتصفح الجرائد ومتابعة الأحداث.

ملاحظاته وأسلوبه

كان دودو قوي الملاحظة شديد الحس بالناس والأشياء من حوله، ومن ملاحظاته عن تصرفات الإنسان في المجتمع وعن تعبيره عن حركاته وخلجات نفسه ورغباته النفسية والجنسية، استوحى دودو صوره السلوكية التي كتبها وصورها بقلمه أحسن تصوير، ولو كان دودو غير كاتب لكان أفضل فنان يعبر بالريشة بدل القلم وبالألوان بدل الكلمات وباللوحة بدل الكتاب،فهو ماهر في سبر أغوار النفس البشرية واختصار ما يجيش فيها في كلمات وعبارات يجدها القارئ سائغة ناصعة.

وبقدر ما حذق دودو فن التصوير بالكلمات حذق عددا من اللغات، كان ذكاؤه الأصيل واستعداده الفطري للمحاكاة والإبداع وذاكرته القوية ومخالطته للمستشرقين عوامل ساعدته على إتقان عدد من اللغات الشرقية والغربية. ففي العراق درس إلى جانب العربية اللغة الفارسية وأدرك أسرارها، وتذوق أدب الخيام والفردوسي، وحافظ وسعدي. وكان، كما أشرنا، يحسن تقليد أصوات الإيرانيين بنبراتها العالية وغنتها المتميزة عن العربية، وخالط

أساتذة وطلابا عراقيين متأثرين باللغة والأدب الفارسي، وكان له أصدقاء من هؤلاء حتى وهو في الجزائر.

وعندما انتقل إلى النمسا درس الألمانية وأجادها ومكنه زواجه من نمساوية من التعمق في أسرار هذه اللغة ومعرفة لهجاتها وأطوارها، وهو جهد لا يقوم به إلا أهل اللغة وعلماؤها، وتطلبت منه الشروط الدراسية والحياة العملية في الجامعة تعلم اللاتينية والفرنسية والإنكليزية. وكان يملك مجموعة من القواميس ليرجع إلى هذه اللغات عند الحاجة.

كان دودو يكتب مباشرة على الآلة الراقنة (قبل دخول الحاسوب)، فهو لا يكتب على الورق ثم يصحح ويطبع كما يفعل غيره، وليس عنده تبييض وتسويد للمقالة أو الفصل الذي يكتبه. إنه يجلس في السنوات الأخيرة أمام شاشة الحاسوب ويصب أفكاره مباشرة في الكلام الذي يريد في انسياب تام، ونفس الشيء يفعله مع رسائله لأصدقائه إذا كان سيستعمل الجهاز، أما إذا كان سيكتبها بقلمه فالأمر يختلف. بل إن الكتابة باليد عنده فن متقن الصنعة. فقد لاحظت عنده الإطالة والتسلسل وعدم ارتكاب الأخطاء إلا نادرا وعدم التصحيح لما كتب، فكأنه كان يطبع أفكاره طبعا على الورق ولا يمارس معاناة التفكير الذي يظهر عند غيره في التوقف والحذف والإضافة والمحو والتصحيح. أما أنا فأعتصر الكتابة اعتصارا وأحيانا لا تواتيني الكلمات المعبرة عن أفكاري وأحيانا لا أجد الفكرة التي أريد إيصالها إلى القارئ بكلمات مناسبة.

وقد لاحظت أن دودو في العشر سنوات الأخيرة كان يكثر من الشكوى في مراسلاته ويستطرد في الكتابة، وأعني بذلك الشكوى من المرض المتطور عنده ومن الوحدة بعد تفرق أصدقائه على إثر ما عرفته الجزائر من محن وإحن، ومن تردي الحياة الأدبية والفكرية مقارنة بما عرفه وعاشه في المشرق وفي أروبا. وكيف يكون دودو مرتاح البال قرير العين وقد تفرقت أسرته بين الجزائر والنمسا وأصبح مهددا في شخصه وأهله؟ وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحس بدنو أجله فكان يكثر من الكتابة عن حياته ويدون مذكراته وينظم الشعر الذاتي. وبعد انتقالي إلى جامعة آل البيت في الأردن عرضت عليه السعي للعمل فيها فشكرني واعتذر باعتلال صحته وكونه يفضل مواصلة العمل في جامعة الجزائر. رحمه الله.

الدكتور أبو العيد دودو
متى عرفته وكيف ؟

أ.د/ عبد القادر هني / عميد كلية الآداب واللغات
جامعة الجزائر

ماذا سأقول عنك وأنت شاب طري العود متوقدٌ بحب العلم تحث الخطى في قسنطينة الأربعينات نحو معهد العلامة ابن باديس الذي كان قبلة لك ولأترابك ممن سيصنعون غد الجزائر المتحفزة بل المتوفزة للانعتاق وكسر الأغلال التي كانت تطوقها؟

ماذا سأقول عنك بعد أن ضاقت بك مناهل العلم في الوطن فحزمت "العفش" وشددت الرحال إلى الزيتونة ومنها إلى بغداد فطويت فيها صفحات من العمر عزيزةً، قال عنها من عرفوك بالجيرة والمصاحبة إنها كانت بحق صفحات مضيئةً نيرة مشرقة؟.

ماذا سأقول عنك بعد أن دفَعَتْ بك همّتك القعساء إلى أراضين أخرى بعيدة تحديت فيها نفسك التي حنت إلى الوطن وتركت وراءك الأهل والأصحاب والخلان تعتصرهم –كما اعتصرتك– مرارة اغترابٍ لِتَرِدَ مناهل أخرى ارتويت منها أيما ارتواء ورشفت منها الرحيق الذي صنعت منه للأجيال شهدا.

بل ماذا أقول عنك بعد أن ألقيت عصا الترحال ويممت وجهك نحو الوطن الجريح وقد انجلى عنه ليل الاستعمار وفتح ذراعيه لأبنائه من أمثالك الذين جاءوه من كل فجٍّ عميق للبناء والإعمار ومحو آثار الاستدمار. فكنت من جنود الجامعة الجزائرية الفتية الأوائل الذين أرادوها جامعة جزائرية أصيلة وفاء لدماء قوافل الشهداء الذين افتدوا هذا الوطن العزيز بأرواحهم ودمائهم الزكية؟

أتُراني محقًّا، وقد جهلت كل هذه الصفحات من حياتك، أن أقول إنَّ شهادتي فيك لن تكون إلا مجروحة بنقصها وبعدها عن التمام والكمال اللذين يعزُّ عليها بلوغُهما أو الوقوعُ بالقرب منهما وإن أحبَّتْ أن تتزيَّ بزيهما؟

ليس لي وقد حُرمت معرفتك في المحطات التي ذكرت إلاَّ أن أتعلَّق بذاكرتي المتعبة أنفخ ما علاها من غبار السنين علني أتبيّن فيها الآثار الأولى لأول لقاء بك. فذهب بي الظن في أول وهلة أنني التقيت بك لأول مرة في خريف سنة ست وسبعين تسعمائة وألف (1976)، حين انتسبت لمعهد

اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر طالبا وكنت على رأسه يومئذٍ، وبحكم موقع المسؤولية الذي كنت فيه وبحكم ما كان يُكنه جيل الطلبة وقتئذٍ من تقدير وإجلال لأساتذتهم ومسؤوليهم، لا أزعم أن دنوّي منك كان شديدًا إلى الحد الذي يجعلك أمامي صفحة منشورة بينة الملامح والقسمات.

ومازلت أقلب صفحات هذا الكتاب المنقوش في ذاكرتي والتي والحمد لله لم يأت عليها الزمن كلية حتى لاح في خاطري خيط ضوء خافت فرحت أتابع مصدره فتبينت لي في متنهاه، لحظة اللقاء الأول بك، وياله من لقاء، لقد كان لحظة نشوة وحبور، بل لحظةُ شعورٍ بالتفوق والبروز على الأتراب في المشوارالذي لم يثنك عنه أنت نفسك إلاَّ الأجل الذي لامردَّ له. فقد كان لقائي هذا بك من خلال عملك "بحيرة الزيتون" التي أهديتُها في دار المعلمين بالأغواط بمناسبة تصدري المرتبة الأولى في الصف الأول بالدار في جوان 1970 وكانت فرحتي شديدة بتفوقي من جهة وبحصولي على عمل أدبي اسم مؤلفه الدكتور أبو العيد دودو، فكانت قراءتي أياه فاتحة لي للتعلق بقراءة نصوص أدبية كاملة كان أولها هذه البحيرة التي شدّني اختيار كلماتها وجمال أسلوبها أكثر من أي شيء آخر فيها، ولشدة تعلقي وإعجابي برشاقة لغتها عدت إلى قراءتها مرارًا بل رحت أبحث عن أخوات لها مما حبَّر قلمك من خلال إشارة الناشر إلى بعض منها على ظهر غلافها، فعزعلي نيل مطلبي في تلك الصائفة بحكم افتقار قريتي ومكتبة المدينة (ورقلة) يومئذ للعناوين المذكورة على ظهر الغلاف، ومازلت ألهث وراءها حتى قيض لي الله فرصةَ تصفح بعض من أعداد مجلة الفكر

التونسية التي فتحت لك صفحاتها في الخمسينات فاطلعت على طائفة من النصوص القصصية القصيرة التي كتبتها زمنئذٍ، وقد مكنتني هذه النصوص على قلتها أن أكوّن عنك فكرة أولية، فقد لمست من خلال المواقف التي كنت تدفع إليها أبطالها، الحجم الكبير الذي احتلته من نفسك الثورة الجزائرية المباركة ونضالات شعبها الأبي المتعطش للحرية ففي قصة "جاء دورك" فإن سذاجة بطلها الشاب وبساطة تفكيره لم يمنعاه على إثر استشهاد الأب والأخ وتشجيع الأم له من أن يعتنق في آخر المطاف فكرة النضال ويطلِّق حياة الرفاه والرخاء التي كان يعيش فيها قبل موت أبيه، وتطور مماثلٌ في شخصية البطل لاحظته أيضا في قصة "الفجر الجديد" التي تقدِّم لنا نموذجاً لموظف جزائري سلبي في الإدارة الفرنسية،سوى أن هذه السلبية التي جعلته ينظر بشيء من الريبة إلى الثورة الجزائرية لم تلازمه إلى نهاية القصة، فقد اقتنع في الأخير أن الالتحاق بالجبل أمر لا بد منه يمليه الواجب الوطني.

إن فكرة النضال والدفاع عن الوطن السليب كما لمستها في هذين العملين رسخت في ذهني ما سألمسه فيك بعد ست وسبعين تسعمائة وألف بعد ان أصبحت من طلبتك في مادتي نظرية الأدب والأدب المقارن، من تعلق بالوطن وتسخير قلمك لخدمته وبناء صرحه الثقافي ورفعه عاليًا شامخًا. وما حبره قلمك طوال حياتك إبداعًا وتأليفًا وترجمة يؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك نيتك الخالصة في خدمة الثقافة الوطنية والعربية بصمت ودون ضوضاء أو تهريج، فقد سخرت نفسك لهذه المهمة على الرغم من

المرض الذي لازمك مدة ثلاثة عقود، هذا المرض العضال الذي لم يزدك إلا إصرارًا على المضي في تحقيق مشروعك العلمي والثقافي الوطني.

واصدقني القول وأنت بين يدي الحق تعالى، تسمعني من وراء حجاب وإن عزَّ عليك كما يعز على كل راحل أن يحير جوابًا، أقول لا شك أنك تصدقني إن قلت إني ومنذ قرابة أسبوع أفكر في كلمة تليق بمقامك وتكون في مستوى منزلتك في النفوس، فما طاوعني قلمي لأني وكلما رسمت كلمة أو حبرت فقرة إلا وأحسست أنها واقعة دون ما أنت له أهل، أنت الذي أفنيت العمر بين القرطاس والقلم من أجل خدمة وإثراء الثقافة العربية في الجزائر وفي الوطن العربي، فمكنت بذلك لمريديك وطلابك ما به يواصلون رفع البناء إلى أبعد غاية.

أستاذنا العزيز، لقد مضيت وتركت القلوب وراءك دامية والعيون باكية، لكن عزاءَ الجميع أنك تركت واديًا لا يَغيض ماؤه، فأنت حاضر في كل حرف حبرته وفي كل كلمة يُتلفظ بها فيما كتبت ونمقت، بل ستكون حاضرًا في أقلام كل وُرَّاد ما رصدته للأجيال من كنوز باقية إلى أن يرث المولى تعالى الأرض ومن عليها.

أستاذنا الأعز تغمدك الله برحمته الواسعة وأسكنك فسيح جنانه. وألهمنا وذويك الصبر والسلوان.

"إنا لله وإنَّا إليه راجعون" صدق الله العظيم.

النظر في المرآة

قراءة في مجموعات أبي العيد دودو القصصية

أ. د. أحمد منّور (جامعة الجزائر)

أسهم الفقيد الدكتور أبو العيد دودو إسهامات كثيرة ومتعددة في مختلف مجالات الثقافة والأدب والتاريخ الوطني، وتركزت إسهاماته بالخصوص في مجالين اثنين: الترجمة التي كرس لها معظم حياته العلمية، من جهة، والإبداع الأدبي من جهة أخرى، حيث قدم في المجال الأول أعمالا كثيرة متميزة جمعت بين التاريخ والأدب والرحلات، وقدم في المجال الثاني أعمالا عديدة أيضا، بمقادير متفاوتة، شملت القصة والمسرح والشعر والرواية [1]، وكان في

1. ذكر في "صالون الخميس" باتحاد الكتاب، الذي استضافه يوم 22/ أكتوبر 2003، أنه كتب قصة مطولة تتألف من عدة حلقات تشكل من حيث الحجم رواية تناول فيها قصة "ملف توظيفه" بالجامعة الذي ظل ينتظر التسوية في وزارة التعليم العالي مدة 22 شهرا، وظل طوال تلك المدة في ضائقة مالية لأن راتبه الشهري لم يكن يصرف له. ومازالت هذه القصة/الرواية مخطوطة.

الأولى مثالا للباحث الأصيل، والمحقق المدقق، والمترجم البارع، وكان في الثانية مثالا للفنان الموهوب، والشاعر المرهف الإحساس.

وبالنظر إلى هذا التنوع في الإنتاج وكثرته لدى كاتبنا (حيث تجاوز عدد مؤلفاته المنشورة الأربعين كتابا، بالإضافة إلى ما تركه من المخطوطات العديدة) [1]، فإنه من الصعب علينا في هذا المقام أن نأتي حتى على ذكر عناوين تلك المؤلفات، ناهيك عن محاولة حصرها وتصنيفها، والوقوف على موضوعاتها، وإبراز أهميتها الفكرية والفنية، ولذلك سوف نكتفي فيما يلي بحصر تدخلنا هذا في مجال القصة القصيرة، وحتى في هذا المجال الأخير، الذي قدم فيه الراحل أعمالا كثيرة، سنقتصر على "قراءة" ما نشره من المجموعات القصصية وحسب[*].

أصدر أبو العيد دودو إلى حين وفاته [2]سبعة أعمال قصصية، أربعة منها من النوع المعياري المعروف للقصة وهي : "بحيرة الزيتون" سنة (1967)، و"دار الثلاثة" (1971)، و"الطريق الفضي" (1981)، و"الطعام والعيون" (2000) وثلاثة من النوع الذي ابتكره واشتهر به في العشرين سنة الأخيرة من حياته وأعطاه اسم "صور سلوكية"، وأصدر منه: "صور سلوكية" ج1 (1985)، و"صور سلوكية" ج2 (1990)، ومن أعماق الجزائر (1993).

1. بناء على جرد بعناوين مؤلفاته المنشورة والمخطوطة مع لمحة عن حياته كتبها بنفسه وسلمها لكاتب هذه السطور للاستعانة بها في تقديمه لجمهور "صالون الخميس" في الجلسة المشار إليها في الهامش السابق .
* أعني أنني سأستبعد "الصور السلوكية" التي ابتكرها كاتبنا لأن لها خصائص فنية مختلفة تستوجب ـ في رأينا ـ أن تدرس مستقلة .
2. توفي يوم الجمعة 16يناير2004، الموافق لـ23 ذو القعدة1424 عن عمر يناهز 70 عاما، ودفن في اليوم التالي السبت بمقبرة بن عكنون بالجزائر العاصمة.

وله مجموعة رابعة من هذا النوع لم تصدر بعد، أعطاها عنوان "ظواهر اجتماعية". وله أيضا مخطوط ذو طابع سردي بعنوان "خرافيات"، نشر بعضا منه في الصحف اليومية التي كان يكتب فيها بين الحين والآخر مثل "السلام" و"صوت الأحرار" و"اليوم"، وهي خرافات . كما يدل عليها عنوانها . يعود بعضها إلى أصل شعبي جزائري، وبعضها مستوحى من الخرافات اليونانية والرومانية والجرمانية.

1. بحيرة الزيتون

هذه أول مجموعة قصصية للكاتب، ظهرت طبعتها الأولى سنة 1967 صادرة عن مطبعة جريدة "الشعب"، ثم أعادت المؤسسة الوطنية للكتاب طبعها مرتين، كانت آخرها سنة 1992. تتكون من عشرين قصة، تجري أحداثها إبان ثورة التحرير، وتصور جوانب من كفاح الجزائريين في تلك الفترة الصعبة. وقد كتب هذه القصص من وحي الثورة وعلى وقع أحداثها، وبدرجة عالية من الدقة في تصوير الأحداث، كأنما كان يعيش بالجزائر، مع أنه عاش سنوات الثورة الأولى في بغداد وسنواتها الأخيرة في النمسا (التي سافر إليها من العراق في بعثة طلابية سنة1956) ثم في ألمانيا بعد ذلك، ولم يعد إلى الجزائر إلا في سنة 1969، لكن لم يمنعه بعده عن الوطن من متابعة ما كان يحدث فيه، ولعل البعيد عن الوطن يكون أكثر شوقا لمعرفة ما يحدث فيه، وأكثر تأثرا بما يسمع أو يقرأ عنه. وليس هذا حال أبي العيد دودو وحده، فمعظم الكتاب الجزائريين الذين كتبوا عن الثورة التحريرية، سواء بالعربية أم بالفرنسية، كانوا يعيشون أثناء الثورة

بعيدين عن الجزائر: في تونس أو القاهرة أو دمشق أو فرنسا أو غيرها، إلا أنهم كانوا يحملون قضية بلدهم أين ما حلوا أو رحلوا في قلوبهم ومشاعرهم، ويعانونها مثل من يعاني "الصداع المزمن" . حسب تعبير مالك حداد . ويتابعون كل ما يحدث في الجزائر عن طريق الراديو أو الصحافة، أو عن طريق أبناء بلدهم ممن يعيشون مثلهم في المهجر، أو عن طريق المسافرين العابرين، أو عبر الرسائل الشخصية التي تأتيهم من الأهل أو الأصدقاء [1]، ليبدعوا من وحي الألم والمعاناة شعرا وقصة ورواية، وهكذا كان الإبداع عندهم يولد من رحم المأساة.

وبخصوص التواريخ التي كتبت فيها قصص "بحيرة الزيتون" والأماكن التي كتبت فيها، نلاحظ أن المجموعة خالية تماما من هذا، باستثناء قصة واحدة هي قصة "إليك يا أخي" التي أثبت تاريخ ومكان كتابتها وهو 1958/02/08 بمدينة "فيينا"، وتحتل الرتبة السادسة عشر في المجموعة، إلا أن هذا لايعني بالضرورة أن القصص التي سبقتها من حيث الترتيب قد كتبت قبلها، لأن ترتيب القصص في المجموعات القصصية لا يخضع دائما لعامل الزمن. وعلى أية حال فقد تنبه الكاتب بعد نشره لهذه المجموعة إلى أهمية تسجيل تواريخ كتابة القصص، فصار حريصا على إثباتها في مجموعاته اللاحقة كلها، باستثناء حالات قليلة.

إن حالة البعد عن الوطن وشوقه إليه لم يمنعه من متابعة ما كان يحدث في بلده بكل الوسائل والطرق، وهذا ما يجعل قارئ "بحيرة الزيتون"

1. راجع قصة "دفاعا عن الوطن" في مجموعته "الطعام والعيون" ص98.

يحس أن الكاتب كان شاهد عيان على ما كان يحدث في الثورة، ولئن دل هذا على موهبة قصصية فذة لدى الكاتب، وقدرة على تصوير الأحداث غير عادية، فإنه يدل من جهة أخرى على مدى تفاعله القوي مع ما كان يحدث في بلده، وعلى تتبعه لكل ما كان يحدث، وتأثره الشديد به. وقد عبر عن هذا المعنى بشكل فني في غاية المثالية والرمزية في قصة "الحبيبة المنسية"، حيث يلوم فيها نفسه لوما شديدا لأنه طاوعها في انشغاله بغرامياته على حساب حبيبته الجزائر. وهذا التأثر الشديد نفسه هو الذي جعله يصور الأحداث في قصصه بكثير من الصدق والعفوية، ولكن بكثير من المثالية أيضا. إن نماذج التضحية التي قدمها الكاتب مجسدة في أبطال قصصه لا يبررها أحيانا إلا هذه المثالية. صحيح أن ما حدث في الثورة التحريرية من أشكال البطولة والفداء لا يستطيع الناس اليوم أن يتخيلوه حتى مجرد التخيل، ولكن للفن منطقه الخاص الذي لا يقبل بتقديم الأحداث، ولا تصوير التضحيات والبطولات إلا مبررة تبريرا فنيا مقبولا.

والواقع أن الكاتب قد نجح في معظم قصص المجموعة في تقديم المبررات الفنية بتصوير الدوافع النفسية لأبطاله، والظروف الاجتماعية التي أحاطت بهم وحوَّلتهم من مجرد أناس عاديين إلى أبطال ثوريين، يتمتعون بصفات غير عادية من وعي، وإيمان بالقضية، ومن ثمة باستعداد لا حدود له للتضحية والفداء، يظهر ذلك في العديد من النماذج البشرية التي عرضها، والتي تنوعت بين شيخ فان لم يمنعه سنه من تقديم خدمات جلى للثورة، حتى وإن منعه من مهمة القتال (الشيخ محمود في قصة "بحيرة

الزيتون") وأم فقدت ابنها في معركة ضد العدو فطلبت من ابنها الثاني وهي تسند جسد ابنها الشهيد إلى صدرها أن يستعد لمواصلة مهمة أخيه (قصة "جاء دورك")، لكن قصة "نضال " على سبيل المثال، جاءت مغالية في مثاليتها مما جعلها غير مقنعة فنيا في تطور أحداثها، وخاصة في نهايتها التي لم تكن متوقعة. ومع هذا فإن مجموعة "بحيرة الزيتون" تعد تعبيرا عن اتجاه جديد أوجدته الثورة في حياة الجزائريين وفي أدبهم حسب تعبير الدكتور عبد الله ركيبي [1]، وكان أبو العيد دودو رائدا فيه.

2. دار الثلاثة

صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1971، وتتكون من أحد عشر قصة، كتبت ثلاث منها في فترات متباعدة، وهي الأولى من حيث الترتيب"، في سنوات 1963 و 1965 و 1966 وهي على التوالي: "سامر الحي" و"الشفة السمراء" و"معاناة"، أما القصص الثمانية الأخرى فقد كتبت في أوقات متقاربة نسبيا، في الفترة ما بين 1968 و 1970. ونلاحظ أن الكاتب صار يعتني . كما أشرت آنفا . بتسجيل تاريخ الكتابة باليوم والشهر والسنة، مع ذكر مكان الكتابة أحيانا، وهو التقليد الذي سيحافظ عليه في أعماله اللاحقة . إلا ما ندر [2]. مما يسهل مهمة

1. د. عبد الله ركيبي، تقديم مجموعة بحيرة الزيتون ص6 .
2. وقد يكون بعضها من القصص القديمة التي لم يضع لها تاريخا ولم ير مانعا من ضمها إلى المجموعات الجديدة، بعد أن أدخل عليها بعض التعديل، أو يكون قد أكملها ثم ضمها إلى المجموعة، ومن ذلك مثلا قصة "الدوارة" في مجموعته الأخيرة "الطعام والعيون" التي وضع لها تاريخا بهذا الشكل 1994/75 مما يشير إلى أنه أكملها أو أعاد فيها النظر بعد مرور 19 عاما ثم أضافها إلى المجموعة .

الدارس في التأريخ لأعماله، ويسمح له بوضع مخطط بياني لظهورها زمانيا وتطورها فنيا.

في مجموعة "دار الثلاثة" نجد أن موضوع ثورة التحرير قد تراجع بشكل ملحوظ بالقياس إلى المجموعة السابقة لينحصر في ثلاث قصص هي: "الشفة السمراء" و"قريتنا تتحدى" و"الظل". تجري حوادث القصتين الأوليين منها في الريف حيث تدور المعارك بين المجاهدين وقوات الاحتلال في الجبال والغابات، وحيث تقصف القرى بالطائرات، أما القصة الثالثة فتجري في الجزائر العاصمة، وبالتحديد في "لعقيبة" بحي "بلكور"، وتتعلق بالعمل الفدائي في المدن.

ويبرز في هذه المجموعة موضوع جديد تماما لدى الكاتب هو ذكريات الصبا والطفولة في الريف الجيجلي بالأساس ثم في مدينة قسنطينة، ويتعلق الأمر بقصص: "المرابطة" و"دار الثلاثة"، و"يدي على صدري"، وهي قصص تصور أوجها من الحياة اليومية لسكان الريف ولقاطني الأحياء الشعبية في المدينة العتيقة، وهم يكدحون ويصارعون من أجل لقمة العيش، وتعكس في جزء كبير منها طفولة الكاتب، الذي عرف اليتم والفقر منذ سن الرابعة، وعانى الجوع والحرمان، واضطر إلى ترك المدرسة ليعمل راعي ماعز [1] من أجل إعالة أمه وأخته وأخيه الأصغر منه.

1. فقد والده سنة 1937 وهو في الرابعة من عمره، وبذلك فقدت أسرته عائلها، وأصبحت تعيش على ما تدره عليها بعض المعزات من الحليب، وهي المعزات التي أصبح كاتبنا راعيا لها رغم صغر سنه، وكتب عنها قصته "عرس الذئب" ضمن مجموعته "الطريق الفضي"، وحين بلغ العاشرة من عمره كفله أحمد دودو، وهو أحد أقاربه، وكان محروما من الأولاد ـ والذي سيكون أحد شهداء الثورة ـ فأخذه ليعيش معه في مدينة قسنطينة، و أدخله المدرسة وتكفل بمصاريفها إلى أن أنهى دراسته التكميلية بمعهد عبد الحميد بن باديس سنة 1951 وانتقل إلى تونس لمواصلة الدراسة. ولولا أن قيض الله هذا الرجل

أما القصص الباقية في المجموعة وهي: "معاناة" و "الرحلة" و"معدن الكلمة"، فتتطرق إلى موضوعات أخرى أبرزها حالة التسيب والفوضى التي جاءت مع سنوات الاستقلال الأولى، وما أدت إليه من انحرافات وآفات اجتماعية مثل المحسوبية والبيروقراطية والرشوة، والتكالب على المغريات المادية، ومن ثمة التسابق على المكاسب، ونهب الملكية العامة، وهي الانحرافات والآفات التي طالت حتى بعض من حملوا السلاح ضد المحتل، ومن هنا جاءت خيبة أمل الشعب والمجاهدين الذين ظلوا على عهد الشهداء، وحافظوا على شرف الجهاد، وكانوا يأملون في مستقبل مشرق للجزائر تصنعه المبادئ السامية التي قامت عليها الثورة، ولكن التيار كان أقوى من هؤلاء. والأدهى والأمر من كل هذا أن يلجأ مجاهد مثل مصطفى بطل قصة "معاناة"، تحت ضغط الفقر والحاجة، إلى من يتوسط له لدى شخص كان يعمل ضد الثورة ليحصل على عمل في المستشفى يحفظ له كرامته.

ونجد ضمن هذه القصص واحدة ذات طابع تاريخي، تحمل عنوان "الأميرة وماسح الأحذية"، استوحاها الكاتب من مذكرات أحد الرحالين الأوروبيين الذين زاروا مدينة الجزائر في ستينيات القرن التاسع عشر وكتبوا عن الأوضاع الاجتماعية المزية للجزائريين في ظل الاحتلال. والقصة بالرغم من طابعها التاريخي تدخل في سياقها العام ضمن مقاومة الجزائريين

المحسن لظل أميا يرعى الماعز أو يحرث الأرض في قريته، ولعاش ومات دون أن يكتب أو يبدع، أو يذكر له اسم بين أرباب القلم.

للاحتلال وصمودهم في وجه قوته الغاشمة حتى ولو بالمقاومة السلبية، واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية في أصعب اللحظات وأشدها قسوة، وهذا هو حال سيدي محمد في القصة المذكورة، الذي كان جنديا في جيش الأمير عبد القادر، وجرح وأسر في الحرب، ثم أطلق سراحه بعد انتهاء مقاومة الأمير، ليجد نفسه بلا مال ولا مأوى، ولا أهل، فاضطر إلى امتهان حرفة مسح الأحذية من أجل العيش، ولكن ظل، رغم وضعه الاجتماعي المزري محافظا على كرامته وعزة نفسه، مؤمنا أن المحتلين سوف يرغمون على مغادرة البلد إن عاجلا أم آجلا.

3. الطريق الفضي

صدرت هذه المجموعة عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1981، وتتكون من عشر قصص كتبت بين سنتي 1971 و1975، وتوزعت حسب السنوات على النحو التالي: سنة 1971 قصة واحدة (الطيف)، تليها قصة بدون تاريخ (عرس الذئب)، وقصة واحدة أيضا سنة 1973 (أبو شفة)، أما سنة 1974 . أو على الأصح النصف الثاني من السنة . فقد جادت قريحة الكاتب بخمس قصص هي على التوالي: "الأسلاك الملتمعة" و"الطريق الفضي" و"رسالة توصية" و"أرضي شوكي" و "الخاتم"، في حين أننا لا نجد في سنة 1975 إلا قصتين اثنتين ضمن المجموعة، وهما المئزر الوردي " و"الغرض". والواقع أن القاص لم يقتصر في سنة 1975 على هاتين القصتين فقط، ولكنه كتب ثلاثا أخرى نجدها ضمن مجموعته اللاحقة "الطعام

والعيون" [1]، وربما يكون قد كتب أكثر من هذا في السنة المذكورة (إذا وضعنا في الحسبان وجود قصص ضمن المجموعة الأخيرة بدون تاريخ).

أما كيف نفسر سبب نشره لهذه القصص في مجموعتين فيمكن أن نفسره على وجه الاحتمال، بالنظر إلى تواريخ انتهاء المؤلف من كتابة القصص، حيث كتب القصتين الأوليين في الربيع (بتاريخ 03/16/ 75 و75/04/05) وكتب القصص الأخرى في آخر السنة (بتاريخ 75/11/08 و75/12/25 مكرر). وأرجح الظن أن يكون قد أعد مجموعة "الطريق الفضي" للنشر وكانت قصتاه الربيعيتان ضمنها، وتعذر عليه، بعد أن سلمها للناشر، أن يضيف إليها القصص الشتوية التي كتبها في نهاية العام[2]. ولا يؤثر على هذا الترجيح ما يلاحظ من فارق زمني كبير بين آخر تاريخ لكتابة القصص وتاريخ نشرها، الذي بلغ ست سنوات، لأن معدل بقاء المخطوط لدى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قبل أن يعرف طريقه إلى النشر، كان . كما يعرف الذين تعاملوا مع الشركة في الفترة المذكورة . لا يقل عن خمس سنوات .

ونلاحظ في هذه المجموعة أن موضوع الثورة التحريرية قد اختفى نهائيا، في الوقت الذي اتسع فيه اهتمام الكاتب بالموضوعات التي جاء بها واقع ما بعد الاستقلال، وأبرزها موضوع البيروقراطية وما يدور في فلكها من تسيب وإهمال ومحسوبية، ونهب للمال العام، وهي الموضوعات التي وقفنا

1. هي بالترتيب : "الطعام والعيون" و"ضارب الرمل"، و"ضريبة الشحن" .
2. يعتذر الناشرون عادة بعد أن يعدوا المخطوط للنشر إضافة شيء إليه أو الحذف منه، أو إدخال أي تعديل عليه.

عليها في مجموعة "دار الثلاثة"، بحيث نجدها تتكرر بإلحاح في هذه المجموعة، وتتخذ لها أشكالا مختلفة تتغير فيها الوجوه والدوافع والأمكنة ولكن السلوكات تبقى ثابتة لا تتغير، لأن الظروف الاجتماعية والسياسية التي أفرزتها هي ظروف واحدة. وقد عالجها الكاتب في قصص أربعة تدور كلها في هذه الدائرة المغلقة وهي : "الطيف" و"الأسلاك الملتمعة" و"رسالة توصية" و"أرضي شوكي". وتعرض كل قصة من هذه القصص وجها من أوجه الفساد الإداري والاجتماعي الذي كان ينخر عظم المجتمع، فقصة "الطيف" تقدم نموذجا لمدير عام لشركة وطنية، فاسد بكل المقاييس، يقضي لياليه في السهرات الحمراء، ولا يدخل إلى الشركة إلا مع الفجر، فاقدا الوعي من شدة السكر، يأتي في هذا الوقت المبكر لا ليعمل ولكن لينام في أريكة مكتبه الوثيرة معظم النهار، تاركا سكرتيرته الخاصة، وعشيقته في الوقت نفسه، تتصرف بدلا عنه في شؤون الشركة كما يحلو لها. و"رسالة توصية" تقدم نموذجا آخر لتدخل أصحاب النفوذ في التعيينات الإدارية وفي الوظائف العالية، حيث يبدو معها الشعار الذي كان مرفوعا "الرجل المناسب في المكان المناسب" مجرد شعار أجوف يكذبه الواقع، إذ لا تتم التعيينات في المناصب حسب الكفاءة ولكن تتم حسب مصلحة أصحاب النفوذ، وحسب درجة قرابة المرشح إلى الوظيفة من المسؤول، العائلية أو العشائرية أو الجهوية.

وقد عمد الكاتب إلى المبالغة والتضخيم في رسم شخصية الموظف الجديد، الذي فرض رئيسا على إحدى مصالح المؤسسة التي عين بها

برسالة توصية، من منطلق السخرية التي عرف بها، فجعله أميا لا يقرأ ولا يكتب، فكانت كاتبته الخاصة هي التي تقوم بكل كبيرة وصغيرة بدلا عنه، وحتى عند توقيعه على الوثائق كانت تمسك له يده ليوقع عليها [1]، ومع هذا فلا شيء يزحزحه من وظيفته ما دام هناك من يحميه من أصحاب النفوذ. أما أصحاب الكفاءات، ممن لا يتمتعون بحماية أصحاب النفوذ فإنهم يكونون عرضة لكل أنواع التعسف، وللمؤامرات إذا كانوا من أصحاب الضمائر الحية، ويؤدون واجبهم بإخلاص، ولا يرضخون لضغوط المحيط الفاسد، وهذا ما حدث لبطل قصة "أرضي شوكي" الذي عين مديرا جديدا لإحدى المزارع التابعة للدولة، وكانت المزرعة تعاني قبل تعيينه من سوء التسيير ومن الإفلاس . بسبب سرقات مديرها السابق، بالتواطؤ مع المحاسب المالي . فأصلح حال المزرعة، وأعاد إليها توازنها المالي، وبنى علاقات جديدة مع الفلاحين تقوم على الثقة والتعاون بما يخدم الصالح العام . وهذا هو النموذج الإيجابي الوحيد الذي قدمه الكاتب في قصصه عن فئة البيروقراطيين والمسؤولين . وبطبيعة الحال لم يكن هذا ليعجب المحاسب ومن يدور في دائرته من المستفيدين السابقين من المزرعة، فلفقوا للمدير الجديد مؤامرة محكمة لأجل التخلص منه، ونجحوا في ذلك بأن ملئوا صندوق سيارته خلسة بالخضر والفواكه، ثم قاموا بإخبار الدرك، ليقع المدير متلبسا بسرقة جهد العمال. والمسألة هنا رمزية تتمثل في تآمر قوى الفساد على كل ذي ضمير حي وذمة خالصة، والعمل على توريطه أو الإيقاع به،

1. الطريق الفضي، قصة "رسالة توصية" ص111 .

لأن اكتشاف صناديق من الخضر والفاكهة في صندوق مدير المزرعة لا يشكل في حد ذاته جريمة خطيرة.

ويعود الكاتب في هذه المجموعة مرة أخرى إلى ذكريات مسقط الرأس وعالم الريف، وبشكل أقوى أيضا مما رأيناه في "دار الثلاثة"، ليجسد ذلك في خمس قصص كاملة، أي نصف قصص المجموعة، وتتمثل حسب الترتيب الذي جاءت به في: "عرس الذئب" و"أبو شفة" و"الطريق الفضي" و"الخاتم" و"الغرض". ولا نجد في هذه القصص صلة مباشرة بحياة الكاتب إلا في قصة "عرس الذئب" التي كان هو بطلها، وتتناول حادثة أكل الذئب لجديه الوحيد، يوم أن كان راعيا لثلاث معزات هي كل ما كانت تملكه أسرته بعد وفاة والده، وقد أثرت فيه هذه الحادثة أيما تأثير، وأثارت في نفسه تساؤلات محيرة حول من يملك القليل ومن يملك الكثير، وحول مفهوم الحظ والعدالة في المجتمع، ولماذا أكل الذئب من معازه رغم قلتها وترك معاز الراعي المرافق له رغم كثرتها ؟ وراح يتساءل (ما الذي يحدث لو خسر "الراعي المرافق له" جديا واحدا من العشرين وبقي لي أنا جديي .. جديي الوحيد ؟ .. وما كان يضيره حتى ولو فقد "عناقا" أو عنزة، ومع ذلك لم يكن مستعدا لأن يفقد واحدة من قطيعه، وكنت أنا أقل استعدادا منه، ومع ذلك ..)[1]. وقد ظلت تساؤلات الطفل الصغير أبو العيد بلا إجابة، ولا أتذكر أنني قرأت لأبي العيد الرجل والكاتب أو سمعت منه إجابة عن مثل هذه التساؤلات. لقد ظلت تتكرر معه في شكل تساؤلات وجودية في كتاباته وأحاديثه أكثر منها تساؤلات تتعلق بالواقع الاجتماعي والسياسي لفترة

1. الطريق الفضي، قصة "عرس الذئب " ص36 .

السبعينيات[1]. ويبدو لي أن هذا راجع بالأساس إلى طبيعة الفنان في شخصية الكاتب، فالفنان كثيرا ما يطرح الأسئلة ولكنه يفضل عدم الإجابة عليها، تماما مثل ما ينتقد الأدواء التي يراها في المجتمع ولكنه لا يرى نفسه ملزما بوصف الدواء لها، فمهمته تقف عند حدود طرح الأسئلة، وتشريح الواقع لا غير.

وما يلاحظ في ذكريات الكاتب الريفية الأخرى أنه لا يكتبها لمجرد حنينه إلى مسقط رأسه . كما يفعل بعض الكتاب . أوالتغني بجمال الريف، وببساطة العيش فيه، والإشادة بطيبة أهله، ولكنه بالعكس من ذلك يريد الكشف عن حالة الفقر الشديد، والتخلف المريع، وحالة الجوع الذي كان يعاني منه أهل الأرياف أيام الاستعمار. لقد قدم في قصة "أبو شفة" مثالا رائعا للتضحية ومؤلما في الوقت نفسه، حين خاطر هذا الرجل "أبو شفة" بحياته من أجل أطفاله الجائعين الذين كانوا ينتظرون عودته في العدوة الأخرى من النهر بما يسد رمقهم، وكانت الأمطار التي تهاطلت طوال أيام عديدة قد منعته من عبور النهر . ولم يكن هناك جسر يربط بين العدوتين . فغامر أبو شفة باجتياز النهر فكانت نهايته، حيث جرفه التيار إلى أعماق النهر وهو يحمل بين يديه كيس الطحين.

وتعالج قصة "الطريق الفضي" مشكلة الجوع أيضا، وكفاح الفقراء اليومي في التغلب على هذا الغول، الذي يتغلب على كل الغيلان الأخرى،

1. يبدو في ظاهر هذه التساؤلات أنها تصب في سياق التفكير الاشتراكي الذي كان الكثير من المثقفين والأدباء متأثرين به في فترة السبعينيات، إلا أننا لا نعرف للكاتب أي ميل اشتراكي، لا في الفكر ولا في الممارسة .

الحقيقية أو الوهمية، وهكذا تجد أم الأولاد في هذه القصة نفسها مضطرة إلى التغلب على مخاوفها من حكايات الأشباح التي تسكن مقبرة القرية، وتمر عبرها قبل بزوغ الفجر، ممسكة بيد طفلها، وقلبها يكاد يطير من بين ضلوعها، كل ذلك، من أجل الوصول باكرا، للحصول على قليل من الزيت والطحين لأطفالها. وعلى أية حال فهذه القصة أقل مأساوية من سابقتها، بل إن القارئ ليجد في تفاصيلها متعة، وفي وصف الكاتب لمخاوف الأم وابنها من الأشباح ما يبعث على الابتسام في العديد من المواقف.

وإذا كانت أحداث القصتين السابقتين تجريان في عهد الاستعمار، فإن قصتي "الخاتم" و"الغرض" تجريان كلاهما في عهد الاستقلال، ومن السياق العام في القصتين يلاحظ القارئ . في القصة الثانية خاصة . أن لا شيء تغير في حالة الريف الجزائري، فأبو القاسم، الذي عاد إلى قريته الجبلية بعد سنين طويلة لم يجد سيارة تنقله إليها، لأن الطريق غير معبد، واضطر إلى قطع المسافة ماشيا، ولم يصلها إلا في ساعة متأخرة من الليل، وللسبب نفسه فإن العروس في هذه القرية مازالت تحمل إلى بيتها على ظهر حصان. هذا من حيث المحيط الطبيعي للقرية، أما ما تغير فيها فهو أخلاق الناس وتصرفاتهم وسلوكهم، بتأثير من عقلية المدينة التي نزح إليها الكثير من أهلها، وتغيرت أحوالهم المادية، وتغير معها سلوكهم، هذا ما عبر عنه الكاتب في أجواء اللقاء الذي جمع ثلة من الأصدقاء في قصة "الخاتم". اجتمع الأصدقاء في بيت أحدهم، وكان لديهم جميعا الرغبة في نسيان الحاضر المثقل بالمشاغل وهموم الوظيفة والمنصب، ومحاولة إحياء

ذكريات الماضي البعيدة عن الهموم: (..التقوا لأول مرة بعد حوالي عشر سنوات، كانت قد فرقت بينهم خلالها طبيعة الوظيفة وظروف العمل، ومشاغل الحياة الحديثة ... وقد حرصوا أن يضم المجلس أغلبهم على الأقل، فهم يريدون أن ينسوا حاضرهم المضني، ويستعيدوا ذكريات ماض انفصلوا عنه منذ عهد بعيد، ويقيموا عيدا للمحبة التي كانت تؤلف بين قلوبهم آنئذ ..)[1]. ومع الذكريات جاءت فكرة "لعبة الخاتم" التي كانوا يلعبونها أيام زمان، وكانوا يجدون فيها متعة لا مثيل لها، بسبب ما كان يتخللها من مزاح وضحك. لكن اللعبة في هذه المرة لم تعد بريئة كما كانت من قبل، فقد أصبحت تعاليق صديقهم بن زايد . الذي كان أبرعهم في هذه اللعبة . تحمل معاني ودلالات تمس وضعهم الاجتماعي والوظيفي، حتى وإن كان بن زايد لم يقصد ذلك*، وحتى وإن استعمل القاموس نفسه الذي كان يستعمله قبل اليوم، وتعود الناس على سماعه وعلى استعماله في هذه اللعبة. فعبارة "هذه تلعب وهذه تلعب " التي يرددها طالب الخاتم وهو يضرب على قبضات اللاعبين الممتدة إليه، بحثا عن أيها تخفي الخاتم، صارت تحمل في هذه المرة معنى الغش في اللعب، والنفاق في التعامل مع الآخرين، وتساوي الجميع في الانتهازية، سواء لعبوا لعبة اليمين أم اليسار، ويؤكد هذا المعنى قول بن زايد (.. هذه اليد تلعب، وهذه تلعب .. اليمين واليسار يد واحدة)[2]. ويضيف بن زايد قائلا: (قل لي يا رفيق، كنت في صفي في تلك الأيام،

1. الطريق الفضي، قصة "الخاتم " ص130 .
* خاصة أنه الوحيد من بين الأصدقاء المجتمعين الذي لم يتغير حاله، وظل شعبيا في مسكنه وملبسه وكلامه .
2. الطريق الفضي، قصة "الخاتم " ص135 .

وأنت اليوم تلعب في الصف الآخر)[1]. وهكذا تفقد اللعبة حرارتها، ويقف الحاضر، بما طرأ على اللاعبين من تحولات كبرى، حائلا دون لم الشمل من جديد، ودون الاستمتاع حتى بمجرد استعادة الذكريات المشتركة.

ونلاحظ هنا بروز عنصر الرمز لدى الكاتب، وميله إلى اللعب بالكلمات، لتأخذ معاني وإيحاءات ذات دلالات متعددة، وهو ما نلمسه بشكل أوضح في القصة الموالية، قصة "الغرض"، حيث تتخذ العروس فيها أبعادا أكبر من مجرد امرأة يتنافس عليها العرسان من قبيلتين مختلفتين، وإنما تصبح قيمة رمزية أشمل، تحمل معاني متعددة، مثل معنى السلم والحرية والتعايش مع الآخرين. لقد جاءت المصاهرة بين القبيلتين المتخاصمتين كنوع من المصالحة بين الطرفين، بعد أن قتل رجل من "بني رغدة" عن طريق الخطإ رجلا من قبيلة "بني مطلوع"، لكن المصالحة عرفت آخر امتحان لها وأصعبه حين وصلت العروس إلى حدود القبيلتين، إذ كان على أهل العريس (بني رغدة) أن يسقطوا بطلقة بندقية "الغرض"، أو الحجر، الذي أقامه بنو مطلوع على الحدود، وكان ذلك تحديا كبيرا للقبيلة الأخرى التي كان عليها أن تسقط الغرض وإلا لحق العار برجالها المحاربين إلى أبد الدهر. وهكذا يتخذ الغرض بدوره، أو الحجر المنصوب على الحدود، أبعادا رمزية، مثله مثل اسمي القبيلتين اللتين اتخذت اسميهما من بعض أنواع الخبز*. إن توظيف الكاتب للرمز بهذا الشكل، والتلاعب بالألفاظ، يعد

1. قصة "الخاتم" الصفحة نفسها.
* خبز الرغدة يصنع من الذرة السوداء وهو خبز الفقراء والمطلوع يصنع من طحين القمح الأبيض وهو خبز الأغنياء، وكلتا اللفظتين من العامية الجزائرية.

ملمحا فنيا جديدا لديه، بدأ استعماله في قصص هذه المجموعة، وسيبرز عنده بشكل أقوى في مجموعته اللاحقة "الطعام والعيون"، وهو ملمح يشير إلى التطور الذي سيعرفه الكاتب بعد نشره لهذه المجموعة، حيث شكل توظيف الرمز مؤشرا على بداية التخلص من الواقعية الشديدة التي طغت على قصصه السابقة **، من جهة، كما شكلت من جهة أخرى ظاهرة التلاعب بالألفاظ مؤشرا على بداية تحوله نحو كتابة "الصور السلوكية" ***.

4. الطعام والعيون

صدرت في طبعة مشرقية ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق سنة 1998، وفي طبعة جزائرية عن مؤسسة الفنون المطبعية بالجزائر سنة 2001. تتكون من أربع عشرة قصة، كتبت في أوقات متفرقة يرجع أقدمها، وهي قصة "الطعام والعيون" التي اختارها الكاتب عنوانا للمجموعة إلى سنة 1975، ويرجع أحدثها، وهي قصة سياج البنفسج، إلى سنة 1996. لكن يوجد من ضمنها أربع قصص لا تحمل تاريخ كتابتها، وهي "البركة" و"وجوه من سحاب" و"حماية الضمير" و"السنجاب"، وإذا كانت موضوعات القصص الثلاث الأولى المذكورة لا ترتبط بظروف زمنية محددة أو بأحداث معينة تسمح بضبط زمنها فإن القصة الأخيرة تنقل بشكل واضح أجواء الاغتيالات التي طالت العديد من المثقفين والصحفيين في السنوات

** كما طغت على قصص معظم كتاب جيله طوال سنوات الستينيات والسبعينيات .

*** مصطلح "الصور السلوكية" هو من اقتراح أحد أصدقائه عليه، كما صرح بذلك ذات مرة في ندوة خصصت له باتحاد الكتاب في نوفمبر 1997، وأدارها كاتب هذه السطور، غير أنه لم يفصح عن اسم صديقه الذي اقترح عليه الاسم.

الأولى من عشرية الدم، أي أنها كتبت ما بين 1993 و 1995. وبطل هذه القصة هو المؤلف نفسه، الذي عانى هاجس الاغتيال الأعمى مثل ما عاناه كل المثقفين ومن لا يملكون إلا سلطة الرأي والكلمة. ونجد ضمن المجموعة قصتين أرخ لهما المؤلف بتاريخين متباعدين، ودون ذكر لليوم أو الشهر، وهما "الدوارة" التي أرخ لها بـ "1994/75" و"سياج البنفسج" بـ "1996/76" مما يعني أنه بدأ كتابتها في منتصف سنوات السبعينيات، ثم انصرف عنها، ليعود إليها في سنوات التسعينيات فيكملها ويضمها إلى قصص المجموعة. وهذا التباعد الزمني الكبير بين القصص، الذي تجاوز العشرين عاما أحيانا، كان له أثره الواضح في تنوع موضوعات قصص المجموعة، وفي تباينها على المستوى الفني، مما أوجد نوعا من عدم الانسجام في عوالمها القصصية.

وبالرغم من هذا التنوع الشديد فإن قصص هذه المجموعة هي في نظري أقرب القصص إلى ذات الكاتب من أية مجموعة أخرى سابقة، فنحن نستطيع أن نكتشف فيها شخصه في مختلف المواقف والمواقع، ونرى فيها صفحات كثيرة من حياته التي نعرفها، أو التي حدثنا عنها، وأولها ذكرياته الشخصية حين كان طالبا في النمسا في أواخر الخمسينيات، ومنها مغامراته الغرامية، وكذلك حين عاد في أواخر الستينيات إلى الجزائر، والظروف الصعبة التي مر بها، يظهر لنا ذلك بالخصوص في قصص "الغزال" و"وليمة في مغارة"، و"دفاعا عن الوطن"، كما نستطيع أن نتبين شخصية الكاتب أثناء تأديته لوظيفته بالجامعة المركزية بالعاصمة، وخاصة حين كان

مديرا لمعهد الآداب، وهو المنصب الذي شغله طيلة 11 عاما، ولفترتين: من سنة 1975 إلى 1981 ومن 1984 إلى 1988، نجد ذلك في قصتي "ضريبة الشحن" و"الدوارة". وتتجلى لنا في هذه المجموعة أيضا شخصية الكاتب المبدع وما يعانيه من صعوبات في بلد آخر ما يفكر فيه هو الفن والأدب، وهذا ما يجعل الفنان يعيش في غربة حقيقية في بلده وبين أهله، وعبر عن هذا الجانب في قصص "الصك الأزرق" [1] و"لعنات على أعواد الكوخ" [2] و"وجوه من سحاب" [3]، وقد عبرت كل هذه القصص عن مرارة كبيرة لدى الكاتب، ومعاناة حقيقية عاشها طوال ما يزيد عن أربعين عاما.

ومن هنا فإن هذه القصص كلها تشكل إلى حد بعيد ما يشبه المذكرات الشخصية للكاتب، ولا يمنعها من أن تكون كذلك تماما إلا عملية "التجميل" . إن صح التعبير . التي يستعملها لكي يضفي عليها طابعا قصصيا، وكذلك عملية التمويه التي يلجأ إليها في تغيير أسماء الأشخاص والأماكن، وأحيانا التواريخ، ومحاولته . إلى جانب ذلك . فلسفة الموضوع المعالج وتجريده من الطابع الذاتي، وهذه كلها وسائل شائعة في أعمال القصاصين والروائيين.

لكن هذا لا ينفي وجود قصص ضمن المجموعة تتطرق إلى موضوعات ترتبط بالوضع العام للجزائر في فترات مختلفة من عمر الاستقلال، مثل ما رأينا من قبل في المجموعات السابقة، ويتجلى هذا

1. تتعلق بالحقوق المزرية للمؤلف في الجزائر .
2. تعالج معاناة المبدع في المجتمع وتمزقه بين الهم الفكري والمطالب الاجتماعية الملحة.
3. تشكل تكاملا مع القصتين السابقتين .

بالخصوص في قصتي "الطعام والعيون" و"ضارب الرمل" اللتين تنتميان من الناحية التاريخية ومن الناحية الفنية على السواء إلى القصص الرمزية التي وقفنا عندها في آخر مجموعة "الطريق الفضي" [1]، وتنتقد الأولى بشكل رمزي زيارة الرئيس الفرنسي "جيسكار ديستان" للجزائر سنة 1975 التي لم ير فيها الكاتب محاولة لطي صفحة الماضي، كما قيل عنها في ذلك الوقت، ولكن رأى أن محركها الحقيقي هو البترول والغاز الجزائري. وتنتقد القصة الثانية سياسة الرئيس بومدين الاستبدادية*، وتتهمه بتنكره للثقافة العربية التي يحملها، وللغة العربية. يقول ضارب الرمل، موجها خطابه إلى "غصاب" الذي يقف أمامه: (ورحت تستعمل وظيفتك في قمع الكثير ممن يتعامل معك، وفيهم الزميل والصديق والأخ والرفيق . تقول إصبعي إنك تنكرت وتتنكر حتى لمن يجمعك بهم منبع ثقافي واحد)[2].

ولا تختلف قصة "الغزال" في أسلوبهما الرمزي عن القصتين السابقتين إلا بكون الرمز فيها غير موغل في الغموض، بل هو تقليدي معروف، مثل تعلق البطل في قصة "الغزال" بالفتاة السمراء ذات الملامح الشرقية، التي ترمز إلى اللغة العربية، رمز الانتماء [3]، وتفضيله لها على الفتاة الشقراء التي وصفها بـ"ذات العيون الفرنسية" التي ترمز إلى اللغة الفرنسية. أما "وليمة في مغارة" التي كتبت في السياق نفسه، وبلغة شعرية غاية في

1. كتبت كلاهما في أواخر سنة 1975 .
* دون أن تذكره بالاسم بطبيعة الحال، ولكن أوصاف الشخصية، وملامحها تنطبق على الرئيس بومدين .
2. قصة "ضارب الرمل" ص20.
3. قصة "الغزال" ص 43 .

الأناقة، وبرمزية أكثر شفافية فإن موضوعها بدوره صار تقليديا في الأدب العربي، وأعني به لقاء الشرق بالغرب، وهذا بعد أن كتب فيه أشهر الكتاب العرب المحدثين أمثال توفيق الحكيم ويحي حقي وسهيل إدريس والطيب صالح وغيرهم. وتبقى هذه القصة من أجمل ما كتبه أبو العيد دودو، ومن أكثرها شاعرية ورقة وإنسانية.

ولا تخرج قصة "الدوارة" عن سياق الذكريات أو المذكرات الشخصية للكاتب، ولكنها تتعلق بمرحلة أحدث، أي بمرحلة السبعينيات والثمانينيات حين كان أستاذا ثم مديرا لمعهد الآداب . كما سبقت الإشارة . ونلحظ بعد قراءة القصة أنه يقصد "الإدارة"، جريا على عادته في التلاعب بالألفاظ فقلب الاسم فصارت "الدوارة" بما توحي به من معاني عديدة *، فهذه القصة تلخص زهده في تقلد المسؤولية، بل وخوفه منها، وضيقه من قيودها والتزاماتها. يقول معبرا عن هذا: (كان يخاف الإدارة خوفا شديدا .. كان يخشى مشاكلها الكثيرة، ورتابة أعمالها، وكثرة اجتماعاتها، وأعبائها الكبيرة)[1]. ويضيف في مكان آخر: (كان أكره شيء إلى نفسه المناصب الإدارية الجوفاء وما يتبعها من مظاهر فارغة .. تفرغ من يتقلدها من محتواه إن كان له محتوى، ومن شأنها أن تشغل مثله عن عالمه المفضل، عالمه الفكري والأدبي، تشغله عن كتبه وإنتاجه العلمي والفني. كان يعتقد أن سطرين يكتبهما في بحث أو دراسة أدبية أكثر فائدة لوطنه من زاوية تصوره

* مثال ذلك ما توحي به من معنى الدوران في مكان واحد، ومعنى الرتابة والتكرار، كما يمكن أن تعني "الدوارة" بالعامية أي انتفاخ الكرش بالنسبة لمن يقضون سنوات في الإدارة بسبب الجلوس الطويل وعدم الحركة إلى غير هذا من الإيحاءات التي تحملها هذه الكلمة .

1. قصة الدوارة في مجموعة "الطعام والعيون" ص84 .

له من عشرة أيام يقضيها في الأعمال الإدارية التافهة)[1]. وحديثه هنا عن عالمه الفكري والأدبي، وعن كتبه وإنتاجه العلمي والفني لا يدع مجالا للشك . عند من يعرفه معرفة جيدة . أن الكاتب يتحدث عن نفسه.

وليس هذا وحده أسوأ ما في الإدارة . كما يراه . فهناك أسلوب تعامل الرؤساء فيها مع المرءوسين، الذي لا يقبل المراجعة ولا المناقشة، ولا حتى مجرد محاولة الفهم. قال له رئيسه المباشر حين سأله عن عدم استشارته في تعيينه (نحن لا نستشير أحدا.. نحن نعيِّن .. اقبل واسكت .. هكذا الأمور تسير)[2]. أما اتخاذ المبادرة من قبل الموظف فيعد في عرف الإدارة جريمة. قال له المسؤول ذاته، كأنه يحذره من مغبة التدخل فيما لا يعنيه: (لا تفعل شيئا .. دع الأمور كما كانت تسير).

وهناك، من جهة أخرى، ضغوط المحيط المباشر من العمل الروتيني اليومي، ومن الاجتماعات والمقابلات، ومن مطالب الموظفين الذين يشاركونه مسؤولية الإدارة، ومن الزملاء الأساتذة في هيئة التدريس، ومن الأصدقاء والمعارف الذين يريدون الوساطات وقضاء الحاجات، فإذا اعتذر لهم عن بعضها، لأنها غير قانونية أو غير أخلاقية أحيانا وتسبب له الحرج اتخذوا منه موقفا عدائيا [3]. وكل هذا شكل عبئا كبيرا عليه تحمله طوال سنين عديدة بصبر جميل*.

---

1. الدوارة، ص 85 .
2. الدوارة، ص 82 .
3. نفسها، ص 91 .

* كانت الاستقالة في الفترة التي تقلد فيها الكاتب منصبه غير مسموح بها، وتفسر بأنها موقف سياسي معارض، ولم يكن اتخاذ مثل هذا الموقف أمرا هينا آنذاك، وقد قال له من جاءه بقرار التعيين بصريح

وبعد، لعلني أكون قد انسقت كثيرا في محاولتي البحث عن أبي العيد دود الكاتب والإنسان في قصصه، أو ما عبرت عنه بـ"النظر في المرآة"، ولعلني أكون قد بالغت في الربط بين حياته الشخصية وبين أبطال قصصه. وهو الاتجاه الذي لا يحبذه النقد الحديث. ومهما يكن الأمر فإن لدي اقتناعا تاما، بحكم الاطلاع، وبحكم التجربة، أن الأديب حتى وإن كتب عن الآخرين، وكان بارعا في صرف النظر عن ذاته، وفي الإمعان في إخفاء نفسه خلف شخصياته القصصية أو الروائية أو المسرحية، فإنه في نهاية الأمر لا يكتب إلا عن نفسه، ولا يمتح إلا من رصيد تجربته، ولا يعبر إلا عن أفكاره ومشاعره، وكل ما هنالك أنه يشترك مع الآخرين في تلك المشاعر وفي تلك التجارب، فتتداخل التجربة والمشاعر الشخصية بتجارب الآخرين ومشاعرهم، وتنمحي الحدود فيها بفعل سحر الفن بين الخاص والعام، والذاتي والموضوعي. ولهذا أدعو، بهذه المناسبة، أصدقاء أبي العيد دود ومحبيه وتلاميذه إلى إعادة قراءة أعماله، أو بالأحرى إعادة اكتشافها، وبالخصوص إعادة اكتشاف أعماله القصصية، وصوره السلوكية بأجزائها المتعددة، فعن طريق هذه القراءة الاستكشافية يمكن لنا إدامة التواصل مع روحه، والوفاء لذكراه، والإحساس أننا في حوار معه مثل ما كان ذلك وهو على قيد الحياة. وفي جميع الأحوال، سيظل أبو العيد دودو ماثلا في قلوب

العبارة : ((هذا أمر وزاري، والوزارة لا تقبل الازورار، وإلا عد ذلك عصيان)) ثم أضاف محذرا : ((لا تنسى العصيان، فهو مناهضة للسلطة)) راجع قصة الدوراة ص81،82 . ولا شك أن الكاتب قد وضع مثل هذا التحذير في الحسبان حين قبل المسؤولية رغم كرهه لها .

كل من عرفوه عن قرب من تلاميذه وأصدقائه وزملائه، ويظل معلما فكريا بارزا في صرح الثقافة الجزائرية، ومنارة مضيئة في سماء الأدب الجزائري.

أبو العيد دودو والأدب المقارن
في الجزائر

أ. د. عبد المجيد حنون / جامعة عنابة

1 – مقدمة :

منذ ما يربو على القرن، تعجب محمد روحي الخالدي أثناء وجوده بفرنسا، من احتفالات الأمة الفرنسية بالذكرى المائوية لميلاد شاعرها فيكتور هوجو (VictorHugo)، وبعد تفكير وتمعن في الاحتفالات ومظاهرها ومغازيها أدرك أن الفرنسيين : «يتهافتون على تعظيم رجال العلم والأدب ويبالغون في إجلالهم حتى كادوا يعبدونهم من دون الله ويتنسكون في ادخار آثارهم وجمع مناقبهم وحفظ أخبارهم ورفع الهياكل والتماثيل والأنصاب لهم »[(1)]، وعقد العزم على الإسهام في تلك الاحتفالات بكتابة مقالات عن فيكتور هوجو وعن الأدبين العربي والفرنسي وصلتهما ببعضهما البعض في

العصور الوسطى تقديرا منه لشاعر فرنسا العظيم وتحفيزا لبني قومه علّ وعسى[2]...

وبعد أزيد من قرن كامل، تكاد دار لقمان تبقى على حالها، فالأمم المتحضرة تزداد تحضرا وتألقا برعايتها لعلمائها ومثقفيها ومبدعيها أحياء أو أمواتا، والأمم المتخلفة تزداد تخلفا بتهميشها لعلمائها ومثقفيها ومبدعيها أحياء ونسيانهم أمواتا، وكأنها لا تدرك أنها بفعلها ذاك تطفئ بنفسها الشموع التي تحترق من أجل أن تضيء لها الطريق !! ويبدو لي أن المرحوم الدكتور أبا العيد دودو خير مثال على ذلك في بلدي، فقد سلخ من عمره أكثر من ثلاثين سنة بين تكوين الطلبة في مختلف المستويات، وكتابة المقالات والأبحاث المعرفية، وكتابة مختلف الأجناس الأدبية والإبداعية لإمتاع القارئ، وترجمة نصوص أدبية إبداعية ومعرفية عالمية تنمي الذوق وتثري العقل. قام بكل ذلك في ظروف لا أعتقد أن أحدا يحسده عليها. ولولا بذرة خير ووفاء تمثلت في رجال ونساء قلائل لما علم أحد بوفاته، ولما عرف شيئا من التقدير والاعتبار الذي هو أهل لأكثر منهما، ولما خصه المجلس الأعلى للغة العربية بعدد خاص من مجلته التي كان المرحوم علامة بارزة في هيئة تحريرها.

ووفاء مني، ونظرا إلى صلتي العلمية والإنسانية بالمرحوم، عزمت على الإسهام في هذا العدد الخاص من المجلة بما تيسر، ولا أزعم أنه بحث علمي أكاديمي، وإنما هو مزيج من الانطباعات والمعلومات التاريخية والاستنتاجات التي لملمتها في عجالة عن المرحوم علها تكون منطلق

أبحاث ودراسات أرصن وأعمق مني أو من غيري، وسأركز الاهتمام في هذه الورقات على الأدب المقارن في الجزائر ودور الدكتور دودو في ترسيخ هذا الحقل الأدبي المعرفي، وتوجيهه علميا في جامعة الجزائر، ومنها إلى بقية الجامعات الجزائرية أولا، ثم عن طريق المقالات العلمية التي أثار فيها قضايا مقارنية، وعن طريق ترجماته العديدة التي فتح بها نوافذ الآداب العالمية أمام عموم القراء ثانيا؛ فهل يعني هذا أن الجزائر كانت خلوا من الأدب المقارن قبل ظهور الدكتور دودو في رحاب جامعة الجزائر وعلى صفحات المجلات؟.

2 – الأدب المقارن في الجزائر :

ظهر الأدب المقارن في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بفرنسا نتيجة تظافر عدة عوامل عرفتها أوروبا عموما بعد العصور الوسطى مثل التخلص من النزعة الشمولية الإقصائية التي مرت بها الكثير من الحضارات قديما والانخراط في النزعة الفردية داخل المجموعة البشرية بفعل فلسفة التنوير وتجسدها في النزعة القومية سياسيا، وظهور المطبعة التي ثبتت النصوص الأدبية ويسرت انتقالها، وتأسيس التعليم المدني عموما وتعليم اللغات الأجنبية على وجه الخصوص، وسيادة منهج المقارنة في العديد من التخصصات العلمية...

وبعد عقود من الممارسة التعليمية والثقافية الحرة، والانتشار في العديد من أنحاء أوروبا، أصبح الأدب المقارن – أواخر القرن التاسع عشر

– تخصصا علميا يتوفر على أهم مقومات الثبات والتطور والانتشار حيث خصصت له كراسي جامعية في أشهر الجامعات الأوروبية، وأنجزت فيه أطروحات جامعية، وظهرت مجلات علمية متخصصة في الأدب المقارن، فأصبح وقتذاك في أوروبا، ثم في أمريكا، ضرورة علمية لا غنى عنها لدراسة الآداب وفهمها وتذوقها، وأصبح الأدب المقارن وسيلة علمية هدفها الظاهر البحث في العلائق الذوقية والوجدانية والروحية التي تربط الشعوب ببعضها البعض أو تقرب فيما بينها على الأقل، أما الأهداف الخفية فتختلف باختلاف أصحابها[3].

وفي تلك الفترة بالذات لم تكن الجزائر تتوفر على مقومات نشأة الأدب المقارن، فهي لم تكن حرة في تنظيم شؤونها بسبب الاستعمار الذي كان يعمل جاهدا على إخماد أنفاسها وإلغاء وجودها، بما في ذلك الوجود اللغوي والأدبي والمعرفي، وذلك ما جعل الجزائر – فيما يبدو – لا تنتبه أصلا لنشأة الأدب المقارن وانتشاره وأهميته في الحياة العلمية. ولكن الاستعمار الفرنسي كان يعمل جاهدا على ترسيخ وجوده في الجزائر من خلال عملية استيطان شملت مختلف اوجه الحياة بما في ذلك العلمية، الأمر الذي جعله يجمع سنة 1909م عدة مؤسسات تعليمية عليا في مؤسسة واحدة حملت اسم جامعة الجزائر لتكوين أبنائه وأخلص المخلصين من أبناء البورجوازية الجزائرية التي كانت تتأرجح بين الاستعمار بسبب مصالحها المادية وبين الأهالي بسبب دينها وعاداتها وتقاليدها؛ فكانت جامعة الجزائر من الناحية العلمية امتدادا للجامعة الفرنسية من حيث

أهدافها ومقرراتها، وكانت لغة التدريس فيها اللغة الفرنسية حتى في أقسام اللغات الأجنبية بما في ذلك اللغة العربية التي كانت تعد لغة أجنبية، وتدرس من منظور استشراقي[4].

وقد يوحي هذا الوضع للبعض بأن الجزائر عرفت الأدب المقارن مع تأسيس جامعة الجزائر، على اعتبار أنها امتداد للجامعة الفرنسية، وأن القلة القليلة من الجزائريين الذين تمكنوا من التسرب إليها عرفوا ما توصلت إليه المدرسة الفرنسية من نتائج علمية في الأدب المقارن فور تأسيس جامعة الجزائر، فهل واقع الأمر كذلك ؟

كان تدريس اللغة العربية في مختلف الجامعات الفرنسية، بما في ذلك جامعة الجزائر قبل الاستقلال، يتم باللغة الفرنسية، وينحو منحى استشراقيا من حيث أهدافه العلمية وطرقه التعليمية ووسائله، فضلا على أن وضع اللغة العربية وآدابها في ذهن المسؤولين الفرنسيين لم يكن وضعا عاديا، وهذا ما جعل قسم اللغة العربية في جامعة الجزائر لا يصبو – قبل الاستقلال – إلى التسلح بالمبتكرات المعرفية التي أصبحت تزين أقسام اللغات والآداب المختلفة.

وعلى الرغم مما سبق ذكره، فإن روح الأدب المقارن الإنسانية وأصداء ما يتعلق به من نشاطات جامعية في فرنسا قد تسربت إلى الجزائر بوساطة الصحافة والإعلام وانفتاح السوق الجزائرية أمام الكتاب الفرنسي، ثم بوساطة نشاطات قسم اللغة الفرنسية في جامعة الجزائر وانفتاحه على

الدراسات الأدبية الكلاسيكية المقارنة، فظهرت في الفترة الممتدة من تأسيس جامعة الجزائر إلى الاستقلال أسماء قليلة جدا لدارسين جزائريين يصعب أن نعدهم مقارنين إلا أنهم تمتعوا بنزعة إنسانية في دراسة الأدب تقربهم من الأدب المقارن، أو باهتمامات مقارنية قد لا ترقى إلى الدرس الأدبي المقارن بمفهومه العلمي، إلا أنها اهتمامات بالعلائق اللغوية أو الأدبية أو بالتشابه والاختلاف بين الظواهر الأدبية، وأوضح مثال على ذلك :

أ) – الدكتور محمد بن أبي شنب (1869م–1929م)؛ خريج مدرسة المعلمين ببوزريعة سنة 1988، عمل سنوات في التعليم الابتدائي، ثم معلم عربية بعدما نال شهادة العربية من مدرسة الجزائر سنة 1894، اجتهد في تعلم عدة لغات كالتركية واللاتينية والإسبانية والألمانية...الخ فضلا عن الفرنسية والعربية، كما درس المعارف العربية اللغوية والشرعية وأظهر مقدرة فائقة في التحصيل، الأمر الذي خول له أن يصبح عضو هيئة التدريس في المدرسة الكتانية بقسنطينة، ثم في المدرسة الثعالبية بالعاصمة، وفي مؤسسات تعليمية أخرى. وفي سنة 1908 عين أستاذا محاضرا في جامعة الجزائر، فكان يحاضر في علوم اللغة العربية وآدابها وينشر المقالات في المجلات الفرنسية، حيث حرر قرابة ستين دراسة معظمها بالفرنسية، وشارك في تحرير مقالات بدائرة المعارف الإسلامية، ونشر كتبا تراثية مثل ديوان "أبي دلامة" وديوان "امرئ القيس"، وألف كتبا مثل "تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب"، وكتابه "أمثال المغرب العربي" في ثلاثة أجزاء، كما ألف معاجم عديدة، وترجم العديد من النصوص العربية إلى الفرنسية، وشارك في

العديد من التظاهرات العلمية في مختلف أنحاء العالم، وفي سنة 1920 انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق فنشر دراسات في مجلته وراسل البعض من أعضائه. وبعد نيله درجة الدكتوراه سنة 1920م من جامعة الجزائر برسالة عن أبي دلامة شاعر العباسيين، وبرسالة تكميلية عن الألفاظ الفارسية والتركية المستعملة في لغة أهالي الجزائر، عين سنة 1924م أستاذا في جامعة الجزائر، فكان الجزائري الأول والوحيد الذي حمل هذا اللقب[5].

يعد محمد بن أبي شنب حلقة رابطة بين النموذج التقليدي في التعليم العربي وبين النموذج التعليمي الفرنسي المدني. فقد كان ملما بالتراث العربي لغة وأدبا وفقها، ومتفتحا على لغات وآداب أخرى، فكان يشبه في كثير من نشاطاته التعليمية، وفي كتاباته وتحقيقاته ومترجماته أولئك الرواد العرب الذين عملوا على انفتاح العقل العربي على الآخر كما هو الشأن مع رفاعة الطهطاوي رغم اختلاف الظروف بينهما.

وبناء على ما سبق ذكره يكون محمد بن أبي شنب مستشرقا قبل كل شيء. إلا أنه كان أول أستاذ جامعي جزائري من جهة، متعدد اللغات من جهة ثانية، درس الأصول الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانته في بحث بالفرنسية طبعه سنة 1919م، وبحث في أصول العديد من القضايا اللغوية والأدبية، فكان بذلك بداية الانفتاح على الغير حتى وإن كان من الصعب أن نعده مقارنا.

ب) – سعد الدين بن أبي شنب (1907–1968) : هو ابن الشيخ محمد بن أبي شنب، سالف الذكر، تخرج من الجامعة بشهادة الليسانس في الآداب الكلاسيكية باللغة الفرنسية، وكان ملما باللغات الإغريقية واللاتينية والعربية، عمل في التعليم الثانوي أستاذ لغة فرنسية في عدة مؤسسات تعليمية في الجزائر، وفي تونس بعد هروبه من الحكم عليه بالسجن أثناء الثورة. وإلى جانب التدريس كانت له اهتمامات معرفية تنحو منحى إنسانويا مقارنيا حيث نشر في مجلات فرنسية مقالات ودراسات أدبية عالج فيها قضايا تندرج ضمن مجال العلاقات الأدبية المتبادلة والمصادر والتأثير والتأثر فدرس مصادر المنفلوطي، وأثر الفكر الفرنسي في الشرق العربي الحديث وعوليس في مملكة سبأ، وأثر الفكر الإنساني الإغريقي في الشرق العربي الحديث...الخ [6].

وبما أن الطبيعة تكره الفراغ، ونظرا إلى اهتماماته المعرفية في ميدان الأدب وإلمامه بعدة لغات انتقل في سنة 1962 – فور عودته من تونس – إلى الجامعة الجزائرية مدرسا ليعين بعد سنة أستاذا محاضرا وينتخب عميدا لكلية الآداب والعلوم الإنسانية حتى وفاته.

وفضلا عن دراساته ومقالاته التي كان البعض منها دراسات مقارنية، فقد اهتم سعد الدين بن أبي شنب خلال السنوات الست التي قضاها عميدا لكلية الآداب بالأدب المقارن فكان أحد مؤسسي كرسي الأدب المقارن في جامعة الجزائر سنة 1963م وجمعية الأدب المقارن الجزائرية سنة 1964م، ومجلة الأدب المقارن الجزائرية (1964–1968). ورغم جهوده واهتماماته

إلا أن قدراته المعرفية في اللغة العربية كانت محدودة جدا، ولم يكن يتمتع بمستوى علمي يمكنه من التكوين في الأدب المقارن، وبالتالي بقى جهده في الأدب المقارن محدودا لا يتعدى النقل من النظام التعليمي الفرنسي إلى النظام التعليمي الجزائري بعد الاستقلال الذي كان في واقع الأمر مجرد امتداد للنظام الفرنسي.

غداة الاستقلال، وانسحاب جل الكفاءات الفرنسية وجد المسؤولون الجزائريون أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه في تسيير بلد يفتقر إلى كل شيء. وأمام هذا الوضع تولت مجموعة قليلة جدا من الأساتذة الجزائريين الشبان بمساعدة مجموعة قليلة أيضا من الفرنسيين الذين لم يغادروا الجزائر تأسيس كرسي الأدب المقارن سنة 1963 في جامعة الجزائر، والوحيدة وقتذاك. وفي السنة الموالية (15 نوفمبر 1964م) أعلن في كلية الآداب عن تأسيس الجمعية الجزائرية للأدب المقارن، وكانت مفتوحة – حسب قانونها التأسيسي– لكل مهتم بالأدب المقارن تدريسا أو بحثا داخل الجزائر أو خارجها، وكان مكتبها مفتوحا أمام أساتذة أقسام اللغات، بما في ذلك قسم اللغة العربية في جامعة الجزائر. وقررت الجمعية إصدار مجلة جزائرية في الأدب المقارن حملت اسم : « دفاتر الأدب المقارن الجزائرية، Cahiers Algériens de Littérature Comparée ». صدر منها ثلاثة أعداد بمعدل عدد كل سنة كان آخرها سنة 1968م.

ترأس جمعية الأدب المقارن الجزائرية ومجلتها الأستاذ الشاب جمال الدين بن الشيخ وساعده في تلك الحركة العلمية أساتذة شبان جزائريون

أمثال : سعد الدين بن شنب، وشريط، وحماط، وابن واعمر، ولكحل، والمرحوم محمد الصغير بناني، ومحمد الصالح دمبري، وكانوا جميعا مدرسين شبانا في بداية حياتهم العلمية والمهنية، ينتمون إلى أقسام اللغات الأجنبية، كما ساعده أساتذة فرنسيون قليلون أبرزهم : ل.بورتيي L. Portier، ثم والتر E. Walter[7].

ويتضح من دراسة ما نشر في مجلة الجمعية، أن جمعية الأدب المقارن الجزائرية كانت امتدادا لجمعية الأدب المقارن الفرنسية أو مجرد تقليد لها، فقد كانت تنحو منحى استشراقيا من حيث محتوى نشاطها العلمي وتفتقر إلى الأصالة، ويكمن فضلها الأساس وفضل مؤسسيها في تأسيس كرسي الأدب المقارن، وفي فتح هذا الأفق العلمي أمام قسم اللغة العربية وآدابها حيث أصبح طلبة اللغة العربية وآدابها مطالبين بالحصول على شهادة الأدب المقارن مع بقية الشهادات لنيل درجة الليسانس التي لم تتخلص من الطابع الاستشراقي الفرنسي وتتعرب تماما إلا مع إصلاح التعليم العالي.

وهكذا عرفت جامعة الجزائرما بين 1962 – 1969 حركة علمية قد تكون محدودة جدا وتتسم بطابع التقليد إلا أنها أدخلت الأدب المقارن إلى مقررات الجامعة الجزائرية بفضل أساتذة شبان اجتهدوا فلهم أجر الاجتهاد على الأقل.

2 – أبو العيد دودو والأدب المقارن في الجزائر :

نظرا إلى طبيعة الثورة التحريرية، وإلى القوى الدولية التي ساعدتها، عرفت الجزائر غداة الاستقلال تذبذبا أيديولوجيا، غير أن الوضع بدأ يستقر بعد سنة 1965، وانخرطت الجزائر – لأسباب بعضها موضوعي حتمي والبعض الآخر غير موضوعي – في توجه سياسي واقتصادي وتعليمي وثقافي نعت بالاشتراكي، الأمر الذي جعل الآفاق المعرفية التي قامت عليها جمعية الأدب المقارن الجزائرية ومن أجلها تنسد، فتفرق شمل الجمعية. توفى سعد الدين بن أبي شنب سنة 1968م، وغادر جمال الدين بن الشيخ جامعة الجزائر إلى فرنسا سنة 1969م، وغادر أعضاء آخرون إلى آفاق أخرى، فتوقفت الجمعية عن النشاط.

في هذا الوقت بالذات، وعندما كان البعض من الكفاءات يهجر الجامعة الجزائرية، كان البعض الآخر من الشبان الجزائريين الذين انهوا دراساتهم أو درسوا هنا وهناك شرقا وغربا يفدون على بلدهم الجزائر للإسهام في بناء الوطن، كل حسب تخصصه. وكان الدكتور أبو العيد دودو من هذه الفئة[8]. فقد تخلى عن رغد العيش وعن المناخ العلمي الخصب وعن المغريات المادية وغير المادية والتحق بجامعة الجزائر التي لم يغادرها، رغم كل الصعاب ، حتى وفاته في جانفي 2004م.

قضى المرحوم خمسا وثلاثين سنة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر أستاذا ومديرا ورئيسا للمجلس العلمي، لم يتوقف طيلتها عن العطاء الإبداعي والنشاط العلمي والتعليمي إلا فترة وجيزة جدا هده فيها المرض، سرعان ما راوغه المرحوم مستأنفا نشاطه وكأن شيئا لم يكن !!

ويبدو لي أن نتاجه منذ أن استفحل المرض يفوق كثيرا نتاجه زمن الصحة والعافية ! ويبدو أن تكريم جامعة الجزائر له وإهدائها له جهاز كمبيوتر – حسب ما فهمت منه كان محفزا شحذ عزيمته وأذكى خياله؛ فجزى الله خيرا من كان السبب في ذلك.

وما يهمنا في هذا المقام من نشاطات المرحوم :

أ– التعليم :

سبقت الإشارة إلى أن أول كرسي للأدب المقارن تأسس في جامعة الجزائر سنة 1963م، وأن طلبة قسم اللغة العربية وآدابها أصبحوا مطالبين بشهادة الأدب المقارن لنيل درجة الليسانس، غير أن لغة التدريس في تلك الشهادة كانت باللغة الفرنسية، فضلا عن عدم توفر الكفاءة العلمية عند أولئك الشبان الذين تحملوا مسؤولية تدريس الأدب المقارن وتفرقهم بعد ذلك، فكان التحاق الدكتور دودو بجامعة الجزائر سنة 1969 نعمة علمية، فهو متحصل على أعلى درجة علمية ويتقن اللغة العربية إتقانا تاما، وله معرفة واسعة بآدابها وثقافتها وتاريخها، ويتقن اللغة الألمانية، وله إلمام بلغات أجنبية أخرى، وله اطلاع واسع على الأدب العالمي، وبالتالي تكفل بتدريس الأدب المقارن وما يتصل به من مقررات (مقاييس) كالآداب الأجنبية ونظرية الأدب ... في مرحلتي الليسانس والدراسات العليا.

قد يتساءل متسائل عن سر تكفل الدكتور دودو بتدريس الأدب المقارن أو تكليفه به، رغم انه خريج معهد في الاستشراق، ونال درجة

الدكتوراه ببحث عن مؤرخ عربي هو محمد بن نظيف الحموي وكتابه "التاريخ المنصوري" !!

تتجمع وراء هذا السر عدة عوامل: منها أن قسم اللغة العربية بدأ، منذ السنة الدراسية 1967–1968، ينسلخ من الطابع الاستشراقي أو الاستعرابي الذي كان مفروضا عليه اقتداء بالجامعة الفرنسية، وبدأت المقررات الدراسية تقدم فيه باللغة العربية، وتغيرت طبيعة التدريس فيه، ولم تعد اللغة العربية تعامل فيه – على الأقل– معاملة اللغة الأجنبية، مما جعل الكثير من الأوضاع المعرفية والقانونية تشرع في التغير، خاصة وأن إشارات إصلاح التعليم العالي بدأت تلوح في الأفق، و بدأت الحاجة إلى نوعية جديدة من الأساتذة ذوي المؤهلات تتجلى؛ ومنها أن جل أساتذة القسم – وقتذاك– يفتقرون إلى الشهادات العليا، وإلى معرفة اللغات الأجنبية، الأمر الذي جعل الكثير منهم يتخوف من تدريس الأدب المقارن ويتهرب منه، فضلا على أن الأدب الحق عند الكثير منهم هو الأدب العربي لا غير!؛ ومنها أن الدكتور دودو كان قد احتك في بغداد بثاني أستاذ في الأدب المقارن على مستوى الوطن العربي وقتذاك وهو الدكتور صفاء خلوصي، وقرأ كتابه الشهير : «في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية » الذي طبع في بغداد أواخر الخمسينيات، وبقى المرحوم محتفظا به في مكتبته الخاصة، واطلع على كتاب المرحوم الدكتور غنيمي هلال « الأدب المقارن » الذي كان خلاصة المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، ودرس في فينا على أقطاب الاستشراق الجيرمانيين الذين يتميزون بالدقة العلمية

وبالحياد والموضوعية وبالانفتاح على مختلف ثقافات العالم وآدابه كما هو الشأن مع "موريتز كاريير Moritz Carrière " الذي درس في القرن التاسع عشر الشعر العربي عندما ألف كتابه الشهير : «الشعر، جوهره وأشكاله على أسس تاريخ الأدب المقارن، وأعجب به الدكتور دودو أيما إعجاب، وكان ينوي ترجمته ولكن... كل ذلك، فضلا عن تمكنه التام من اللغة العربية وآدابها، وتمكنه أيضا من اللغة الألمانية التي تعد مفتاحا فعالا للاطلاع على كنوز المعرفة البشرية، وإلمامه بلغات أخرى؛ هذه الأسباب وغيرها مجتمعة جعلت الدكتور دودو يتكفل بتدريس الأدب المقارن وما يتصل به من معارف أدبية في جامعة الجزائر، وينحو به منحى غير استشراقي بحيث جعل الأدب العربي، في دروسه ودراساته، منطلق أية مقارنة ومحورها، ويجمع طلبته بأنه كان أفضل أستاذ في جميع ما درس وفي الأدب المقارن على وجه الخصوص؛ فقد روى لي بعض طلبته أن دروسه كانت لا تمل بسبب شخصيته الجذابة، وأناقته، وروحه المرحة، وسعة معلوماته، ونزعته الإنسانية العالمية. فقد كان يعتمد في دروسه نماذج ونصوصا أدبية من مختلف الآداب قديمها وحديثها، ويكشف كل مرة عن تواصل الفكر البشري، وتطور الأذواق، وبالتالي كانوا يتعلمون ويستفيدون من دروسه باستمرار، ويستمتعون بها في الوقت ذاته. وهذا ما حبب للبعض منهم دراسة الأدب المقارن، أو الخروج على الأقل من النموذج التقليدي في دراسة الأدب العربي وتذوقه القائم على الانغلاق والتعصب..

أ – الإشراف على الرسائل :

أسهم الدكتور دودو في تأطير الدراسات العليا (ماجستير ودكتوراه) منذ تأسيسها، وأثمرت جهوده، حسب ما وصلني من مسؤولي قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر مشكورين، عشرة رسائل أشرف عليها وتمت مناقشتها فعلا هي :

ب1– رسائل ماجستير :

1 – شتوح غنية: تأثير سارتر في أدب سهيل إدريس، 1986م.

2 – نسيمة مسلاتي عيلان : السندباد البحري وأوديسيوس، 1987م.

3 – فاطمة شعبان : شارل بودلير وإلياس أبي شبكة؛ دراسة مقارنة بين أزهار الشر وأفاعي الفردوس، 1990م.

4 – شبال سميرة : أحمد شوقي والمسرح الكلاسيكي الفرنسي، 1993م.

5 – باية خوجة : صورة البحر في روايات حنا مينة، 1996م.

6 – سعاد أوشايت : فولتير وألف ليلة وليلة، 2001م.

ب2 – رسائل الدكتوراه :

1 – عبد الله بن حلي : الفكر الفرويدي وأثره في النقد العربي، 1990م.

2 – عبد المجيد حنون : اللانسونية وأبرز أعلامها في النقد العربي الحديث، 1992م.

3 – عبد القادر بوزيدة : محمد تيمور وغي دي موبسان؛ دراسة مقارنة، 1993م.

4 – حسين أبو النجا : صورة الصهيونية في الرواية الفلسطينية، 2000م.

وبناء على صلتي العلمية الوثيقة بالمرحوم، حيث كان الأستاذ المشرف على بحثي لنيل درجة الدكتوراه، تعاملت معه طيلة سنوات عديدة، وشاركت بعد ذلك في مناقشة البعض من الرسائل السالفة الذكر، واطلعت على البعض الآخر منها لأسباب أخرى، أقول أن المرحوم كان مشرفا يتميز بالدقة المنهجية، وبالصرامة العلمية، والحياد والموضوعية، والتوجه الإنساني في دراسة الأدب وتذوقه. كما كان يتميز بالذوق اللغوي العربي الجميل. وكانت علاقته بطلبته إنسانية طيبة إخوانية خارج البحث العلمي وهذا ما قربه إلى طلبته وحببهم فيه.

وزيادة على ما سبق ذكره، يلاحظ المتمعن في عناوين الرسائل التي أشرف عليها، وتمت مناقشتها، أنها تنتمي في معظمها إلى الدراسات الأدبية المقارنة، لأنها تندرج ضمن ما يسمى في الأدب المقارن بالعلاقات الأدبية الدولية المتبادلة، ولكن بعضها يختلف عن بعض من حيث اهتماماتها المعرفية، فضلا عن توزع أصحابها عبر جامعات مختلفة في التراب الوطني.

وقد يتساءل متسائل عن سبب انتماء جل الرسائل التي أشرف عليها المرحوم إلى حيزين لسانيين اثنين هما الحيز اللساني العربي مقارنا بالحيز اللساني الفرنسي، وهذا دليل آخر على صفات المرحوم العلمية الحميدة، إذ

لم يكن – رغم اهتماماته اللغوية الجيرمانية – يرغم طلبته على دراسة مواضيع معينة، حتى لو كانت تجد هوى في نفسه، وإنما كان يلزم نفسه بمتابعة طلبته وفق قدراتهم وإمكانياتهم وشاءت الظروف أن يكون نصيبه مجموعة من الطلبة لا صلة لهم باللغة الألمانية وثقافتها، فقبل الإشراف على رسائلهم، وقوم لغتهم العربية، وصوب رؤيتهم المنهجية، وفتح أذهانهم على الفكر العالمي، وخفف من تزمتهم الذوقي، لينشر بهم الأدب المقارن عبر المؤسسات الجامعية الجزائرية، وبذلك أحيا بذرة الأدب المقارن في الجزائر ورعاها بعدما هجرها الآخرون.

جـ) – الكتابة في الأدب المقارن :

كتب الدكتور دودو ونشر في ميادين أدبية عديدة منها الإبداعية كالقصة والمسرحية والشعر والخاطرة...الخ، ومنها المعرفية كالدراسات المقارنة حيث كتب جملة من الدراسات والمقالات تندرج في مجال الدراسات الأدبية المقارنة نشر البعض منها في مجلات مثل مجلة "الثقافة" التي كانت تصدر عن "وزارة الثقافة" ومجلة المجاهد الثقافي التي كانت تصدر عن دار المجاهد... وجمع البعض من تلك المقالات في كتاب صدر عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر سنة 1991 بعنوان: «دراسات أدبية مقارنة ». وتدور مجمل مقالات هذا الكتاب في محورين معرفيين اثنين هما:

جـ1 – صور الشعوب في آداب بعضها البعض :

وهو توجه شاع في الدراسات الأدبية المقارنة وانتشر في فرنسا وأوروبا ما بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين؛ أنجزت فيه دراسات أكاديمية وأبحاث عديدة كشف الباحثون من خلالها عن صور الشعوب الأجنبية في آدابهم، أو عن صور شعوبهم في آداب الشعوب الأجنبية، وبقى هذا الميدان من الدرس الأدبي المقارن مجهولا في الوطن العربي لولا عدد قليل جدا من الدارسين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد[9]، على رأسهم الدكتور دودو الذي كرس جزءا كبيرا من وقته وجهده لدراسة صورة الجزائر عند الألمان الذين اهتموا بها كثيرا في القرن التاسع عشر وزاروها، وأقام البعض منهم فيها زمنا محتكا بأهلها ومتعلما لغتها مثل الرحالة والشاعر واللغوي الألماني هاينريش –ف– فون مالتسان الذي كتب عدة مؤلفات عن الجزائر مثل كتابه الشهير «ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا » خصص ثلاثة أجزاء منه للحديث عن الجزائر وأهلها وطبيعتها، ومثل العديد من القصص التي صور فيها الحياة الجزائرية تصويرا دقيقا مثل قصة « مدخنو الحشيش في الجزائر »، ومطولات شعرية مثل حكاية «قبر الرومية »، و « الجزائر »، و « البليدة »و « مازونة » و «رحلة في الصحراء »، وقد ترجم الدكتور دودو كل العناوين السالفة الذكر، واستثمرها في دراسة صورة الجزائر عند الألمان مستعينا بنصوص ألمانية أخرى ترجم البعض منها واكتفى بدراسة البعض الآخر، فكانت حصيلة ذلك كتابه « الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830 – 1850»، الذي نشرته الشركة الوطنية للكتاب بالجزائر، ثم مجموعة مقالات في موضوع صورة الجزائر نشر البعض منها في كتابه «دراسات أدبية مقارنة ». وهكذا قدم

الدكتور دودو إلى القارئ الجزائري نصوصا ألمانية عديدة عن الجزائر، ودرسها، وخلص إلى أن الكتابات الألمانية عن الجزائر والجزائريين كشفت بوضوح غطرسة الاستعمار الفرنسي، وطيبة الجزائريين وبؤسهم؛ ولا شك أن دراسات أدق وأعمق لهذه النصوص الألمانية المترجمة وغير المترجمة ستكشف الكثير من الخبايا والحقائق التي عرفها أسلافنا وطبعت ذاكرتنا الجماعية وخيالنا.

جـ2 – المبادلات الأدبية الدولية التي تقوم على مبدإ التأثير أو التأثر، وفي هذا المجال تتبع الدكتور دودو العلاقات الأدبية العربية الألمانية من خلال دراسات مثل «فيلهلم هاوف وألف ليلة وليلة » و «مؤثرات عربية في شعر هاينه » و « كاريير والأدب العربي»... وقد تكون دراسته عن "كاريير" الوحيدة في العالم العربي حتى الآن، وتكمن أهميتها في أن "موريتز كاريير" يعد من أقطاب الأدب المقارن في القرن التاسع عشر، كما يعد كتابه الشهير «الشعر، جوهره وأشكاله على أسس تاريخ الأدب المقارن» الصادر سنة 1884 في ألمانيا من أمهات كتب الأدب المقارن، درس فيه مؤلفه الشعر العالمي بما في ذلك الشعر العربي، واستخلص الدكتور دودو من دراسة "كاريير" للشعر العربي في هذا الكتاب أن : « الفيلسوف الألماني لم يغمط الأدب العربي حقه، وإنما حاول أن ينوه به وبشعرائه كلما استوجبت طبيعته دراسة ذلك، ويعلي من شأنه بين الآداب العالمية، شرقية كانت أو غربية، قديمة كانت أو حديثة، فكتابه يشهد بهذا كله »[10] وكان المرحوم ينوي أن يترجم هذا الكتاب إلى العربية نظرا إلى قيمته التاريخية في نشأة

الأدب المقارن وتطوره، وإلى أهميته العلمية لأن صاحبه درس فيه الشعر بصفة مطلقة بوصفه نشاطا إبداعيا إنسانيا يشترك في الكثير من الخصائص، ولكن الظروف حالت دون ذلك.

لم يتوقف الدكتور دودو عند دراسات العلاقات الأدبية العربية الألمانية، وإنما راح يبحث في علاقات أدبية روسية عربية مثل بحثه "بوشكين والقرآن الكريم" وفي علاقات ألمانية فرنسية مثل : "ليسنغ وفولتير"، فجاء كتابه هذا كتابا تطبيقيا في الأدب المقارن يفتح آفاق المعرفة الأدبية أمام الطالب والقراء، يجيب عن تساؤلات ويثير أخرى بعيدا عن أي تعصب، متماشيا مع روح الأدب وطموحاته المعرفية

ومن دراساته المقارنة بحث دقيق وعميق جعله مقدمة لترجمة رواية لوكيوس أبوليوس : "الحمار الذهبي" درس فيه حياة أبوليوس وآثاره ومصادر رواية "الحمار الذهبي" الشرقية والمحلية منها مبينا دور الرصيد اليوناني فيها والرصيد المحلي، وأسلوب الكاتب وتقنياته كما درس موضوعها الرئيس والموضوعات الفرعية التي شكلته مثل قضية السحر والمسخ، وخرافة الحب والنفس التي شغلت العالم بعد ذلك في مختلف الفنون التعبيرية باسم "الحب وبسيشة Amour et Psyché"، وتتبع آثار هذه الرواية في الآداب العالمية عبر العصور[11]، وأثار في هذه الدراسة عدة قضايا مقارنية مثل هوية الكاتب البربري الروماني (الجزائري) أبوليوس، ومصادره الأدبية المختلفة وآثاره الأخرى، وتأثيراته في الآداب الأوروبية، وموقع الثقافة المحلية من عادات ومعتقدات وتقاليد في كتاباته. إنها قضايا عديدة متعددة أثار الدكتور

دودو البعض منها بصراحة ووضوح وأشار إلى البعض منها إشارات عابرة. وأظن أن التعمق في دراسة تلك القضايا سيعود بفائدة لا تنكر على المعرفة بصفة عامة وعلى الفكر الجزائري بصفة خاصة ويكشف شيئا من إهمالنا لذاتنا؛ وهذا ما أراده الدكتور دودو حيا ويريده من طلبته وبني قومه دائما...

5 – الترجمة :

تعد الترجمة من أهم أدوات الأدب المقارن، فهي حتى الآن – وبغض النظر عن عيوبها– الوسيلة العملية للاطلاع على مختلف عيون الأدب العالمي، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتمكن من كل اللغات؛ وهي الوسيلة للتواصل الفكري والمعرفي بين البشر حتى الآن؛ ولذلك يحظى المترجمون بمكانة خاصة في الأدب المقارن، فما بالك إذا كان المترجم أستاذا في الأدب المقارن أيضا !!

يبدو لي من تتبع حركة الترجمة في الجزائر أن الدكتور دودو كان أنشط مترجم في البلد، من حيث كمية مترجماته، ومن حيث تنوعها، فقد ترجم نصوصا تاريخية وقصصية وروائية وشعرية ومسرحية ونقدية وفلسفية...الخ، تسهم جميعها في فتح الآفاق أمام القارئ ودارس الأدب بصفة عامة والمقارن على وجه الخصوص. ولن أزعم أن لي القدرة اللسانية لتقويم مترجمات المرحوم، وإنما سأقف عند ثلاثة عناوين من مترجماته أعدها إنجازا عظيما في ميدان الترجمة، وتقدم خدمة جليلة للدرس الأدبي المقارن وهي :

1 – كتاب " الشاعر وقصيدته" وهو كتاب قدم فيه الدكتور دودو ستة عشر شاعرا معاصرا من مختلف أنحاء العالم شرقيه وغربيه، دعاهم المركز الأدبي بمدينة برلين إلى ندوة شعرية عالمية قدم فيها كل واحد منهم قراءات شعرية من أشعاره : « ثم عمد إلى تحليلها ليوضح على أساسها مذهبه الفني، وموقفه الفكري»[12] وطرح كل واحد منهم قضية الشعر، وبالتالي يطرح قضية العصر لأن الشعر إحساس بالعصر وموقف منه، جمع الدكتور في هذا الكتاب بين الترجمة والاقتباس والاستيحاء والعرض عندما ترجم النصوص الشعرية وعززها باقتباس أفكار أصحابها النقدية وعرضها؛ وبذلك قدم إلى القارئ الجزائري مفهوم الشعر وطبيعته ووظيفته عند مجموعة من أشهر شعراء العالم في أواخر القرن العشرين، ينتمون إلى ثقافات وبلدان مختلفة، ويصدر كل وحاد منهم عن تراث شعري معتبر له مكانته في حركة الشعر المعاصر، ومن ثمة قدم الدكتور دودو إلى القارئ نغمات شعرية وأفكارا وآراء نقدية غير عربية ليخرجه إلى رحابة الشعر العالمي المعاصر ونقده، فاتحا أمامه نوافذ الانفتاح والتأثر، وغارسا فيه أسس التفاعل الأدبي الذي يبحث عنه الأدب المقارن. وأظن أن ذلك هو الهدف الأساس الذي كان المرحوم يهدف إليه بتأليفه هذا الكتاب الذي أعدّه متميزا بما حوى وفريدا من نوعه في الساحة الجزائرية.

2– كتاب "العمل الفني اللغوي : مدخل إلى علم الأدب" من تأليف "فلفغانغ كايزر Wolfgang Kayser" الذي يعد من أشهر النقاد ومنظري الأدب الألمان في القرن العشرين، يقع الكتاب في جزئين يضمان عشرة

فصول درس فيها المؤلف جل قضايا الأدب التنظيرية، معتمدا في استقراءاته على نصوص أدبية من الآداب الجيرمانية قديمة وحديثة، ومستعينا بنصوص من آداب عالمية أخرى كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنجليزية... واعتمد في التحليل والتعليل والطرح النظري والإجراء المنهجي على خلاصة ما توصل إليه التفكير التنظيري للأدب عند الألمان، وما نقل إليهم من أمم أخرى كالإنجليز والأمريكان والفرنسيين وغيرهم، فجاء هذا الكتاب توليفة وخلاصة علمية عالمية في علم الأدب، الأمر الذي بوأه مكانة متميزة بين أشهر كتب نظرية الأدب في القرن العشرين.

ترجم الدكتور دودو هذا الكتاب وقدم من خلاله إلى القارئ والطالب الباحث أفكارا وآراء وطروحات نظرية في الأدب؛ كما قدم له نصوصا أدبية عديدة من آداب عالمية تضمنها الكتاب أمثلة حية على ما ورد فيه من مفاهيم وآراء ونظريات. واعتقد أن ترجمة هذا الكتاب ونشره في الجزائر سيعود بفائدة علمية على الطلبة والباحثين الجزائريين لأنه يقدم إليهم ما توصل إليه العقل الجيرماني في ميدان التنظير الأدبي، وسيدرك القارئ من خلاله « أن اهتمام "كايزر" كان منصبا على جانبين، الجانب التحليلي فيما يتصل بالمحتوى والشعر والأشكال اللغوية، والجانب التركيبي فيما يتصل بالقيمة الفنية والأسلوب والنوع الأدبي، فالشعر عنده يقف مع تاريخ الأدب على صعيد واحد ويعد قضية جوهرية في علم الأدب»[13].

ورغم افتقار اللغة العربية إلى بعض المفاهيم النقدية الأدبية الغربية وإلى المصطلحات المعبرة عنها تعبيرا مباشرا وصريحا، إلا أن الدكتور دودو

ترجم الكتاب بأسلوب يجمع بين الدقة العلمية وجمال التعبير نتيجة تمكنه وتحكمه في اللغتين المترجم منها والمترجم إليها، الأمر الذي سيجعل قراء هذا الكتاب يطلعون على فكر آخر، مختلف عما ألفوا؛ وهذا ما جعلني اعتقد أن هذا الكتاب بالذات سيكون له وقع وشأن في دراسة الأدب ونقده وفي الدرس الأدبي المقارن في الجزائر، بفضل مترجمه الدكتور دودو بطبيعة الحال.

3 – الحمار الذهبي: من تأليف "لوكيوس أبوليوس Lucius Apuleus" وهو إبداع أدبي قديم في شكل قصصي، يعد من عيون الأدب العالمي حقا لعدة أسباب منها : « أن رواية أبوليوس تعتبر على أية حال أول رواية قديمة وصلت إلينا كاملة، وشكلت نوعا أدبيا جديدا، هو النوع الذي يعرف اليوم بالرواية الإطارية التي تضم مجموعة من القصص من جهة، وبالرواية الأنوية أو الرواية التي يرويها المؤلف نفسه بضمير المتكلم من جهة أخرى »[14] ونستشف من هذا الرأي الذي لم يطلقه الدكتور دودو تعصبا أو جهلا أمرين أولهما أن الرقعة الجغرافية التي تسمى اليوم الجزائر لم تكن جرداء قاحلة من حيث الإبداع الأدبي، وأن القصة أو الرواية الإطارية لم تفد إلينا، كما يرى البعض، من الهند مع قصص كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة لأن رواية الحمار الذهبي أقدم منها بكثير، وهذه قضية من قضايا الأدب المقارن تستحق المزيد من البحث والتعمق. ومن أسباب عالمية هذه الرواية أن كاتبها اللاتيني اللساني، والإغريقي الفكر والتفكير ينحدر من أصول بربرية جزائرية فهو من مداوروش قرب مدينة سوق أهراس

الحالية تجمعت فيه العادات والتقاليد والثقافة البربرية مع اللغة اللاتينية وبلاغتها مع المعرفة الإغريقية اليونانية وفي مقدمتها الفلسفة اليونانية التي كان يفخر وينوه بها في الكثير من كتاباته، فجاءت رواية الحمار اذهبي – نتيجة ما سبق ذكره – متميزة من حيث مضامينها المعبرة عن قضايا وهموم إنسان عصره، ومن حيث تقنياتها السردية المحكمة، وهذا ما جعلها تحظى باهتمام مؤرخي الآداب الأوروبية، وتحظى بالترجمة إلى العديد من اللغات الأوروبية منذ قرون كاللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها. وعلى الرغم من هذا الاهتمام العالمي بالرواية إلا أن اهتمام العرب بها يكاد ينعدم، وهذا ما جعل الدكتور دودو يقوم بترجمتها ليسد شيئا من هذا التقصير والنقص الذي لم تسده ترجمة الدكتور علي فهمي خشيم حسب اعترافه شخصيا في مقدمة ترجمته[15].

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن الدكتور دودو قام بمجهود كبير في الترجمة سواء على مستوى النصوص الأدبية الإبداعية التي تعد بالعشرات، أو على مستوى النصوص الأدبية المعرفية، فزود من خلال كل ذلك الأدب المقارن في الجزائر بعدة مقارنية ثمينة، وبصفة خاصة من خلال ترجمته رواية "الحمار الذهبي" التي تعد من عيون الأدب العالمي، ولربما أول رواية في تاريخ الإنسانية، ومن خلال كتاب " العمل الفني اللغوي: مدخل إلى علم الأدب" الذي يعد من أعظم مؤلفات نظرية الأدب وما يتصل بها من معارف، وأخيرا من خلال كتاب "الشاعر وقصيدته" الذي أراه أنموذجا في الحداثة والانفتاح على الآخرين في الشعر ونقده. وعليه، فإن المترجمات

السالفة الذكر، وغيرها، ستكون أداة وأي أداة في تطور الدرس الأدبي عموما والمقارن منه على وجه الخصوص في الجامعة الجزائرية.

وخلاصة القول أن الدكتور دودو فضل الالتحاق بالجزائر والاستقرار فيها عندما كان البعض يهجرها، وقضى حياته فيها قصاصا وشاعرا ومترجما ومؤلفا وأستاذا يكون في مختلف المراحل الجامعية، فحافظ طيلة ما يزيد عن ثلاثين سنة على بذرة الأدب المقارن في الجزائر ونماها وطورها بالتدريس والتكوين والترجمة والتأليف، حتى ارتبط الأدب المقارن في الجزائر باسمه، وبذلك يحق، بل يجب، أن نقول أن الدكتور دودو هو المؤسس الفعلي للأدب المقارن في الجزائر، فجزاه الله خيرا على كل ما فعل، وأملي أن لا تهمل جهوده.

الهوامش :

01 محمد روحي الخالدي، تاريخ الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيجو، نشر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ص4.

02 المرجع نفسه، ص38-39.

03 Brunel (P) et Autres, Qu'est ce que la littérature comparée, Armand Colin, Paris, 1983, P.P 15-30.

04 Encyclopédie de l'Islam (Nouvelle édition) T II , Leiden, E.G.Brill, 1977, P.P. 436

05 عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، محمد بن أبي شنب؛ حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 13-38.

06 Cahiers Algériens de littérature comparée, N° 03, Alger, 1968, p.p. 175-176.

07 المعلومات المتعلقة بجمعية الأدب المقارن الجزائرية مستقاة من :
Cahiers Algériens de littérature comparée, N° 1/2/3, Alger, 1966/67/68

08 الدكتور أبو العيد دودو: من مواليد 31 يناير 1934 في دوار "تامنجر"، بلدية العنصر، دائرة الميلية، ولاية جيجل، من أسرة ريفية بسيطة، توفى والده وهو صبي، فأصبحت والدته – على حد قوله – الوالدة والوالد، وساعدها في التكفل به عمه الذي كان تاجرا بسيطا في حي شعبي من أحياء مدينة قسنطينة، فأدخله الكتاب في مسقط رأسه. حفظ قسطا من القرآن الكريم وتعلم شيئا من مبادئ اللغة العربية، وظهرت عليه علامات التفوق بالنسبة إلى زملائه، فاصطحبه عمه إلى مدينة قسنطينة ليلحقه سنة 1946 بمعهد ابن باديس الذي قضى فيه أربع سنوات تعلم فيها أساسيات

اللغة العربية وشيئا من الفقه الإسلامي... وبعد المعهد أرسلته جمعية العلماء المسلمين ضمن بعثاتها إلى جامع الزيتونة، ومنه إلى دار المعلمين العليا ببغداد بعد ذلك. وفي بغداد تتلمذ على خيرة الأساتذة العراقيين تتلمذا مباشرا أو غير مباشر، وتخرج سنة 1956 بشهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها بعدما تشبع بها، كما تعلم مبادئ اللغة الإنجليزية وشيئا من الفارسية، وعايش خلال إقامته تلك الطفرة الأدبية والفكرية التي عرفتها عاصمة العباسيين في الخمسينيات من القرن العشرين.

بعد تخرجه من دار المعلمين العليا سافر إلى النمسا، وفيها التحق بمعهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة فينا العريقة، فدرس على كبار المستشرقين الجيرمانيين، ودرس تحقيقاتهم الرصينة للتراث العربي ودراساتهم الجادة والموضوعية عنه، فجمع بذلك بين الحس اللغوي والأدبي العربي الأصيل الذي تمكن منه في بغداد وبين الموضوعية العلمية والنزعة الإنسانية والانفتاح على شتى المعارف.

وبعد خمس سنوات من الدراسة والبحث نال سنة 1961م درجة الدكتوراه برسالة عن محمد بن نظيف الحموي وكتابه "التاريخ المنصوري" الذي نشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1982م، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع SNED بالجزائر سنة 1983.

عمل في جامعة فينا وفي جامعة "كييل Kiel" مدرس لغة عربية طيلة ثماني سنوات، أرسل خلالها من حين لآخر شيئا من كتاباته القصصية ومترجماته للنشر في المجلات الجزائرية، وراح يفكر في وضعه وفي مستقبله فقاده تفكيره إلى أن بلده في حاجة إليه أكثر من أي بلد آخر، فأقنع زوجته النمساوية التي كانت دائما عونا له بمرافقته إلى وطنه، والتحق بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر سنة 1969 أستاذا في

الأدب المقارن والآداب الأجنبية ونظرية الأدب حتى وفاته.

وفضلا عن التدريس الجامعي والإشراف على الرسائل، أسهم الدكتور دودو في تنشيط الحياة الأدبية والفكرية في الجزائر بالمشاركة في تأسيس اتحاد الكتاب الجزائريين، وبالكتابة في الصحافة، وبالإبداع الأدبي قصة وشعرا ومسرحية، وبالترجمة من الألمانية إلى العربية، نشر ما يزيد عن الثلاثين عنوانا بين تأليف وترجمة في المجالين المعرفي العلمي والأدبي الإبداعي. وله كتابات عديدة غير منشورة، حدثني مرارا عنها وعن صعوبة النشر ومتاعبه، مثل مذكراته وأشعاره وبقية صوره السلوكية وبعض مترجماته...الخ.

ومن أشهر ما أثرى به المرحوم مكتبة الأدب المقارن في الجزائر:

أ – الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (تأليف)، الشركة الوطنية للكتاب SNED الجزائر.

ب – ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا (تأليف مالتسان) ترجمة عن الألمانية، الشركة الوطنية للكتاب SNED الجزائر.

جـ – دراسات أدبية مقارنة (مجموعة مقالات بين تأليف وترجمة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

د – الشاعر وقصيدته (ترجمة)، الشركة الوطنية للكتاب SNED الجزائر.

هـ – من روائع غوته (ترجمة).

و – رواية "الحمار الذهبي"، من تأليف أبوليوس.

ل – العمل الفني : مدخل إلى الأدب، تأليف فولفغانغ كايزر، نشر دار الحكمة، الجزائر.

09 عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، الجزائر. ص66-67.

10 د. أبو العيد دودو:دراسات أدبية مقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1991، ص.176

11 د. أبو العيد دودو: مقدمة ترجمة رواية "الحمار الذهبي"، من تأليف لوكيوس أبوليوس، منشورات كتاب الاختلاف، الجزائر، 2001، ص 09-49.

12 د. أبو العيد دودو: الشاعر وقصيدته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص.05

13 د. أبو العيد دودو: مقدمته لترجمة كتاب فولفغانغ كايزر: العمل الفني اللغوي؛ مدخل إلى علم الأدب، الجزء الأول، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 09-10

14 د. أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص.10

15 د. أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص.47

أبو العيد دودو كما عرفته

بقلم : أ.د. عمار بوحوش / كلية العلوم السياسية والإعلام– الجزائر

نبذة عن نشأته

ولد أبو العيد دودو في عام 1934م بقرية أزيَّار، دوار تمنجر، ببلدية الميلية (آنذاك) التابعة لولاية قسنطينة، ونظرا لوفاة والده، بلقاسم، وهو صغير، فقد قامت بتربيته والإشراف على تعليمه، والدته الفاضلة قدور علجية، ولعل هذا الحرمان من والده وهو صبيا، هو الذي دفعه إلى الاجتهاد في مدرسته القرآنية والسعي لكسب العلم والمعرفة بحيث أنه كان متفوقا على زملائه في المدرسة، وهذا التميز في بداية حياته هو الذي جعل الناس في القرية يلتفتون إلى أبو العيد دودو ويظهرون اهتمامهم الكبير به.

ومن عجائب الصدف أن قرية أزيار (أو بني عيشة) التي هي جزء من دوار لمنجر الذي يشتمل على قرى أخرى تتمثل في: المحارقة، بنى

عيشة (التي توجد في الجهة المقابلة للقرية التي نسكن فيها وتحمل نفس الاسم) وبني فتح، أولاد شبانة، تعتبر من أهم القرى في المنطقة، وذلك بفضل سمعة علمائها على المستوى الوطني، أمثال: الشيخ أحمد حماني (الرئيس السابق للمجلس الإسلامي الأعلى) والشيخ الصادق حماني المدير السابق لمدرسة التربية والتعليم بمدينة قسنطينة، والشيخ عمر حماني (المدير السابق لثانوية بقسنطينة) والشيخ محمد الزاهي الذي كان من اكبر أساتذة مدرسة سيدي قموش بقسنطينة.

لقد كان هؤلاء العلماء يأتون دوريا إلى قريتنا ويلقون محاضرات، في المواطنين بمسجد القرية الموجود بمنطقة "ديموية". وفي هذا المسجد الذي كان يُعتبر بمثابة مركز اجتماعي لتقديم المساعدات والخدمات لأبناء القرية تعلم أبو العيد دودو، وأظهر تفوقا في التحصيل العلمي، وآنذاك تطوع أعيان القرية وتبرعوا بأموال لمساعدة أبو العيد دودو على إتمام دراسته بقسنطينة التي تعتبر في نظر السكان بمثابة المركز الرئيسي لنشر العلم والمعرفة في الجزائر.

وبالفعل فقد استجاب لرغبة أعيان القرية، عمنا الفاضل أحمد دودو (التاجر بمدينة قسنطينة) وأبدى استعداده لاستقبال أبو العيد في بيته ومساعدته على مواصلة تعلمه في معهد عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة، مع العلم أنه كان يسكن في منزل صغير بالسويقة. لكنه كان يزاول تجارته في نهج 11 نوفمبر بضاحية عوينة الفول حيث كان محله يشتمل على دور

أرضي لبيع الصوف، ودور أعلى توجد به غرفة كبيرة للنوم، وفيها قضي أبو العيد دودو معظم وقته في القراءة وتحضير دروسه.

وعندما غادرها وأرسل إلى المشرق العربي، طلب مني عمي أحمد دودو أن أحل محله فيها، وأعترف أن أبو العيد دودو الذي كان متميزا في سلوكه وفي تعلمه قد خلق لي مشكلة أو عقدة في حياتي حيث أن عمي أحمد كان يطالبني باستمرار أن أكون مثله متفوقا في دراستي ومطيعا مستقيم الخلق لأن أبو العيد كان دائما في المستوى المطلوب!

لقد استفاد أبو العيد دودو، عندما كان يواصل دراسته بمعهد عبد الحميد ابن باديس، من رعاية الشيخ أحمد حماني، والشيخ الزاهي وجميع الأساتذة بالمعهد الذي كان شغلهم الشاغل هو تكوين نشء جديد في المعهد لكي يحافظوا على اللغة الوطنية والقيم الإسلامية ولا ينسلخ أبناء الجزائر عن عقيدتهم الإسلامية، وعندما قررت جمعية العلماء إرسال الطلبة المتفوقين بالمعهد إلى المشرق العربي لمواصلة دراستهم العالية هناك، استفاد أبو العيد دودو من هذا القرار وكان نصيبه هو الالتحاق بدار المعلمين العليا ببغداد.

وبما أن عمي أحمد دودو لم يرزقه الله بأطفال فقد اعتبر أبو العيد دودو بمثابة ابنه، وصرف عليه أموالا طائلة لمواصلة تعلمه في قسنطينة وفي بغداد حيث كنت أنا المسؤول عن إرسال الحوالات إليه في بغداد عن طريق تاجر سورى في دمشق صديق قديم لعمي أحمد دودو، وهو يتولى إيصال تلك الحوالات المالية إلى أبو العيد دودو في بغداد.

والحق يقال أن عمي أحمد دودو قد تأثر كثيرا بنجاح تجربة أبو العيد في التعلم وتحسين مستوى الشباب الجزائري وتشجيعه على الدراسة وقد استخلصت من أحاديثي معه أنه شعر بالفراغ في حياته عندما غادر أبو العيد قسنطينة إلى بغداد، ولذلك طلب من والدي ان احل محله في المعهد، وفي الإقامة بنفس الغرفة التي كان يقيم بها أبو العيد دودو، وقد ساهمت زوجة عمي أحمد دودو في تشجيعي على القدوم إلى قسنطينة لأنها تنتمي إلى عائلة أمي قدور، وباختصار، فقد استجاب والدي إلى ضغوط عمي أحمد وأرسلني أولا إلى مدرسة محمد الخطاب بالميلية حيث تتلمذت على يد الشيخ محمد الصالح بن عتيق والشيخ عمار القلى، تم أرسلني إلى معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة سنة 1951.

وهكذا بقيت دار عمي أحمد دودو منزلا لإعداد شباب المستقبل، والتعمق في دراسة اللغة العربية والمحافظة على الهوية الوطنية، وللتاريخ، ينبغي أن نشير هنا إلى أنه بعد التحاقي بالثورة في سنة 1956، حلت الطفلة سليمة دودو، محلي في دار عمي أحمد بقسنطينة.

ومن عجيب الصدف أن الطابق الثاني من محل عمي أحمد الذي كان يسكن به أبو العيد، قد تحول إلى مخبئ للفدائيين في سنة 1956، وحسبما أتذكر فإن عمي أحمد كان يدفع اشتراكه بانتظام إلى قادة الثورة الجزائرية، وفي إحدى المرات جاءه الأستاذ مصطفي بوغابة باسم النظام (الثورة) ودفع له نصيبا من المال فقام الأستاذ مصطفي بوغابة في وضعه

داخل الجاكيت ثم قام بتخييط الجاكيت، وعندما سألت عمي عن ذلك أجابني بأن العسكر يفتشون الجيوب بحثا عن الوثائق، ولذلك ينبغي عدم ترك فلوس الثورة في الجيوب، ومنذ اليوم تمكنت فيه القوات الفرنسية من اغتيال أحد الفدائيين في المنطقة، وتبين فيها بعد أنه كان يشتغل في محل عمي أحمد دودو، استجوبته القوات الفرنسية عدة مرات، غير أنها لم تعثر على حجج دامغة تثبت تورطه في تدعيم الفدائيين بمدينة قسنطينة، إلا أن الأمور تغيرت يوم تمكنت القوات الفرنسية من إلقاء القبض على زعيم أو رئيس لمجموعة من الفدائيين، واعترف ذلك الفدائي، بأن مقر التخطيط الفدائي هو الطابق الثاني من محل عمي أحمد دودو، وبعد أن واجهه الشهود الذين كانوا يأكلون ويجتمعون في محله، اعتقلته القوات الفرنسية وأغلقت المحل وما فيه من بضاعة، وفي سنة 1958 م قام والدي بدفع مبلغ مالي كبير إلى ضابط فرنسي للإفراج عن عمي أحمد دودو من السجن، غير أن قرار الإفراج تحول إلى قرار بالإعدام بعد أن تمكنت القوات الفرنسية من اعتقال فدائي آخر، اعترف بأن دودو أحمد هو الذي كان يأوي جماعته في محله بعوينة الفول، وفي تلك الليلة التي افتضح أمره فيها، قامت اليد الحمراء بإخراج كبار الشخصيات الوطنية من السجن ومن بيوتهم واغتالتهم في سنة 1958.

النشاط العلمي للأستاذ أبو العيد دودو

منذ أن كان يواصل دراسته ببغداد وهو يحاول نشر القصص القصيرة والمسرحيات والروايات في الجرائد والمجلات المتخصصة في الأدب،

وأتذكر أنني تلقيت منه عدة مقالات عندما كنت في تونس (1956 . 1958) أجريت اتصالات عديدة مع رؤساء تحرير مجلات لنشر دراساته في مجلات تونسية، وبالتحديد فقد قدمت أبحاثه ودراساته إلى رئيس تحرير مجلة "الندوة" ومجلة "الفكر" التي كان يشرف على تحريرها السيد محمد مزالى الذي أصبح فيما بعد رئيس مجلس الوزراء التونسي، وكان يوجد مقر مجلة "الفكر" في القصبة، أي غير بعيد عن مقر مجلس الوزراء آنذاك.

وبعد عودته إلى الجزائر، في آخر الستينات من القرن العشرين والتحاقه بجامعة الجزائر، شرع الأستاذ أبو العيد دودو في نشر العديد من المقالات الخاصة بالجزائر والتي كانت جاهزة في معظمها حيث كان قد كتبها عندما كان في "فيينا" (النمسا) ولم يتمكن من إرسالها إلى المجالات والجرائد الجزائرية، وحسبما فهمت منه فقد كان يحظى بتشجيع كبير من السيد مولود قاسم (وزير الشؤون الدينية) الذي كان يعرفه جيد المعرفة لأن مولود قاسم كان موجودا بفيينا أيام الثورة الجزائرية، وكما هو معروف، فإن وزارة الشؤون الدينية كانت تشرف على إصدار مجلة "الأصالة" التي أسندت رئاسة تحريرها إلى السيد عثمان شبوب،كما كان يحظى أبو العيد دودو بدعم معنوي قوي من الدكتور طالب الإبراهيمي (وزير الثقافة والإعلام آنذاك) ويشجعه على الكتابة في مجلة "الثقافة" التي يشرف عليها الدكتور حنفى بن عيسى واستفاد أيضا الدكتور أبو العيد دودو من تسهيلات في نشر دراساته وأبحاثه في "المجاهد الأسبوعي" و "المجاهد الثقافي" والقسم الثقافي لجريدة "الشعب" اليومية.

وعندما زرته في بيته بحي "الاسفوديل" ابن عكنون، عام 1970 أطلعني على عشرات الوثائق التي جلبها معه من النمسا والمانيا، وأكد لي بأنه ينوى ترجمتها إلى العربية ونشرها في الجزائر، لأنه يوجد فراغ كبير في الميدان الثقافي وخاصة في نشر الأبحاث الخاصة بالجزائر والتي كتبها علماء ومفكرون نمساويون وألمانيون عن الجزائر.

وفي قناعتي الشخصية أن الفترة الذهبية لكتابات أبو العيد دودو في مجال كتابة القصة القصيرة والمسرحيات ذات الطابع الفكاهي والهزلي، هي فترة السبعينات من القرن العشرين، ففي كل مرة التقي به في جامعة الجزائر أو في منزله، كان يحدثني عن طموحاته ومشاريعه لنشر كتبه وأبحاثه في "الشركة الوطنية للنشر والتوزيع" التي كانت محتكرة لنشر الكتب العلمية والأدبية في الجزائر آنذاك.

إنه لمن الواضح إلى أن نقطة القوة في شخصية أبو العيد دودو هي شغفه وحبه للقراءة سواء في مجال تخصصه الذي هو الأدب المقارن أو في مجال الثقافة والأدب عن الجزائر، فبضل قراءاته المكثفة والمتنوعة، استطاع أبو العيد دودو أن يخرج الأرشيف الجزائري من دهاليز المكتبات النمساوية والألمانية ويحوله إلى معرفة ثقافية متوفرة وفي متناول القارئ الجزائري وذلك في شكل مقالات وكتب منشورة باللغة العربية. ولهذا فإن مساهمات أبو العيد دودو في إثراء القصة القصيرة، والمسرحيات الهزلية والفكاهية، وإنعاش الترجمة من الألمانية إلى العربية في الجزائر، تعتبر مساهمات واثراءات نوعية ستبقى خالدة على مر السنين والعصور.

ولعل الشيء المثير في سلوك أبو العيد دودو هو سعيه المتواصل لاستلهام أفكاره في الكتابة من القاعدة والجماهير الشعبية التي يحلو له أن يتفاعل معها ويستفيد من احتكاكه بها، لقد كان يتردد على مدينة قسنطينة التي تربي وتعلم بها، وعلى مدينة العنصر (بولاية جيجل) التي هي مسقط رأسه، ويتجاذب أطرف الحديث مع من خالطوه في الصغر وذاقوا معه في الصغر حلاوة ومرارة العيش في الريف الجزائري، ويلاحظ هنا أن اتصالاته كانت بقصد الاستماع إلى الأغاني الشعبية، والقصص البطولية، والألعاب الترفيهية التي كانت تغذي فكره بالعناصر الأساسية لكتابة قصصه مسرحياته التي تعبر عن الواقع الاجتماعي في وطنه.

البساطة والفكاهة في حياته الاجتماعية

ليس هناك جدال بأن أبو العيد دودو يتمتع بقدرة هائلة على إدخال الفرحة والشعور بالسعادة في نفوس أصدقائه وجميع أفراد أسرته وذلك من خلال استعماله لنكت وقصص طريفة، تضحك كل من يتحدث إليه ولا أعرف أي إنسان تحدث إليه ولم يلاحظ هذه الظاهرة في أبو العيد دودو، وكم من شخص توجه إلى بيته عندما شعر بالكآبة والقلق النفسي، لأن الحديث مع أبو العيد دودو ينعش النفس ويزيل الاكتئاب، وفي الحقيقة أن اللقاءات معه في معهد الآداب أو في اجتماعات المجلس العلمي لجامعة الجزائر كانت تعتبر ممتعة وشيقة لأن أبو العيد دودو كان يلطف جو الاجتماعات بنكاته وتعليقاته المرحة وفكاهته التي تضحك الجميع، وبعد

انتهاء الاجتماعات كنت أدعوه إلى قهوة ونتجاذب أطراف الحديث في مواضيع متنوعة، والوقت معه يمر بسرعة ولا أتفطن له إلا بعد أن انظر إلى الساعة وأجد نفسي متخلفاً عن مواعيدي الأخرى.

وفي بعض الأحيان كان يطلب منى أن أزوره في البيت لأنه يريد أن يهديني بعض الكتب التي قام بتأليفها أو يسلم إلى بعض الكتب التي تهمني وتتعلق باختصاصي وهو ليس في حاجة إليها، وأثناء ترددي على بيته من حين لأخر، لاحظت أن أبو العيد دودو كان يلتقي بزملاء المهنة في منزله ويتناقش معهم في قضايا الشعر والقصة والأدب والترجمة، وكم من مرة التقيت في منزله بالدكتور محمد الصالح باوية، الطبيب الذي يتميز بموهبة شعرية لا مثيل لها، وبالأستاذ عبود عليوش، عضو هيئة التدريس بجامعة الجزائر، والدكتور عبد الله الركيبي الذي كان يسكن بجانبه ويقوم بالتدريس بجامعة الجزائر، وكان الحديث في جلساته مع هؤلاء الزملاء وغيرهم، يدور حول آخر الدراسات المنشورة في مجال القصة والرواية والمسرحيات التي تعرض في التلفزة الوطنية الجزائرية، وكما قال لي ذات مرة فإن هذه الجلسات كانت تتميز بتبادل النكت والتعليقات المتنوعة التي تدخل البهجة في النفوس والنشوة في الذهن وراحة البال.

إن أبو العيد دودو شغوف بنشر إنتاجه العلمي، فكم من مرة حدثني عن "صور سلوكيه" التي كان ينشرها في جريدة "الشعب" اليومية ويمضيها باسم "الدعاس"، وقد أكد لي اكثر من مرة أن قصصه القصيرة مستمدة من

الواقع وتعبر عن سلوك وتصرفات الناس في مجتمعنا الجزائري، إنها حقيقة قصص مثيرة للانتباه وتعتبر بمثابة ملاحظات وتعليقات على بعض المواقف المثيرة للحيرة والاندهاش.

وما أردت أن أقوله هنا هو أن الأستاذ أبو العيد دودو يتمتع بحس أدبي قوي، وكل من يجلس معه في بيته أو في كلية الآداب في جامعة الجزائر يشعر بغزارة معلوماته واطلاعه الواسع على كل ماهو جديد في الفكاهة والأدب والثقافة، ومنذ اليوم الذي عرفته إلى يوم وفاته، لم أسمع من أحد أن أبو العيد دودو ظلمه أو تكبر عليه أو أساء إليه في يوم من الأيام، فهو إذا كان لا يفيد من يلتقي به أو لا يختلط كثيرا بالناس فإنه لا يضر ويمس سمعة أي إنسان بسوء.

وفي اعتقادي أن أبو العيد دودو يتمتع بقوة الشخصية والتواضع في آن واحد، وحسبما عرفته، فإنه كان من النوع الذي لا يلهث وراد المناصب ولا يتشاجر مع غيرة من أجل الحصول على امتيازات ومكاسب مالية، إنه دائما قنوع ويكتفي بتغطية مصاريفه اليومية من مدخوله أو راتبه المتواضع من جامعة الجزائر، بالإضافة إلى بعض المكافآت الرمزية التي كان يحصل عليها من كتبه المنشورة ومقالاته في المجلات والجرائد اليومية.

ولعل الشيء الذي ساعد أبو العيد دودو على التفرغ للكتابة والانهماك في القراءة وترجمة العديد من المقالات من الألمانية إلى العربية، هو الدعم المعنوي والجو العائلي الدافئ الذي يسود بيته، فقد كانت زوجته الفاضلة

"إيمي" النمساوية الأصل، هي التي تمسك زمام أمور البيت المالية، وهي التي تتولى شراء الملابس لأبنائها الأربعة (ياسمينة، نادية، سمير، سلمى)، وباختصار ولابد أن أشير هنا إلى أن زوجته الفاضلة رفضت جميع الوظائف التي عرضت عليها في الجزائر وأصرت على تخصيص كل وقتها لأبنائها وزوجها.

ونستخلص مما تقدم، أن أبو العيد دودو قد عاش حياة بسيطة ولم تكن لديه آية ثروة لبناء مسكن خاص به حيث أنه عاش طوال حياته بالسكن الصغير الذي حصل عليه من وزارة التربية والتعليم في آخر الستينات من القرن العشرين في حي بن عكنون، لقد كان طول حياته يشكو من ضيق المسكن وصعوبة ترتيب كتبه وابحاثه وما يقتنيه من مراجع علمية في غرفة صغيرة لا تتجاوز 3x3 أمتار، ومع أنني نصحته أكثر من مرة عندما كان مديرا لمعهد الآداب في جامعة الجزائر أن يطلب سكناُ أوسع، أو على الأقل يسجل اسمه في قائمة الراغبين في الحصول على سكن أوسع من الذي هو فيه، إلا أنه لم يستمع إلى النصيحة ولم يهتم لموضوع الحصول على مسكن كبير لأن اهتماماته كانت منصبة على الكتابة والترجمة والاطلاع على آخر المستجدات في المجال الأدبي.

وحسب علمي، فإنه حصل على عدة جوائز (خاصة في يوم العلم الذي يوافق يوم 16 افريل من كل سنة) لأنه كان يفتخر ببعض الجوائز التي كانت تقدم له، مثل حصوله ذات مرة على جهاز كومبيوتر حديث كان يستعمله لكتابة أبحاثه أو ترجمة الكتب من الألمانية إلى العربية، وكما هو

معروف، فإنه كان يكتب مباشرة على جهاز الكومبيوتر ولا يستعمل الأوراق أو الأقلام في الكتابة، كما أن رئاسة جامعة الجزائر قد كرمته أكثر من مرة وساعدته على التنقل إلى جامعة فيينا في إطار منح قصيرة المدى، وفي آخر مرة التقيت به في منزله، أطلعني على جهاز كومبيوتر سلم إليه من طرف جامعة الجزائر التي كانت لا تبخل عليه بالتشجيع على الكتابة والترجمة.

وبإيجاز إن أبو العيد دودو قد سخر قلمه لخدمة الثقافة والمعرفة في الجزائر وبذل كل ما في استطاعته لتعليم وتخريج شخصيات علمية في الجامعات الجزائرية، وساهم في إثراء المكتبة بمؤلفاته الرائعة التي تحمل بصماته إلى الأبد، واعترافا منا بخدماته الجليلة لثقافتنا وأبناء شعبنا ووطننا، قمنا بكتابة هذه السطور للتعريف به، ومساهماته في إثراء الأدب والقصة والترجمة في الجزائر. رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جنانه.

صديقي.."الموسوعة" التي يصعب على الجزائر تعويضها

بقلم: جيلالي خلاص (كاتب ومترجم)

عرفت الدكتور"أبو العيد دودو" من خلال مجموعته القصصية "بحيرة الزيتون" التي صدرت في نهاية الستينات عن مطبعة جريدة "الشعب"، أعجبتني قصصه، فزرت العاصمة (كنت أقطن وقتها بعين الدفلى) بحثا عن كاتبها لأسأله وأناقشه في بعض القضايا التي طرحها، لا سيما حديثه عن "فينّا" عاصمة النمسا التي كنت معجبا بها من خلال روايات روبرت دوموزيل (الرجل عديم الخصال) وغريهم غرين (الرجل الثالث) واستيفان ازفأيغ (العلاقات الخطيرة وغيرها).

التقيت بـ دودو في مقرّ جريدة "الشعب"، عرّفته بنفسي فهلّل وربّت على كتفي ودعاني فورا لاحتساء قهوة في "اللوتس" بساحة "أودان"، وجدت الرجل متواضعا بشوشا لا تفارق البسمة وجهه وتسيل النكتة من بين شفتيه رقراقة مفرحة كالجدول العذب وهو يمضي الهوينا غير مبال بالنباتات التي يسقيها على ضفتيه أو الحجارة التي يغسلها في "حِجره" (حضنه)، من يومها أُعجبت بدودو الكاتب والإنسان وصرنا أصدقاء.

ثمّ دعيت للخدمة الوطنيّة، فكان من غريب الصدف أن يكون مقر ثكنة تدريبي العسكري بجيجل، مسقط رأس دودو، قضيت أربعة أشهر في هذه المدينة البحريّة الجميلة وكنت خلال تلك الفترة أهتف إلى دودو وأمازحه مرات ومرات في الأسبوع قائلا "لقد قمت بانقلاب عسكريّ وقد استوليت على جيجل" فيردّ عليّ ببداهته الخارقة: "أيّة فائدة ستجنيها من الاستيلاء على جيجل؟ تعال إلى العاصمة وسأبايعك مع جميع "الجواجلة".

وحين سرّحت من الخدمة الوطنيّة (التي أكملتها بوهران) واخترت أن أستقرّ في العاصمة، أصبح دودو من أعزّ أصدقائي. وبالرغم من فارق السنّ بيننا (هو يكبرني بأكثر من عشرين سنة) إلاّ أنّه لم يشعرني يوما لدماثة خلقه، بأنّه يتجاوزني في سعة الثقافة أو رقيّ المنصب (كان دكتورا وكان يحسن لغتين أجنبيّتين أكثر منّي)، فأنت حين تجلس إلى الرّجل تجده يكسّر كل الحواجز الثقافيّة والمزاحيّة بلباقة لسانه الذي تتدفّق منه المعلومات، المطعمة بالنّكت المسلّية، كما يتدفّق الشلاّل من الجبل.

لقد كان دودو وما يزال مثالا أعلى بالنّسبة إليّ في سعة العلم ودماثة الخلق والزّهد في طلب النفوذ أو المال أو المناصب الزّائلة.

وما زلت إلى اليوم أقول لأصدقائي حين يذكرون مسألة "الجهويّة" وخطرها المزعوم على الجزائر، "أنّ الذي أدخلني الجامعة جيجلي (دودو) وأنّ الذي طردني منها جيجلي (لن أذكر إسمه حتى لا يدخل التاريخ لأنّه تافه)"، أي أنّه يمكن أن تكون من وهران أو باتنة وتجد يد العون والودّ في تامنراست أو تيزي وزو والعكس صحيح، وأنّ ما نراه يحدث في الجزائر أحيانا ما هو سوى حالات بشريّة ضخمتها سياسة "الأمّيين" فسمّتها "الجهويّة".

كنت خلال زياراتي للدكتور "أبو العيد دودو" أتوقّف دوما أمام باب العمارة التي توجد بها شقّته وأرفع بصري إلى شرفته، فإن كانت مضاءة أو مفتوحة النافذة، عرفت أنه موجود "بمكتبه"، ذلك أن دودو، كان لضيق شقّته، قد هيّأ شرفته كمكتب.

في السنوات الأخيرة من حياته، كانت تلك الشرفة قد ضاقت بالكتب والمخطوطات، فأصبح تحرّك دودو داخلها صعبا فعلا.

كنت إذا زرته يستقبلك بحفاوة كبيرة ثم يقودك إلى تلك الشرفة المليئة بالكتب، فيجلسك على سرير صغير كان يستعمله للقيلولة ساعة يتعب من الكتابة أو الترجمة أو القراءة.

كان الحديث مع دودو ممتعا ومفيدا في آن واحد، فالرجل بحر من الأفكار والمعلومات الأدبيّة والفلسفيّة، غير أنّه لا يحرجك أو يقف سدًّا منيعا في طريقك كالبحار المتلاطمة وإنّما يسليك بطرفه ونكته وهو يحدثك في مواضيع ثقافية شتّى كالبحر الصافي المجلو الذي يدعوك للسباحة الممتعة دون خوف أو قشعريرة.

كان دودو متخصّصا في الآداب المكتوبة بالألمانية، لا سيّما آداب "النمسا وألمانيا"، ولمّا كنت قارئا شغوفا لتوماس مان، هرمان هاس، هنريش بول، غونتر غراس، غوته، روبرت دو موزيل، واستيفان ازفايغ، فإنّ الحديث كان يطول بيننا حتى ساعة متأخّرة من الليل.

أحيانًا كنت أشفق عليه وأخاف أن تتأثّر صحته الهشّة، فأحاول حين أرى علامات التعب تبدو عليه، أن أقطع الحديث بلباقة وأستأذن للانصراف لكنّه لدماثة خلقه العالية، كان يلحّ دوما على توضيح هذه الفكرة أو تلك قبل أن أغادر.

كان دودو قد تأثّر بالروح الألمانية التي تقدّس العمل، لذلك لم يكن يتوقّف عن الكتابة والترجمة إلاّ في حالات اشتداد المرض الذي كان ينخر قلبه، فكلّما زرته، قرأ لي إحدى "صوره السلوكية" (شبه قصص قصيرة تفنّن في كتابتها) أو إحدى القصائد أو القصص التي ترجمها، بالإضافة إلى هذا المقطع أو ذاك من يوميّاته، إذ كان يصرّ على أن يسجّل بالسّاعة واليوم كلّ ما يراه، يحسّ به، يقرأه أو يحدث له في حياته اليوميّة. لقد كان يكتب

هذه اليوميّات بخطّ يده في كراريس وسجلاّت خصّص لها زاوية في مكتبته المزدحمة بالكتب.

في تلك اليوميّات سجّل بأدقّ التفاصيل حياته اليوميّة، بدءًا من وصف سحنته عند نهوضه من النوم في الصباح الباكر وانتهاءً بآخر ما يشعر به قبل أن يسلّم جفونه للنوم.

كان دودو طوال حياته قنوعا زاهدا فلم يسع يوما وراء مال أو نفوذ أو منصب، مازلت أذكر سيّارته "الباصات البرازيليّة" المرقّمة في عام 1978 (لم يشتر بعدها أيّة سيّارة) التي أكلها الصدأ وهي عاطلة أمام باب العمارة التي كان يقطن بها كما ما زلت أذكر تألّمه وتذمّره حين ألحّ عليه زملاؤه (وأغلبهم كانوا طلبته) فقبل رئاسة قسم الآداب بجامعة الجزائر، ولم ترتح نفسه إلاّ عندما استقال من منصبه في أوّل فرصة أتيحت له.

هتف لي مرارًا أيّام كان المرض يرهقه كي آخذه بسيارتي إلى صندوق الضمان الاجتماعي، كان مجبرا على استرجاع نفقات الأدوية الباهضة الثمن من الصندوق قصد شراء أدوية جديدة لا تقلّ عنها سعرا وغلاءً.

إنّ أكبر عبرة أخذتها من دودو هي ذلك الإصرار العجيب على مواصلة العمل بجدّية كبيرة، فقد كان يُرغِم نفسه على مداومة الحضور بالجامعة بالرّغم من المرض الخبيث الذي كان يهدّد قلبه بالتوقّف في أيّة لحظة ويُصعّب عليه المشي ولو لمسافة قصيرة، كما كان يُرغِم نفسه على الكتابة أو الترجمة ساعات

طويلة في اليوم إلى درجة أنّه كثيرًا ما كان ينام في مكتبه المهيّإ بتلك الشرفة الصغيرة المزدحمة بالكتب والكراريس والمخطوطات.

" صور سلوكية " لأبي العيد دودو

النظرة والأسلوب

أ. محمد شنوفي / جامعة الجزائر

يعتبر المرحوم أبو العيد دودو أحد أعلام الأدب في الجزائر وأحد مثقّفيه الموسوعيين، تأثّر بالثقافة الجرمانية فأغنى الأدب العربي بالمعرفة من خلال الترجمة، بعد أن كان هذا الأدب، معتادا على الترجمة من الإنكليزية والفرنسية.

كتب في فنون إبداعية مختلفة وبرز، على الخصوص، في ميدان القصة القصيرة التي كان أحد روادها المؤسسين وأحد كتّابها المعاصرين. وترك فيها عدة مجموعات لعلَّ أهمّها (صور سلوكية)، التي شكّلت ثلاثة أجزاء. وهي من الأدب الذي يحسّس القارئ المثقف بأنّ فيها ما يرضيه، في الآداب العالمية، من عمق فكري. وذلك بفضل حضور النظرة الفلسفية.

لقد كان دودو، بحقٍ، أحد مؤسسي الثقافة الجزائرية الحديثة، المتجذّرة في الثقافة العربية والإنسانية.

وتكرّس (صور سلوكية) هذه، ضِمْنا، فكرة عامة مفادها أنّ التركيز على التقدّم الخارجي قد أدّى إلى إغفالٍ عن العمل في الحياة الاجتماعية، بتصوير المجتمع في ارتباطه بالعصر و(نزواته)، في تحليل يعكس خيبة أمل هذا المجتمع وهو في طريقه إلى أن يفقد معناه وهدفه. وتتنبّه بالمقابل، إلى ضرورة الإكمال الروحي والأخلاقي حتّى يحدث التوازن.

يجسِّد هذا (الخلل)، في كلّ (صورة)، بطلٌ يتميّز بالفاعلية؛ لا يتوانى في النهوض بأفعاله وحياته– فيما يراه في مصلحته– ساعيا بذلك، إلى تحقيق ذاته، وبالتالي حريته، بمَنْحِ وجوده (معنى) بما يصنع هو من نَفْسه.[1] ولا يتحقّق كلّ ذلك إلاّ بحضور الوعي؛ فتأخّره، كما قال أحد أبطال إحدى هذه القصص (جهلٌ ما بعده جهل!)[2].

وهذه الحرية الذاتية، تبدو مطلقة. يقول أحدهم، عندما يحتجّ عليه الجيران، لاستخدامه بوق سيارته القوي، في الحيّ: (هذه إرادتي المطلقة!..)[3] ويقول أحد المتسكّعين: (المدينة كلّها شارع أمر منه أنا، ومَن يزاحمني فيه لم يخلق بعد!)[1]، وهو صاحب مفاهيم خاصة، يسعى بها إلى امتلاك كل ما يريد.

290.

99.

68

ولا مجال لديه لأنْ يتجاوزَ ذاته إلى ما هو اجتماعي، رغم تولّي هذا الصنف من (الأبطال)، في الغالب، لمناصب اجتماعية. يقول أحد المديرين العموميين: (وما أن بدأتُ أمارس عملي مُدندنا، أُنزل هذا الموظّف، وأرفع ذاك، وأتصرّف بسهولة تامّة كما يحلو لي وكيفما اتّفق، حتّى وصفني بعض أتباعي بأنّي جَمَل، وأصبح الحقد– وما أحلاه–يختفي خلف كلّ كلمة، خلف كلّ حركة، كلّ نظرة تصدر عنّي،...[2] ويتحدّث بطل آخرعن مفهومه للتاريخ بالقول: التاريخ يجب أن يكون (مدرسة يتعلّم فيها كلّ إنسان ماضيه ويعرف من خلالها ذاته الشخصية لا..الغيرية! فالغير غيرٌ وله ذاته الخاصة المتميِّزة، فكيف يمكن أن يكون الفرد–وهو فرد خُلق فردا–ذات غيره؟ الإنسان الأصيل لا يكون إلاّ..نفسه..[3].

وهو يرى غيره المانع الأساسي، المعرقل لشرط تحقيق ذاته لأنّه ينافسه، ويحدّ من نشاطه وسعادته، وبعبارة أدق: يتهدّد وجوده. ولذلك، فهذا الغير، هذا (الاجتماعي)، هو ما يجب أن يتحلّل منه، أن يصارعه وينتصر عليه ويعبث به! حتّى يتمكّن من إعطاء العالَم معنى من (لدنه) وحده، وهو ما يراه شرطا لحريته وتحقيق ذاته. (تعوّدت، ولا أنكر أنّ عادتي مكتسبة حديثا وأنّ للظروف فضلا عليّ فيها، أن أثير سخطهم، والأكثر أن أفتِّت أعصابهم، ولَكَمْ هي رهيفة! بشكل

---

[1] -أبو العيد دودو (في الشارع) المصدر السابق ص: 17

[2] – في المكتب، المصدر السابق، ص: 17

أو بآخر. وتكاد هذه العادة تتحوّل عندي–نظريا على الأقل! – إلى مهنة يرتزق منها شعور خاص في أعماقي!)[1].

وهذه الممارسات الخاطئة، لمفهوم الحرية الفردية، تجدُ بُغْيتـها في الآفات الاجتماعية التي تبحث فيها هذه القصص، مثل:المحسوبية والرشوة والتعسّف في استخدام السلطة وما يتفرع عنها من مظاهر سلوكية. وقد يجتمع أكثر من سبب منها في قصة واحدة.

وقد مكَّنت الشخصياتُ الأخرى (البطلَ) من تحقيق ما يريد، بموقفها السلبي ممَّا يجري لها معه؛ فهي لا تفعل شيئا من أجل خلاصها. وإنْ بدرتْ منها بعض ردود الأفعالٍ، فهي بلا فعَّالية، ممّا يعكس حالة الضعف التي وصل إليها المجتمع، الذي يمر بأزمة مفاهيم متعدّدة؛ فالبطل يتحكّم، بشكل مطلق، في مصائر النّاس. فهُمْ من وجهة نظره، لا قيمة لهم، لا وجود لهم. وفنِّيا، فهو مَن يحكي وباقي أبطال القصة لا يوجدون إلا عبره ممّا يعني، إقصاء للآخر ومحو له. (يمكنكم أن تتكلّموا عندما تجدون مَن يعترف بكم!)[21] و(عند بابي يفقد كلّ إنسان قيمته وجاهه)، و (ما أكثر الذين يأتونني كلّ يوم،...وكلّهم في نظري لا شيء.)[3] ووجودهم لا يعني أكثر من واجبهم القيام بخدمته، وتقبُّلِ أفعاله وآرائه. يقول أحد هؤلاء الأبطال: (والصديق، أعتبره

بالنسبة إليّ بمثابة الغصن من الشجرة، ينجذب معي إلى الاتجاه الذي أريده منه، ويتحرّك في مجالي، ولا يفقد صلته بي أبدا[1].

ومن هنا، فهو لا يهتم بمشاعرهم؛ ولا يفكّر في نفسه على أساس ما يفكّرون عنه لأنّه لا يحتاج إلى اعتراف منهم بأنّه يمتلك شخصية، أي: جوهرا. (آه، لَكَمْ استغرب أمر أولئك الذين يشعرون بوجود الآخرين، أو بالأحرى بأنهم آخرون بالنسبة إليّ...)[2].

وإنْ بدا له أن يهتمّ بمثل هذا الأمر-وهو أمر نادر- فإنّه يعمد إلى انتزاعه منهم، مستغلاّ ضعفهم وجبنهم. ويبرّر، حينئذ، أفعاله (عن طريق اليقين والأخلاق) لكنّ هذا التبرير، في حقيقته، موجود فيما يمكن تسميته بـ (اليقين الفاسد)[3].

ومن وجهة نظر الكاتب/المجتمع، فهذا النموذج/الظاهرة، دليلٌ على تأخّر الحياة الباطنية للفرد حينما يُصاب بـ (هُزال أخلاقي)، يؤدّي إلى انحطاط نظرته إلى الحياة، من خلال تجسيده لصفات التمرد والأنانية، وممارسة نزواته بعيدا عن كلّ رقابة اجتماعية. ويتجسّد ذلك فنّيا ببناء (موقف) ما، منغمسٍ في فضاء

[1] أبو العيد دودو.(التواصل..مقاطعة!) ، ج3، ص 95.

[2] – **(في الشارع)، صور سلوكية، ج1، ص 12.**

[3] – أنظر شرح هذا المفهوم، كما ورد في فلسفة سارتر، في: أرنولد ب. هنجليف، اللامعقول، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1979، ص 36.

مكاني وزماني محدّد يستمد منه قوة صدقٍ. وقد نوّع القاص في المواقف حتّى بدا (التهديم) وكأنّه قد مسّ كل مناحي الحياة.[1]

ومن ذلك، مثلا، البطل الذي يشغل وظيفة إدارية أكبر من قدراته، ومؤهلاته العلمية فيتولّد، في نفسه، الخوفُ من تضييعها. أو الطّمع في نيل ما هو أكبر منها، مستغلاّ نفوذ منصبه. وقد يعلن لذلك، مبادئه وقوانينه الخاصة. يقول بطل إحدى القصص: (..قد يُخيّل إليكم أنّي إنسان غير عادي، ولذلك توصلت إلى هذه الفلسفة الخاصة. الواقع أنّي عادي جدا، وليست لي مواهب خارقة للعادة. لي موهبة واحدة أعتزّ بها، وهي موهبة المصلحة، وبعبارة أخرى أنّي أعرف، كما تقولون أنتم، من أين تُأكل الكتف. واسمحوا لي أن أُدخل هذه العبارة في فلسفتي الذاتية،..)[2].

وهذا ما يحوِّل (الواقع اليومي) للناس إلى كابوس يسيطر فيه الظلم، في أشكال كثيرة، ويحوِّل (العالَم) إلى (مكان يُصبر فيه أكثر ممّا يُعاش فيه)[3].

الأسلوب في (صور سلوكية):

إنّ تصدّي القاص لِما يمكن تسميته بالصعوبات الأساسية التي تجابه النّاس إنّما يجسّد، من خلالها، مفهوما قلقا عن الواقع؛ واقعٍ اجتماعي يغوص في

---

[1] – هذا ما تبروه إجمالا، القصص في (صور سلوكية).

[2] – أبو العيد دودو. (في المصلحة)، صور سلوكية، ص 22.

[3] – وردتْ هذه العبارة في معرض الحديث عن مسرح اللامعقول الذي يصوِّر العَالم على أنّه كابوس وجودي، في (اللامعقول)، تأليف، آرنولد ب. هنجليف، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مرجع سبق ذكره، ص17.

خضمّ صراع حضاري، أضحت فيه كثير من القيم محل تشكيك لأسباب عديدة يأتي في مقدمتها، مفهوم زائف عن الحرية الفردية. وقد عالجها بروح السخرية. و (الدور الإيجابي) لهذه السخرية أنْ يخلِّص الفردَ من نفسه، وأن يخلق فيه اهتماما بوجوده الأخلاقي. وهو لا يقترح على القارئ حلولا، وإنّما يدفعه إلى البحث عنها نتيجة الخيبة والحيرة التي قد تنتابه.

هذه الأساليب (تسخر من كلّ إعوجاج أخلاقي، وفكر فاسد...وهي تعالج الخلق الشخصي والذاتي للإنسان)، و (تلقي الأضواء الفاحصة على

سلبية العادات والسلوك التي يمارسها الناس بوعي أو بغير وعي)، وتكشف، بذلك، العيوب الاجتماعية التي يتميّز بها عصر بصفة عامة.

وأسلوب السخرية في (صور سلوكية)، يستخدم الفكر اللّماح، ويتّجه إلى الذوق المثقف الراقي للمجتمع، كما يعتمد على الأبعاد الفكرية، ذلك إنّ (الثقافة العميقة تزيد من أصالة النكتة وتصقل روح الفكاهة، فهي تقوم بامتداح المثل الأعلى حين تسخر من نقيضه، وتتهكّم على المنحرفين عنه، وتعاقب الأخلاق السيئة حين تسخر منها فتُوقِع نوعا من القصاص بالإشارة إلى نقص فردي أو جماعي يقتضي عقابا مباشرا، وما السخرية أو الضّحك إلاّ هذا العقاب. فتلمّح إلى ما ينبغي أن نكون عليه وهناك مَن لا يرتدع خوفا من الأذى، ولكنّه يرتدع خوفا من أن يكون موضوعا للسخرية...)[1] إنَّ السخرية في الكتاب تأخذ مظهر الاحتجاج على التدهور الذي تشهده القيم الاجتماعية. ويمكن القول إنَّ

61.

الموضوعات تشكِّل اهتمامات القاص، ورغبة الفن، أيضا، في تحديد "أوضاع حياة" بُغية تعديلها. حياةٍ تمور بالتناقض، ربما، بقصد التجدد.

و(التعديل) يستوجب الإشارة إلى "موضع" الخلل على مستوى القيم، فقد بدا الإنسان فاقدا لجوهره. إنَّ الإنسان الطيِّبَ لا يظهر، هنا، إلاَّ ليؤدِّي دور الضَّحية، ذلك أنَّ الحياة السوية ليس هنا مجال الإشادة بها ما دامت عين "الهَجَّاء" هي التي تلاحظ وتقدِّر "مدى" انحراف الشخصية المحورية عن قيمة، أو قيم، ما.

وتشكل العلاقة بين هذه الشخصية والقيمة، دوما، زاوية منفرجة، لكنَّ لهجة الكتابة لا تنقلب إلى شكوى مريرة أو إلى نظرة سوداوية. لأنَّ القصة لا تعمد إلى أسر القارئ بفيض المشاعر الجيَّاشة، وإنَّما ببحث الموضوع بوسائل ملائمة، فعَّالة، فينتهي القارئ من النَّص وهو واعٍ بالموضوع، موضوعٍ يمكن وصفه بأنَّه مهمٌّ. فالشخصية المحورية، فيه، تمارس "انحرافها" بعيدا عن وازع الضمير فتسيء، بشكل فجٍّ ومباشر إلى العصر أو إلى الوضع الإنساني المُسَوَّرِ بالمكان والزَّمان. إنَّ الحجابة مثلا، هذه المهنة التي تبدو متواضعة، قد يجعل منها بَوَّاب "مصيدة" ذات شأن وذلك عندما يوقف تحقيق ذاته على إذلال الناس وإفساد أمزجتهم وتضييع مصالحهم! [1].

وقد يأتي ما يزعج من متسكِّعٍ لَمَّا تتضخَّمُ "أناه" بشكل مذهل فلا يشعر بالحرية إلاَّ إذا صادر حرية غيره، وهكذا... (حين ينام الناس، يا صاحبي، أخرج للنزهة في الحي، أنا الحي؟ وبمجرد خروجي أرسل صوتي، وما أروع صوتي وهو يتردد بين العمارات في الساعة الواحدة صباحا، أرسله صاخبا، فأنا

أضع فيه أكثر الألحان الغربية عنفا، صحيح أن صوتي به جفاف، وطابعه الخاص هو انعدام التناسق والانسجام فيه، فأنا لا أومن، بالفن، أريد أن أقول إنِّي لا أغنِّي للناس، لا أهدهد الناس ليناموا في فيض من الرؤى البديعة، إنَّما أغنِّي لأوقظهم، ليسمعوا صرختي المدوِّية.)[1].

والواقع أنّ التواضع أو الرفعة لا يتعلقان بالمهنة، وإنَّما بصاحبها. فبقدر ما تبتعد الشخصية عن إظهار سلوك "مقبول" بقدر ما تظهر مشوَّهة، وسخرية القاص، منها، مؤلمة. فانظر المغزى الذي يعطيه هذا الجابي لمهنته: (حين كنت جالسا..اليوم..في مكاني العالي بمؤخرة الحافلة. رأيت امرأة تجري نحوي...ولكنها كانت لا تزال بعيدة عنِّي...

كان يبدو عليها طبعا أنها مستعجِلة، ومع ذلك كانت حركتها بطيئة... كانت تصعد منحدرا، والأمطار تتهاطل بغزارة، وفوق ذلك كله كان بين ذراعيها طفل صغير. وبينما هي تجري وتركض وصلت، الحافلة إلى المحطة وتوقفت. وكنت قد انشغلت عنها بتقديم التذاكر للركاب الجدد...أتراها ستصل في وقتي المحدد؟...

وبعد ذلك رأيتها تحثُّ خطاها، وتنقل الصبي من يد إلى يد أخرى. لا شكَّ أنَّهُ كان قد أتعبها...ونظرتُ إلى ساعتي، ودون أن أشعر امتدت يدي إلى زر الباب...وهي علامة الحركة عندي! ووصلت المرأة لتدق الباب بإحدى

يديها..ورأيتُ جبين الصبي ينزف دما، ولكن ذلك كله وقع خارج حدود وقتي...)[1].

إنَّ انحراف هذا الجابي تجسِّده عبارات، في النص، مثل "مكاني العالي" و"امرأة تجري نحوي" بدل: نحو الحافلة. وبصفة عامة، الوصف الدقيق الذي قدَّمه للمرأة وهي تكابد ظروفها الصعبة، وتأمل في الوصول إلى الحافلة لإنقاذ حياة ابنها.

وبعد هذا، فمن يقبل من هذا الإنسان ذي القلب الحجري، مفهومه للوقت أو طريقة حرصه عليه؟

إنَّ موضوعات كهذه تغري، في الحقيقة، بـ "الطابع الأخلاقي" في المعالجة، لكن القاص يبتعد عن تقديم النصائح. إنَّ الصراحة، كما هو معروف، تتهدَّدُ العمل الفنِّي. إنَّ ما يريح الأديب، في مثل هذه المواقف، في الغالب، هو الكلمات النابية، المقذعة إلاَّ أنَّ روح السخرية في هذه القصص، تحرص على أنْ تظل ضمنية، وعلى ألاَّ تغلظ في قول، وألاَّ تتوعَّدَ أو تستنكر. لكن، في آخر المطاف، قد لا يختلف الأديب الساخر عن "المصلح"، فكلاهما قد يكون مشغولا بما يفيد. ولعلَّ ما يميِّزُ الأول، عادة، أنَّهُ يبدي حساسية مفرطة في تعامله مع الكلمات، واختياره لطرق القول.

في إحدى القصص يشرح، لنا، نشَّال طريقة "عمله" بحيوية وحبور وهو في وضع أقرب إلى "التداعي النفسي".

[1] – (في المحطة)،ج1، ص93-94.4

يحاول أن يقنعنا بأنَّ عمله شريف لأنه مُتْعِب! لكن قناعتنا في أن جُهْدَ هذا النشَّال يسير به باتجاه إصدار إدانة عن نفسه !(لا أَدَّعِي أنِّي أُوَفَّقُ دائما في عملي بالحافلة، فهناك، كما تعلمون، أيام وأيام...إنَّ عملي حقيقة عمل شاق. فأنا أعيش في أثنائه حالة توتر رهيبة...عروقي تنتفض. وجسمي يختلج، وقلبي يدقُّ، ومسامي تفرز العرق. أليس العرق دليلا على القيام بمجهود..دليلا على العمل؟ كلا. ليس الخوف هو السبب في تصبب عَرَقي، فأنا لا أخاف، لأنِّي، في الحقيقة، على استعداد لكلِّ شيء..حتَّى للموت في سبيل عملي! ثقوا إذن أنَّهُ عمل شاقٌّ، وجربوه إنْ شئتم!)[1].

وما دامت عين الأديب الساخر هي عين الفنّان فلا يمكن النظر، إلى هؤلاء الأبطال، على أنَّهم "مجموعة أخطاء" فقط، إنَّهم، قبل كلِّ شيء، مخلوقات فنِّية، بَذَلَ القاص جهدا واضحا في صنعها.

ورغم أنَّه يمكن تجميع هذه القصص في بؤر محددة، حيث تهيمن كلٌّ منها على عدد من القصص – ومن أهمها في الأجزاء الثلاثة، بؤرة الإدارة القائمة على طحن المثقف والمواطن البسيط – إلاَّ أنَّ القاص يحرص في بناء شخصياته، في كل مرة، بناء متميِّزا من حيث مزاجها وأحاسيسها وتصرفاتها. وهو ما يرفعها عن أن تكون مجرد أشباح تُحاكي سلوكا عاما. وسِرُّ هذا التميُّز يعود إلى اللغة التي تسمح للشخصية بأن تُخْلَقَ مما يوضع على لسانها من كلام.

إنَّ في بنائها، من الاكتمال، ما يغري الباحث بإخضاعها لأحكام بحوث علم النَّفس لتبرير ما يبدو له في سلوكها من شذوذ. (وما إن بدأت أمارس عملي...حتى وصفني بعض أتباعي بأني جَمَل. ومنذ تلك اللحظة أصبحتُ أعاني عن عقدة الجمل، وقد أصبح الحقد – وما أحلاه– يختفي خلف كل كلمة، خلف كل حركة، كل نظرة تصدر عنِّي...)[1].

وما يلفت النظر أكثر في حياة هذه الشخصيات أنها مشغولة بنفسها. تبدو متوحشة، مفعمة بروح التجبر والانحراف وإيذاء الغير. (قبل أسبوع جاءني رجل، يقترب من الكهولة، وسألني بلطف – واللطف لا يهمُّنِي في وظيفتي..لا يهمني من جانبه – عن طريق الحصول على وثيقتي، فذكرت له أشياء كثيرة...لأن وجهه أعجبني، فقد كان يطفح أملا وبشرا، ولعله يقف لأول مرة في شباكي..برأسه! ...).

وإليك حال الرجل فيما بعد: (وانتهيتُ من صاحبي هذا، وانتهى منِّي بعد خمسة أيام، إذ سلمتُ له الوثيقة، التي أرادها مِنِّي..بتوقيعي! وكان وجهه حين تسلَّمها حزينا، كان منظره رائعا بالنسبة لي..ما أجمل الحزن في الوجوه أمام شباكي! ..)[2].

وتتضافر طرق وأساليب عدة على تحقيق السخرية، بتصوير الشخصية في وضعية تبعث على الاستهزاء منها بغرض تقويم سلوكها على هذا الأساس.

لهذا، فقد يعمد القاص إلى "حقن" القصة، في نقطة من مجراها، بقصة أخرى كنوع من الإثراء السردي.

ودورها هو تركيز الأثر الذي يرغب أن يتركه القاص في القارئ عن بطله ليضاعف من نفوره ودهشته منه. فقد نصادف الراوي يقول لنا، في نقطة من مسار القصة : (لذلك أود أن تتأمَّلوا في الحكاية التالية، التي وقعت لي قبل أيام قليلة...)[1] أو: (وأرى من واجبي أن أقدم لكم صورة لآخر عمل قمت به...)[2] أو: (ما وقع لي اليوم يؤكد...)[3].

وقد يستند القاص إلى الحبكة القصصية في تناقض بين جوهرها أو مظهرها، وبين بقية الشخصيات قصد الوصول إلى تحقيق فكرة السخرية. (وكثيرا ما يحدث أن يطل رجل من الشباك، وقد أخفى جميلته خلفه، ويهمس في اللَّيل: عيب يا أخي! نريد أن ننام، إنَّ وراءنا عملا. ونحن في حاجة إلى الراحة. الساعة تقترب من الثانية صباحا، أليس هذا عارا عليك؟ أليس لديك إحساس إنساني؟...

وفي أثناء ذلك أنصرف أنا إلى الرقص..هاتفا: يا عمري.! قوموا أيها النائمون، تعالوا لتروا الهز والحركة، لتطلعوا على فنِّي الخاص..

وعندما أرقص أثير الغبار هنا..وأضرب البلاط هناك بقدمي ضربا شديدا، أستخرج صوته هو الآخر، واجعله يحيا في الحي، أترك ساحة الحي

8.
43.

كلها تضطرب معي، وكم يعجبني أن أستدير لمشاهدة الغبار خلفي، ولو كان يتصاعد من حذائي،...)[1].

وتتحقق السخرية من تأثير النص ككل غير أن فقرات، أو جملا، منه، قد تمارس تأثيرا أقوى من غيرها. وقد يفاجئنا القاص بذلك، في شكل سخرية مبطنة، من أول وهلة. فإحدى القصص، مثلا، تبدأ هكذا: (أنا، وما أحلى أنا، مسؤول قسم الموظفين في مؤسسة وطنية،...)[2].

وتستمد هذه القصص قوتها وحيويتها وغناها أيضا، من أساليب فنية عديدة منها:

الحوار والجدل: (أليس من واجبي بعد وأنتم ترونني يوميا، أن أذكركم بأنَّ الدنيا لا تخلو أبدا من ابتسامة تروق، أتدَّعون أنَّ ابتسامتي غير طبيعية)[3].

تقديم أسئلة وإجابات فرضية: (ثم إنَّ لي، كما قلتُ، صحبي...مهمتهم قد تقتصر على الدفع وإثارة الاضطراب، والصياح...وأنتم تعرفون الغرض من هذا نعم لم تخطئوا، فالمقصود منه جلب انتباه الناس..بعيدا..بعيدا عن جيوبهم السمينة والهزيلة على حدٍّ سواء.)[4].

زلاَّت اللِّسان: يقول أحد الموظفين: (وقد دخلت أنا الوظيفة مسؤولا. ولا تسألوا بعد كيف التحقت بالقضية، عفوا بالوظيفة، ولو أنَّ الوظيفة قضية بالنسبة لي! ...)[1].

تحريف الكلمة لتؤدِّي معنى جديدا: (قلتُ إنِّي دخلتُ الوظيفة مسؤولا، وقد اعتبرني م. دين، مثلما اعتبر غيري، مسهولا، وأعترف أنه كان على حق فيما يخصني بالدرجة الأولى؛ إلاَّ أنِّي أتوفَّر على تصوُّرات خاصة في المسهولية...!)[2].

الكناية الرامزة: وذلك حين لا تسمح الاعتبارات الاجتماعية بالتصريح فتتحقَّق، في النص، ملابسات غير محدَّدة مما يسمح بتأويلات متعدِّدة[3].

التورية: ولعلها أكثر الأساليب ورودا، في هذه القصص. وإضافة إلى دورها في الدلالة على معانٍ خفية يستخدمها القاص استخداما خاصا يجعل الأفكار تتوالد من بعضها بعضا. (أعرف، كما تقولون، أنتم، من أين تُأكل الكتف.

واسمحوا لي أن أُدخل هذه العبارة في فلسفتي الذاتية، فهي عبارة تروق لي حقا، وتعجبني فيها الكتف خاصة ! الكتف هي التي حملتني إلى المصلحة وأجلستني فوق كرسيِّها الوثير، ومع ذلك فأنا على أتم الاستعداد لأكلها إلى إنْ هي تنكَّرت لي، وحادت عن طريقي!)[4].

هذه الأساليب التي وقفنا عند بعضها، ممَّا يبني الشخصية، ويحقق السخرية، ويُغني المعنى ويبعده عن "حبائل" واقع أوَّلي يُغري بالصدق، لكنه في حقيقته مخادع!

وما يجب أن نلتفت إليه أيضا، أنَّ القاص نقل إلينا قصصه بصيغة المتكلِّم، هذه الصيغة أسهمت في توفير الجو الدرامي في القصص؛ فالراوي/البطل شبيه بالشخصية المنفردة حين تُعَبِّرُ على "الرُكْحِ" وتخاطب جمهورا موجودا بالفعل، أو مفترضا، وتتوقَّعُ منه استجابة ما مما يجعل الحدث يتطور وكأنَّه يقع تحت أبصارنا!

لقد عرف أبو العيد دودو، حقا، بأسلوبه الذي يجمع بين اليسر والدقة، وبفكاهته وسخريته كيف يحدِّدُ نقاط الضعف في عادات المجتمع ويغوص في أعماق النفس الإنسانية فإذا نحن إزاء أديب أصيل متميِّز بفنه.

" دار الثلاثة " و" الطريق الفضّي "

المبررات الأسلوبية لحضور الفعل الحكائي
عند القاص الجزائري: (أبو العيد دودو)

أ.د. علي ملاحي / كلية الأداب واللغات – جامعة الجزائر

النص الأدبي مهما كانت طبيعته قابل لإجراءات الاختبار القصوى لمكوناته .. هذه سنة القراءة .. التي تهدف إلى تحديد هوية النص المقروء. إنه لا يمكن أن نصل إلى عوالم النص بما يحمله من قابلية للتأويل والمدارسة[1].

---

1. ذلك هو القصور الذي يؤمن به رولان بارت في كتابه لذة النص. انظر ص 31/30 ترجمة فؤاد صفا والحسين سبحان توبقال للنشر. ط1988/1 المغرب. انظر أيضا: العرب والفكر العالمي /ع3/ صيف 1988/مركز الانماء القومي بيروث. النص والتأويل ليس ريكور. ص 36-52. ترجمة منصف عبد الحق. خلاصة هذا التصور أن لا يقتضي امتلاك المعنى الداخلي للنص. انظر ص: 52

من هذا المنطلق جاء تأسيس قراءتي لنموذجي دودو القصصيتين: الطريق الفضّي. ودار الثلاثة[1] ضمن مدار يسعى إلى الإحاطة بحيثيات النص القصصي من داخله بما يجعل به من قيم دلالية ولغوية وانساق تركيبية مهمتها الوظيفية تجسيد حقيقة الواقع ضمن نسيج قصصي له خصوصياته المتوافقة طرديا مع الواقع العيني في شموليته الإنسانية الحضارية المعرفية كبنية ثقافية لها حيزها الزماني والمكاني ولها علاقاتها المتفاعلة مع قيم الحضارة في سموها ونصاعتها[2].

دار الثلاثة، والطريق الفضي مجموعتان قصصيتان تختلط فيهما روح الدعابة بالجدية، يختلط فيهما الإحساس بالواقع المعرفي الفلسفي. لذلك نجد البنية القصصية مميزة في نطاقها الدلالي، حافلة، حاشرة للكثير من القيم المعرفية[3] التي تشير صراحة إلى انبساط يد القاص على حركية شخصياته كفعل لغوي، وكحقيقة إنسانية وهي ترسم الحدث القصصي في بنية قصصية درامية تتراكم فيها مجموعة من القيم التبليغية تراكما ثقافيا معرفيا يتعمده القاص، ويُسَرْبِلُ به خطابه القصصي ليجعل من مكوناته الأدائية

1. الطريق الفضي: مجموعة قصص: أبو العيد دودو. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1981، دار الثلاثة. وقصص أخرى. أبو العيد دودو/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.

تتوزع طبق مقتضيات الحدث القصصي الذي يصنع القاص خيوطه، ويخلع عليه سمة المشروعية الإبداعية، لدرجة تبدو البنية القصصية مقولبة ضمن زجاجة لغوية شفافة، لا يتحرك فيها الملفوظ اللغوي إلا على صراط يرسمه القاص، ويعطيه وظيفته الإشارية والتركيبية [1] ولا غرابة في ذلك إذا وجدنا القاص يلاعب شخصياته القصصية بفعل اللغة، ويجاريهم في سمرهم وحزنهم وفرحهم ودعابتهم بطفولة تارة وبدهاء تارة أخرى.

أوثر في هذا الشأن أن اختزل تصوري لأتتبع بعض خصوصيات النص القصصي التوصيلية عند دودو (أبو العيد) بالوقوف على ملامح أسلوبية دلالية محددة بعينها في خطاباته القصصية بما تحمله من شحنات دلالية فياضة وبما تبوح به من أسرار تعبيرية نرى فيها تمثيلا تركيبيا ودلاليا وتعبيريا قابلا للمعاينة والوصف، بالاعتماد على مقياس تكررها أو تداولها سياقيا.

إن النص القصصي المظفور على وتيرة درامية متنامية يأتي الحدث القصصي فيه متشعبا في سرديته متتابعا متواليا متداخلا مسهبا في الوصف والنقل والتعريف بالأشياء والأسماء، بشكل يحتم على القارئ المتفاعل معه تفاعلا صامتا وبريئا مراجعة الذاكرة القصصية ويحيله إلى تجميع المعلومات التي تشكل بنية الحدث القصصي. ويمكن اتخاذ قصة معدن الكلمة

[1]نموذجا يستدل به على هذه الخاصية الأسلوبية.. ولعل ذلك ما يدعوه إلى جعل الحوار القصصي كثيفا في بنيته اللغوية التركيبية متتابعا في شكل سؤال وجواب عادة .. في صيغة تحقيق مهذب ولطيف. ويتدخل في العموم بوضوح – مرسل النص – في صناعة الجملة الحوارية يصطنع الكلمة المفردة المستعملة ويهذبها أدبيا. ويدخلها في نسيج مشبع بالفصاحة الأدبية[2] ولهذا يمكن القول أن المظهر الدلالي للنموذج النصي القصصي في منحاه اللغوي الإشاري الدال يدفع المعجم القصصي إلى التعبير الفصيح مع إحالته إلى مفهومه المرجعي لا الانزياحي. ولهذا تتميز الكلمات ذات المدلولات المحددة في نطاق النسيج القصصي بشفرتها اللغوية ذات النبرة الإيقاعية المنتظمة السلسة الفصيحة رغم تطعيمها أحيانا بمسحة واقعية شعبية بهذا الشكل الأدائي:

1. في قصة (معدن الكلمة) يعبر أبو العيد دودو بهذه الصورة الدرامية التي نحس فيها بقوة حضور القاص في الحدث الدرامي: "دنا من مكتبها وقال: الأخ أبو عجينة موجود؟. رفعت إليه عينين كابيتين: ماذا تقول؟. وأعاد سؤاله، فتأفف: ومن يسأل عنه؟ جلس إلى كرسي دون أو تدعوه إلى ذلك. ثم أجاب: قولي له أبو صعدة أنا على موعد معه ... ص 178 – 179 يوضح هذا الموقف من خلال صيغ الحوار واختيار الأسماء والألفاظ أن القاص يصنع الفعل القصصي. ولهذا يغلب على المحور الدلالي القصصي عنده فلسفة خاصة يحتك فيها الواقعي بالمعرفي وكاني بالقاص يلاعب شخصياته بروح من الدعابة مثلما يلاعب القط الفأر.. وغرضه من ذلك الوصول إلى تبرير الفعل القصصي واعتباره قضية اجتماعية قابلة للعلاج.

2. نلاحظ على القاص استعماله للكلمات العامية ووضعها في شق فصيح بهدف جعلها مستساغة أو لا وبهدف اعتبارها عنصرا من عناصر الاثارة وبعث نوع من الشبهة والحيرة لدى المتلقي:

- فاقوا ضحك محمد حتى سالت دموعه وقال هو يمسحها من عينيه يا مصطفى، مرابطتنا تعرف صاحبتها جيدا. تفهم طبيعتها. فاقوا. فحدجته يمينة بنظرة حانقة والتفتت إلى أمها تشكو:
- اسمعت ما قال محمد؟
- فقالت الأم:
- لاتسمعي كلامه أنت واتركيه يخرف يا ابنتي. لو سمعت أنا كل ما يقوله هؤولاء الأطفال لخرجت من عقلي من زمان. يكفيني الهم الذي عندي ص 109 دار الثلاثة.
- وما نلاحظه في هذه اللغة الحوارية السردية جمعها الواضح بين الصيغ الفصيحة والعامية وكثيرا ما يعمد إلى تفصيح الإشارات العامية.

"نزل الدرج، وهو ينظر إلى قدميه مفكرا، وتوقف في الطابق الأول فجأة، وضرب بيده عل رأسه ..." يفضل القاص في هذا المجرى تنامي الحدث سرديا على خط حكائي ممتد. لا يسعى فيه إلى اختزال الحدث في شموليته أو بنيته اللغوية، أو الحدث في جزئياته. إذ يجري الحدث في تتابع منتظم مرسل يأخذ بمفهوم بلزاك الجزيئيات بعين الاعتبار[1] يرصد جزئيات الواقع بشكل متعال، ضمن عملية التقاط مجهرية للعناصر الصغرى للحدث كأفكار جزئية تتكامل وتتواتر لتغطي الحدث الشمولي [2].

عملية التقاط العناصر الجزئية التي تبلور النص القصصي عند دودو من خلال ما احتوت من إفرازات قصصية تجعل النص قابلا لاختزال بنيته إلى وحدات قابلة هي بدورها للاختزال والتلخيص مما يعمق فينا نقديا حيل النص القصصي إلى الأسلوب الحكائي الذي يجد فيه القاص لذاته اللامتناهية. متوافقا في ذلك مع المفهوم الكلاسيكي الذي يؤثر خاصية الوصف الدقيق المسهب بتأديته وظيفة تجميلية تعمق النص القصصي وتثريه وتجعله مميزا بالفخامة والترف[3] في تصور تقاليدي في التعامل مع الحدث

1. يؤثر عن بلزاك هذا التوجه في الكتابة القصصية انظر: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي د/ صلاح فضل. ص 16 ويكفي هنا أن نشير إلى تلك الخصومة التي أحدثتها قصة مدام بوقاري لفلوبير لتبنيها فكرة الموضوعية في نقل المواقع وهو التصور نفسه الذي عمل به بلزاك وكان بذلك أول من أدخل مصطلح MILIEU الذي يعني البيئة. انظر ص 15، ص 16، الهيئة العامة المصرية ط1 /1978، انظر أيضا موسوعة المصطلح النقدي ج3، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1983/1 بيروت، انظر ص 39، 40.

2. نلاحظ ذلك في قصص (أبو العيد دودو) حتى كان عملية الالتقاط الواسعة النطاق لجزئيات الواقع تبدو مثيرة جدا. إذ لا تكاد تخلو قصة من هذه الخصوصية التي تؤمن لنفسها الحضور بالشكل الذي لا غنى للنص القصصي عنه. انظر مثلا قصة سامر الحي، ص 5 – 16، من مجموعة دار الثلاثة، وانظر قصة المفزر الوردي/ ص 147 – 171 من مجموعة الطريق الفضي.

3. انظر مثلا المقطع القصصي الثاني أو الفقرة الثانية من ص 8 من قصة سامر الحي من مجموعة دار الثلاثة.

القصصي، تتقولب محاور القصة على نحو يبدو متجانسا على عمق تخالفه وتنافره. بدليل أن القراءة الواحدة لهذا النموذج القصصي المنسوج على هذا المنوال كافية لاستيعابه والإحاطة بمدلولاته، لا لأنه آلي الدلالة ولكن لأنه يحمل شحنة دلالية على قدر من الوضوح والانطلاق.

إن ضيق المحور الدلالي في النص القصصي يجعله بسيطا في أبعاده غير ثري في بنيته التركيبية والصوتية والتنظيمية، وليست الدقة في الوصف الخارجي للشخصيات القصصية أو رسم ملامح الحدث إلا استعراض لمجموعة من القيم الاجتماعية المتدفقة بشكل عبثي، قد لا تكون له أهمية دلالية أو تركيبية في بنية الوحدة القصصية.

لنتابع شغف القاص بالأسلوب الوصفي الدقيق في نموذج (سامر الحي): " هو شاعر يركض خلف اللفتة الشاردة والحركة العفوية والخاطرة الرشيقة، شاعر ذو عواطف مستعرة ومشاعر مرهفة وأخيلة واعية وذوق أنيق مترف تفتنه اللفظة المشحونة الموحية وتسحره العبارة الهائمة المجنحة"[1].

ويعمد إلى سرد الوقائع بدقة وتفصيل على هذا النحو السردي الخطي اللغة، التقريري الدلالة، الواضح المبنى والمعنى:

" دخل المقهى وجلس في مكانه المعهود قرب الشباك الزجاجي الكبير حيث يستطيع التطلع إلى الشارع من خلف الستارة الشفافة يلاحظ الذاهب

1. انظر قصة سامر الحي، ص 8، دار الثلاثة.

والمقبل. كما أن في وسعه أن يراقب الجزء الأكبر من المقهى، دون أن يفوته شيء أو يخفي عن نظراته الداخل أو الخارج من الباب الواقع عن يمينه إلى الأمام منه"[1].

هذه البنية القصصية التي تظهر متآلفة سياقيا تستهلك أكب قدر من اللغة دون أن تقدم القيمة الدلالية الأدبية المتوخاة نصيا .. القادرة على تجاوز المألوف القصصي. وقد كان في وسع اللغة أن ترسمها في جملة مركزة لاتتجاوز الجملة الواحدة.

لقد كشفت لنا القراءة النقدية لنموذجي دودو القصصيين عن ملمح خاص أسلوبي في دار الثلاثة تمثل في الجملة ذات النفس الدلالي والتركيبي والصوتي ولا أسميها الجملة الطويلة لأن طول الجملة قد يكون مبررا في الوقت الذي وجدنا هذا الملمح يأخذ خاصية وحدة أسلوبية تعمل على تنمية الحس القصصي ولا تحقق الدلالة إلا عندما تتم عملية قراءتها أفقيا دفعة واحدة، وقد تجلت هذه الوحدة في الطريق الفضي أيضا مما يدل على وجود باعث إبداعي لجريان هذا النموذج اللغوي التعبيري وهو نسيج ينتج عنه دون شك رد فعل عند نهاية فعل القراءة يحيلنا إلى المرجعية التعبيرية الذي ينشأ في غمارها النص القصصي عند دودو (أبو العيد)، وقد وجدناه عادة يعمد إلى كسر الجملة ذات النفس الدلالي بجملة مركزة وأكثر، ربما يعيدها البعض إلى طبيعة التجربة القصصية كمرحلة تاريخية[2] لكن هذا غير

1. نفسه، ص9.
2. هذا ما يعتقده بعض الدارسين للقصة القصيرة في الجزائر مثل أستاذنا عبد الله ركيبي وكذا المرحوم الدكتور محمد مصايف، ونحن نعتقد غير ذلك. ونعيد السبب إلى طغيان الفعل الحكائي على المحور

صحيح لأن الأثر النصي لا يقرأ بموقعه في الحيز الزماني أو المكاني – ولأن القراءة التي ننشدها أن إمكانات النص المقروء عن كثب بعيدا عن الملابسات التاريخية .. ولو خول القارئ لنفسه ممارسة عملية إسقاطية على النص لكان التأويل أو فعل القراءة عملية جمركية تدفع النص إلى مراجعة نفسه بنفسه، في وقت أصبح الأثر ملكا للجميع بعد تحققه العيني على اختلاف المواقع المتلقية وانتماءاتهم وتصوراتهم وإمكاناتهم اللغوية والمعرفية والإبداعية.

إن القارىء سيد نفسه، ولهذا تتخذ القراءة موقع الحكم الفعلي لميلاد النص وخروجه إلى الجمهور العريض[1].

إن النص القصصي في نموذجيه بما احتواه من تراكمات لغوية ودلالية جدير بوقفة قرائية أسلوبية دلالية ترسم ملامحه أسلوبيا وبنيويا.. ولا أعتقد أننا في غنى عن ذلك. لقد أثبت النص القصصي ذاتيته وكيانه في البنية الفكرية الجزائرية بصورة مثلت الواقع في بعض حيثياته على الأقل على الرغم مما قد يقال في ذلك.

إنني على قناعة نقدية أن نموذج دار الثلاثة لأبي العيد دودو، بوجه خاص ومعه حرائق البحر لعمار بلحسن والشهداء يعودون هذا الأسبوع

القصصي عند أبو العيد دودو. وهو توجه نجده عند يوسف إدريس في تجربته القصصية في منتصف الستينات، وقد لاحظ كوبر شويل أن يوسف إدريس كان يعتمد ذلك في محاولة للتخلص من آخر التأثيرات للحدوثة وتحرير نفسه من تأثير مكسيم جوركي وتشيكوف. انظر مجلة فصول/ع، سنة 1984، ج 5، ص 133 (العدد الخاص بالأسلوبية) الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

1. انظر النقد والحقيقة (مترجم) رولان بارت. ص 55، ص 86، ترجمة إبراهيم الخطيب، مراجعة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين. ط85/1.

للطاهر وطار تمثل بعمق واجهة النص القصصي في الجزائر ولهذا فإنها تحتاج إلى اختبار النقد يعاين إفرازاتها التعبيرية، ويصف ملامحها، ويعاين ما يحتاج إلى الإحصاء والكشف والتحليل والسبر.[1]

القصة عند دودو تبدو حالة حكائية أو هو أراد لها ذلك – وهي وجهة نظر إبداعية وانطلاقا من ذلك التشبع جاء مظهرها التركيبي البنيوي فيها إحساس متصاع لصناعة شيء ضمن آلية لغوية تتفاعل سياقيا لتعطي في نهاية الأمر خطابا قصصيا يركز فيه على عنصر الإثارة القصصية في محاولة لجلب حواسنا إليه، يتجلى الراوي وهو يرسم ملامح الشخصية القصصية في حالة طقوسية قلقة فضفاضة متوجسة إلى صناعة الحدث بناء على عنصر المفاجأة باستمرار على نحو ما يتجسد في قصة الغرض.[2] إذ تكون المفاجأة معنوية في قصة معدن الكلمة عندما يكتشف أبو صعدة أنه سيكون أمام مواجهة حادة إزاء خصمه أبي عجينة البيروقراطي: " لقد أصبت عدم التخصص تخصص".

---

1. انظر في هذا الشأن: أساليب السرد في الرواية العربية. د/صلاح فضل دار سعاد الصباح. ط1/1992 – إذ يلاحظ الناقد انتهاء سيادة الإيديولوجية وشعاراتها القديمة . . . فقد اتضح أن مستويات التوظيف ترتبط بالانجازات التقنية والجمالية، ودخلت علوم اللغة بصرفها ودلالتها ومباحث الأسلوب بإشكالياتها المتعددة وأدواتها الإجرائية . . .ص9.

2. انظر ص 177، من مجموعة الطريق الفضي، يلاحظ في هذا الشأن ذلك التواتر الواضح بين القاص أبو العيد دودو من خلال مجموعته الطريق الفضي والقاص عمار بلحسن في مجموعته حرائق البحر وكذا الطاهر وطار في مجموعته الشهداء يعودون هذا الأسبوع، وتمثل هذه الأعمال نماذج بارزة في الكتابة القصصية الجزائرية التي يعتد بها لدى الدارسين.

- حرائق البحر. مجموعة قصصية لعمار بلحس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981، والتي نجد فيها تقاربا وتناصا واضحا بين قصة الولادة خارج المدن، وقصة معدن الكلمة.
- الشهداء يعودون هذا الأسبوع. قصص. الطاهر وطار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط2 ونجد فيها نوعا من التوازي والتناص بين قصة زوجة الشاعر الطاهر وطار وسمر الحي (أبو العيد دودو).

لقد اكتشفت أنه في حاجة إلى مواجهة الواقع في معركة ترسي دعائم المفاهيم الاجتماعية الجديدة. إن تركيز القاص على عنصر المفاجأة ذات النبرة الإيقاعية الحادة والحاسمة قد ساهم إلى حد بعيد في توشيح النسيج القصصي بهذه الهالة الحكائية التقليدية المجارية للأعراف القاعدية النقدية، والنصية الإبداعية، والتي تتأسس أولا وأخيرا على فكرة السيطرة على عقل القارئ لادفعه إلى مشاركته في التأمل والتفكير. وفي ذلك تتجلى أدبية القصة عند (دودو) باعتباره قارئ مجتمع لا رقيبا اجتماعيا.

إن فعل القراءة لنص دودو القصصي ليقودنا إلى أن نتحول إلى أتباع سذج لشخصياته القصصية ولا يسمح لنا بانتقادهم أو مشاركتهم وجدانيا على بصيرة..

إن مرسل النص أناني إزاء القارئ لا لأنه يصر على جلبه داخل حلبته القصصية محروما من أبسط حقه في تشريح النص واختباره وتحقيق احتمالاته الدلالية. إنه يشجع فينا القراءة الفضولية بكل سلبياتها، ولا يمنحنا حق المراجعة والتأويل[1]، يصرّ في ذلك على أحادية الحدث بالتالي. ومن ثمّ فإنّ توقعاتنا القرائية عادة ما تكون استهلاكية متواترة مع فلسفة خاصة هي من فعل مرسل النص وليست هوية في النص ذاته.

1. يفعل ذلك أبو العيد دودو مع أنه يقرّ في (صور سلوكية) أم من أعماق الجزائر (صور سلوكية) أنه لا يتدخل في خصوصية القارئ وأن القراءة عيون. انظر المقدمة ص1، انظر أيضا ص 153 – 156، نشر دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع – الجزائر.

لنقرأ مثلا قصته (يدي على صدري) التي يرسم فيها حالة العوز التي يعيشها التلميذ (رشيد) ومع ذلك يتنازل عن كيس النخالة لذلك البائس الذي يحمل طفله في ذراعه وهو يأكل كسرة نخالة والذباب حول فمه وعينيه. ومن شدة بؤس الرجل لم يصدق عندما تنازل رشيد البائس هو الآخر عن كيس النخالة لحسابه دون مقابل، وكبرت المفاجأة عندما اكتشف رشيد قطرة حمراء في بصاقه، قادت عقله الصغير الكبير إلى الاعتقاد بأنه مسلول، وتكون المفاجأة أعمق أيضا عندما يبوح لعمته بوصفة الطبيب وكيف أعطاه أستاذه رسالة إلى الطبيب ليعالج، وتتعمق المقجأة في تتابعها وسرديتها عندما يكتشف بعد حالة ذعر قصوى أن نقطة الدم في واقعها آثار الصبغة التي كان يبيعها طول النهار مقابل فرنكات قليلة[1].

هكذا ينبني المحور القصصي عند القاص. وهو في عمومه يتجه في هذا الخط المنفتح على فضاء الواقع بسذاجته وعفويته. إن عنصر المفاجأة ليس مظهرا خاصا بدودو وحده بل تتطلبه كل وحدة قصصية، ويمكن تحديد هذا التميز وإجلاء هويته في قدرة القاص على خلق سلسلة من المفاجآت، ويمكن وصفها بالمفاجآت المتتابعة التي تجعلك أمام مجموعة من البنيات القصصية المختلفة، لكن القاص عادة ما يعيدنا إلى جوهر الفعل القصصي كحدث حركي متناسق على نحو ما .. يوحي بتحكم القاص في مجرى

1. أنظر ص 49 – 74.

الحدث كرؤية شمولية تتواصل بفعل تداخل وتكامل مكونات النص القصصي وتضافر وحداته البنائية[1].

في هذا النطاق القرائي المعرفي يبدو القاص على هوس عميق بالجملة الفعلية الماضية، إذ توكل إليها كحركة زمنية مهمة جمع مشيات الحدث وتمكينه من التناسق في خط متتابع على هذا النحو الذي نلمسه في مجموع مكونات الأثرين: دار الثلاثة والطريق الفضي طولا وعرضا.

إن كثافة الفعل الماضي وتواليه ضمن نسق جملي فعلي ماضوي بهذا الشكل المشاع: " خرج ←اتجه ← حرص ←عقد النية .. وضع ديوانه .. ثم خطر له فجأة .. كان يعلم .. اقتربت .. وقف .. دخل المقهى .. كان الشاعر .. ما أن أخذ . . طفق يسحب ..."

لقد اتخذ النظام الفعلي في حركيته الزمنية الماضوية شكل ملمح أسلوبي بارز في مجموع البنيات القصصية باعتبارها وحدات نصية صغرى ضمن سياق نصي أكبر هو مجموع النصوص القصصية عند دودو. وهي

1. تكشف اللغة القصصية عند دودو عن حسه الدرامي وروح المعاناة الاجتماعية التي تختفي خلف الانساق القصصية عنده، لذلك عندما نقرأ قصصه لا نحس بوطأة اللغة القصصية، لأن اللغة عنده يسودها نوع من الصفاء والشفافية وخلوها من الأدلجة والسياسة والصراعات الحزبية يجعلها في متناول كل الرؤى الاجتماعية، ولذلك فإن قصص دودو ليست قصة مرحلة بل هي نماذج تعبيرية مفتوحة الأفق وغير منغلقة ولا متحجرة المعنى.

كأثر مشبع بالزمن الماضي عبر أنساقها المنتظمة يمكن أن نمثل لها بعشر جمل نتداولها هنا:

" 1 نزل من الحافلة، 2 نام نومة هادئة ومريحة، 3 استيقظ على أنغام الطبل والمزمار، 4 تمنى من قلبه ألاّ يكون عرس حضرية،5 استسلم لثقل النوم، 6 رآها في حلمه، 7 نهض يرتدي ملابسه، 8 سار في اتجاه الطبل، 9 لقد سبقني إليها، 10 لقد أحببتها عن وعي".

هذا التتابع الآلي للفعل الماضي، يحمل مبرراته التركيبية ضمن بنية النص القصصي المفتوح على بنية فكرية إبداعية، آثر القاص أن تدور فيها محاوره القصصية متبلورة في بنائها على الطابع الحكائي الذي يستمدّ مقوماته الثقافية من منطق (كان يا ما كان)[1] لهذا كانت الشبكة الفعلية الماضوية في تواليها عبر الأنساق القصصية كلها ناجمة عن هذا الامتداد الفعلي الحكائي.

لنضرب مثلا بنموذج (أبو شفة) في نسيجها الحكائي المبالغ في الوصف المسهب في ترجمة المكان: عندما وصلت التلّ، شعرت أن الرياح قد ازدادت شدّة وبرودة، فلملمت أطراف برنوسي حول الوادي، كان خرير مياهه، وكنت وضعت، غطيّتها، وانطلقت، شعرت فجأة، غمرني الفرح،

1. كان هذا الأسلوب شائعا في المراحل الأولى من الاستقلال وكان يستعاض به لملء الفراغ وغياب التلفزيون وكان محور الحدث الجدات أو العمات او الخالات وعادة ما كان يكثر هذا الأسلوب في فترة الشتاء لأنه يتميز بليله الثقيل الطويل.

رحت أحدّث نفسي، أخذته، وضع أبو شفة، نظر أمامه لحظة خيّل إلي أنه . . . إلخ.

إن ما يزيد من عمق إيثار القاص للوحدة الزمنية الفعلية الماضية منساقا في المجرى الحكائي هذا البسط الواسع للفعل الناقص (كان) بصيغه المختلفةمع غلبة الزمن الماضي في أعمّ صور الاستعمال على هذا النحو:

" كنت واقفا أمامه، كانت تتجاوزني، كانت أصابعه، كان ذهول نظراته، كنت أسير، لكنه كان يثب، كان يحرس الجبهة، كنت قبلت لأول مرة .. الخ.

قد يقول قائل أو معترض إن استعماله عفوي أو فيه قصور من القاص، لكننا نرى خلاف ذلك إذ أن المبرر الفني سياقي تركيبي بحت يدّل دلالة بيّنة على هوس القاص بالبناء الحكائي في السياق القصصي، خصوصا مجموعة قصص الطريق الفضي..

غير أنه نتيجة لتطور المفهوم النقدي القصصي عند القاص وتعمّق تجربته فقد لاحظنا انحدار نسبة استعماله للفعل الناقص (كان) في دار الثلاثة. في قصته عرس الذئب نجد 71 حالة استعمال للجملة الفعلية للفعل الناقص (كان) من مجموعة الطريق الفضي، بينما لم تتجاوز في قصة قريتنا تتحدى على طولها 59 حالة استعمال للفعل الناقص (كان) من مجموعة دار الثلاثة[1]. يسعى القاص إلى تغيير وتحويل المدارالزمني في

1. حضور الفعل الماضي الناقص (كان) يشير بشكل عملي إلى الفكرة السابقة ويؤكده بل ويؤكد أنها تدخل ضمن فلسفة الكاتب.

كثير من الحالات، لكن محاولته تظل تراوح ضمن نطاق الزمن الفعلي الماضي عموما. في قصة المرابطة مثلا يقوم بهذه المهمة، إذ يلجأ إلى الجملة المضارعية بهذا الشكل: لم يتأخر موسم العام، لم يتأخر كذلك اللحم والفتات، لا يعرفون، تتخللها، تصبّ، يقترن ...إلخ. لكن الفعل الماضي يثبت حضوره في النسق القصصي ويظل أليف البنية القصصية في عمومها لا يبرحها، وتظل المسحة الغالبة رغم شيوع الفعل المضارعي في هذا النوذج بالذات، لعلّ مردّ ذلك إلى نزوع القاص إلى الجملة الفعلية الماضية، حتى كأنها تبدو قناعة جمالية لدى الراوي ويعكسها في أسلوبه على نحو مماثل ويصرّ بذلك على إضفاء هوية لغويّة فعلية ماضية للنّسق القصصي لدرجة يختم سياقا قصصيا بجملة ماضية مثل هذه – وكأنها تأكيد منه على حضور الفعل الماضي: "اتسعت بسمته وغارت نظرته"[1].

إن الجملة الفعلية الماضية تتناسل داخل النسق القصصي وهو دمغته التركيبية الواسعة وكأنها عملية قسرية. ولهذا نجد القاص يعمد إلى العملية الاسترجاعية للمعطيات المخزونة في الذاكرة القصصية" يعمد القاص إلى رسم الخريطة التي تتحرك فيها الشخصية القصصية رسما دقيقا[2] ويمكن اتخاذ قصة (معاناة)[3] نموذجا دلاليا تركيبيا لهذا المنحى المؤسس على

1. انظر ص 16 من مجموعة دار الثلاثة وقصة سامر الحي.
2. الظاهرة واضحة في كتابات دودو القصصية، بل تتجلى قدرته على التمثيل الموضوعي للواقع- وتحرير الوقائع بشكل لا مراوغة فيه.
3. انظر ص 31-48 من مجموعة دار الثلاثة.

بنيات جملية تشير إلى استئناس النص بالعمليات الاسترجاعية التي تتهافت على الزمن الماضي في جملة من الصيغ:

"يغمض عينيه حينا ويفتحهما حينا آخر. يغمضهما لتصور ماضٍ.."

هذه السمة التعبيرية بالغة الانتشار في النص القصصي عند دودو وتؤكد نصيا هيام القاص بالبنية الفعلية الماضية. ويتأكد لنا هذا المنحى عندما نقف في مواجهة النص لأول وهلة، ولنجد أنّ القصص بنسبة 90 % تبدأ بجملة فعلية ماضية.

لنأخذ نموذج (دار الثلاثة) بَيِّنةً على ذلك: تتكون المجموعة من 11 قصة منها (8 قصص) تبدأ بجملة فعليّة ماضية مقابل قصّة واحدة تبدأ بجملة مضارعية وأخرى اسمية خبرها فعل ماض وثالثة تبدأ بصيغة استفهاميّة.

أكتفي بهذه الخاصيات اللغوية التي تحدد طبيعة المظهر التركيبي القصصي عند القاص الجزائري: (أبو العيد دودو) وسيرورته التبليغية والجمالية في نموذجي دار الثلاثة والطريق الفضي.

آمل أن تكون الفرصة سانحة لإضاءة واختبار بقية الإفرازات والخصوصيات اللغوية والأسلوبية والبنيوية والدلالية سعيا لتفكيك مجمل شفراته واستيعابها في محاولة لتثمين النص القصصي الجزائري عموما والقصة عند دودو بوصفه أحد أقطاب القصة القصيرة في الجزائر منذ بداية الاستقلال خصوصا. وقد استطاع أن يقدم الكثير من القيم القصصية ويثبت وجوده في عمق التجربة الإنسانية والعربية. وقد كان أبو العيد دودو إنسانيا

إلى أعمق حدٍّ. لذلك كان يحيطه هذا الهوس بالفعل الماضي، ممتثلا إلى الذاكرة القصصية في رحابتها وطهارتها ووجوديتها وكانت فلسفته الإبداعية في النسج القصصي فلسفة خاصة ترتبط بالواقع من جهة، وبالذاكرة القصصية الجزائرية في بعدها الخرافي والديني والجغرافي والثقافي المحمل بالأعباء والأمجاد على حد سواء من جهة أخرى.

تحيّة إكبار لا رثاء ..لأبٍ علّم بالقلم
جَسَدُ البَحْر هذا الصباح
مثحن بالبكا والنّوى والجراح
والسفائن مذعورة، والشواطئ
مكتوفة بالصيّاح
لوعة فوق كلّ الربوع تدق بكفّ الرّياح
يا .. أنا والدّروب إلى الجامعة ..
تحملُ الفاجعة ..
هي جيجل لا تعلم الواقعة ..
وحوانيت ديدوش تلبس أثوابها الفاقعة..
مر دودو بلا روحه .. قال يا صحبتي
نلتقي في السّما السّابعة

* * *

قال عند حميد نراك غدا
وغدا تطلع الشمس .. آتي لألقاك في بذلة أسدا..

هو دودو الذي شهدا ..
قال أعطيك من كتبي واحدا
وأزف إليك بشارة قلبي الكبير..
وعند حميد سألقاك .. غدا ..
قالها .. ومضى .. لم يعد أبدا ..
قيل لي لعبت شفتاه على ورق التوت ..
دونت صحوه عبر كلّ البيوت ..
حين أعلنت الأرض ميلاده
كان مثل المسيح نديّ المحيّا .. رفيق السكوت
مدمنا في القنوت
هو فيض حنان ... نعم ...
هن عطر كلام ... نعم ...
هو عشق سلام ... نعم ...
هو سحر هيام ... نعم ...
وإذا شئتم .. هو نبض صلاة ..

* * *

قيل كان محيّاه مثل الذهب
في يديه مفاتيح .. كل المرايا ..
وكل الكتب
نجمه ساطع .. في المسافات ..

عالي عالي المقامات .. صافي المدعى
لم تطله السّحب ..
يشعل النور في ظلمة ..
وإذا طلع النّور ساح على صدره .. وانسكب
والطيور تردّد أشواقه، والجداول ترسو
على كفه .. كاللهب ..
لا عجب..
كلّ أحلامه .. كل أحزانه .. مثل نعناعة
عطرها نبع حب ..
قيل عنه السماء التي تمطر
قيل عنه الهوى .. الأكبر
وإذا مرّ في تربة .. تزهر
قيل كان عريس .. وطن،
والندى. فمه ..
والشذا .. دمه
والعصافير ترسل .. إنشاده
والرياحين تطلق أحلامه ..
وإذا هبت الريح تطفح أسراره ..
هو كالبحر .. يعلن .. إكباره ..
كلّما طلع الفجر .. تصحو إلى الأفق أنواره ..

* * *

كلما اشتدت العاصفة
حمل الشّعر ملء يديه .. إلى الأرصفه ..
واثقا في خطاه ..
سارحا في هواه
يوقد الحبّ .. في كرمة زائفة ..
ويصب عناقيد أشواقه الوارفة
هو لايستحي أن يسمّي المرايا بأسمائها النالفة
هو لا يحمل في روحه .. دفلة .. من أنين ..
ومتى عبرت روحه شهوة راجفة
قال يا بلدي .. بلد الأنبياء بها
الشمس تشرق في كل أحوالها واقفة..
قبل هذي السماء التي حبلت بالأماني تعكّر في كفّها
بلد من هديل ..
في يديها جرت .. دمعة .. وعويل ..
مر في أفقها .. خلسة ..
نظر الناس من حولهم .. وجدوا طائرا من حرير يغني:
"بلادي .. بلادي .. حياتي .. حياتي .. وخير سبيل .."
حملوا شمعة .. قرأوا.. لا أحد ..
ربما كان وجه بلد ..

ربما .. كان طفل أحد ..
قيل كان .. هنا .. وارف الظل، يشرب فنجان حب ..
ويكتب بالورد .. أيامه ..
ومضت روحه .. خرجت من جسد ..
قيل مر .. على عجل ..
لم يعد ..
قيل دودو الذي لبسته الحقول
تكلم .. في لحده ..
قيل دودو ولد ..

* * *

قال لي مرة .. وعلى شفتيه
جداول مبحوحة الموعد ..
يا علي .. في الجزائر لي طفلة مثل نعناعة راقصة
حين تدخل في مهجتي تشرئب المدن ..
والمرايا تسجل زغرودتي
هل ترى كان طفلا .. بقامة شاعر ..
أم ترى كان حلما بقامة ثائر ..
أم ترى كان سحر هواء .. وموال عشق مكابر ..
هو دودو الذي عرفته الشفاه ..
حين كان يداوي القلوب بورد الأماني .. وفجل العلوم

يراودني اليوم في شفة العاشقين ..
ويسترق السمع من برجه ويراني قريبا .. ولست أراه
سوى في الشموع يربت في ضفة بدمي ..
ليصوغ حنين الجموع ..
يدغدغني بالرؤى في المنام ..
وفي الصحو يعلن توبته من هواي

* * *

لا تلوموا .. هواي ..
كل شيء إذا زاد عن حده ..
كسر العاشقين ..
وفناجين دودو التي أثلجت روحنا زمنا بالحنان .. تناءت ..
تدلت كما البيلسام ..
كما النور فوق الشفاه ..
ثم كان الذي كان جرحا يؤرق كل المناديل
كل التفاصيل، يشعل في جسمها زوبعة ..
قلت يا جيجل استرقي من يديه البيان
واكتبي في يديه شهادات عشق ..
وذوبي كما ينبغي في هواه ..
هو طفل وأنت سماه
ورؤاك صباه ..

كان يحبو .. كان يخطو .. ويكبر في كل شبر .. صداه
ويداك التي كتبت مبتغاه ..ولدته كما النجم ملء الضياء ..
ملء كل قراك .. وكل الأزقة ..
كان صغيرا كما الحلم حين يصل يحبك أكثر ..
ويسكر ملء برنوسه هدهد .. كالملاك ..

* * *

إن دودو الذي لم يغب ..
كان لي ياسمين .. لقاء ..
كان مثل الفضاء ..
واسع الصدر .. صحو الرجاء
كان أغنية .. وسحابة صيف ..
تدر الرخاء ..
كان فجلا .. وشهوة طير ..
وفيروز حلم ..
ونبع وفاء ..
كيف لي أن أسميه دودو ...
وقد كان .. أفق .. صفاء ..
لا تقولوا عن الشمس غابت إذن ..
وأركبوا سفن الحلم ... ملء القضاء
قدر الله .. هذا البكاء ..

قدر الله .. هذا البكاء ..
إن دودو الذي لم يغب ..
كان لي خير .. أب ..
قال لي مرة:
كلّ هذه الشفاه التي تشبه الأفقا.
تصنع الوهج في خاطري ...
وإذا نمت .. تغمرني بالقبل ..
عاشقا كان مثل عصافير قرطبة الساطعة
شيّقا كان يرسل تبسمته الرائعة
ولذلك كان يغازل في صحوه رابعة ..
ويسمى الضياء صلاة .. ويعبد في كلزهر
رياحينه الناصعة ..
هو دودو الذي لم يغب ..
إنما سافر اليوم في رحلة .. واسعة ..
ترك الشمس .. صمته دامعة ..
والأحبة في داره .. كلهم .. يكتبون ..
بخط الجلال .. قريحته البارعة ..
هو دودو الذي زف للأرض جثمانه
ثم عاد إلى وردة .. فضة ..
يتفقد أحوالها
تارة كان يحضنني ..

ويداعب في طفولة هذا الزمان ..
ويخاف عليّ من الحزن يغلبني ..
ملء وجدانه يحتسي حالتي ..
ويزف إليّ قصائده ..
وجداول أفكاره ..
ويسميّ. عذاباتي المستحيل
ويسميّ طريقي .. إلى بلدتي .. غابة وأنين ..
ويصعّد لهجته: كيف تبقى رهين سؤال ..
يحيرني .. يا بني ..
عادة كنت أرسم في رأسه قبلة.
وأسمّي الجزائر شمسي التي لا تغيب ..
فإذا جئته في غد
قال إن غدا .. جنة العاشقين.

*** ألقيت القصيدة في أربعينية الكاتب الراحل أبو العيد دودو، بقاعة النفق الجامعي – جامعة الجزائر.**

كلمة ابنة المغفور له أبو العيد دودو

نشكركم على هذه الالتفاتة الطيبة نحو إنجازات أبي تغمده الله برحمته الواسعة، وإنكم لتتذكرون جميعا أن الوالد كان شغله الشاغل خدمة اللغة العربية، وإنه ليسعد كثيرا بتوسيمكم جائزة اللغة العربية لعام 2004 باسمه لتوزع على الطلبة المتفوقين في اللغة العربية وآدابها.

إن زوجته وابنه وبناته جميعا لشاكرون لكم صنيعكم هذا. والله نسأل أن يظل مجلسكم هذا في خدمة الثقافة العربية وشكرا جزيلا لكم جميعا.

كلمة باسم المكرمين

أ. محمد صالح الصديق

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب المعالي

حضرات السادة والسيدات

إخواني وأخواتي

السلام عليكم جميعا ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد، فإني أتقدم باسمي وباسم الإخوة الأساتذة المكرمين الذين شرفوني بالنيابة عنهم، إلى المجلس الأعلى للغة العربية الموقر وعلى رئيسه الفاضل المبجل الأستاذ الدكتور محمد العربي ولد خليفة بأسمى عبارات الشكر والتقدير على هذه المبادرة الطيبة، ونسأله تعالى أن يديم على المجلس الموقر إزدهاره،

وعلى رئيسه توفيقه وتسديد خطاه على الطريق الكمال الممكن في هذه الحياة لتعيش اللغة العربية في هذه الربوع عصرها الذهبي الذي يليق بها !

أيها السادة

إن يوما يكرم فيه الفكر والقلم غير محدود بساعاته كغيره من الأيام، وإنما هو يوم بارز بين الأيام يتسع لمعان فخمة عميقة، أبرزها يقظة الأمة الجزائرية وحيويتها واعترافها بالجميل، وتقديرها لأبنائها العاملين المجدين !

ويعني هذا التكريم حفز الهمم إلى العلا، والدفع بالفكر والقلم إلى الإجادة والتفوق، في باحات الإبداع، وتفجير الطاقات المكمونة في النفوس حتى يكون عصر العلم في هذا البلد الحبيب، عصر الانسان الكريم، يشرق إشراق الشمس، ويقبل إقبال الربيع، فيهما للإنسان ما فيهما من النور الهادئ، والحرارة الدافئة، والنضارة والخصب!

ويعني هذا التكريم أيضا أن الأمة صارت تقدر سلاحا هو أمضى الأسلحة وأخطرها وتشجع جنودا هم من أخلص جنودها، وكيف لا وهذه الأدوات العظيمة: الفكر، والقلم، واللسان التي هي مناط التكريم في الانسان طالما طاولت العروش، وصاولت الجيوش وعاجزت الزلازل والعواصف، وثبتت على القمع

والاضطهاد وخرت راكعة أمامها حجافل الشرك والوثنية، واندحرت ظلمات الجهل والضلالة!

أيها السادة

إن هذا التكريم الذي يمثل في أبعد دلالاته الوعي الناجح، والنية الحسنة والعاطفة النبيلة والمشاعر الصادقة والفراسة الألمعية. موجه أولا: إلى الذين علمونا وكونونا ووجهونا من أبائنا وأمهاتنا إلى العلماء الأجلاء من الجزائر ومن غيرها رحمهم الله جميعا!

وثانيا: إلى الجزائر الحبيبة التي احتضنتنا وعشنا فوق أرضها الفردوسية نسمع في مجاري دمائنا أصوات أجدادنا الأماجد وهي تأمر وتوحي وترسم وتخطط وتحفز وتهيب!

وتالثا: إلى جنود الخفاء الذين وهبهم الله من نقاء الفطرة وقوة الروح وصدق الوطنية ما مكنهم الله من خدمة وطنهم ودينهم ولغتهم ولا ينتظرون من وراء ذلك جزاء ولا شكورا!

وأخيرا موجه إلى اشخاصنا نحن الذين يعجزون عن الوفاء بالشكر وعن التعبير عن خوالج النفوس، وخواطر الأذهان ولو تكلمنا بالوزن والقافية وعبرنا بالمجاز والاستعارة. وعزاؤنا في عجزنا هو أن ما نشعر به تلقاء أهل التكريم من

شتى الأحاسيس صورة شاعرية صوفية لا يصورها قلم ولا تحيط بها كلمات مهما بلغت من البلاغة والبيان!

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة بمناسبة حفل تكريم المتفوقين
في جائزة اللغة العربية الموسومة " أبو العيد دود "
أ .د. **سعيد بوشعير** / جامعي رئيس المجلس الدستوري سابقا

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية،

السيد رئيس المجلس الإسلامي الأعلى،

السيد رئيس المجمع الجزائري للغة العربية،

أصحاب المعالي، رؤساء الحكومات السابقة والوزراء،

السيدات والسادة الأساتذة والكتاب والإعلاميون،

أسرة الفقيد،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، نشكر الجميع على حضور هذا الحفل الكريم الذي نخصصه لجائزة اللغة العربية الموسومة باسم الفقيد " أبو العيد دودو " رحمه الله، وقبل الشروع في جدول أعمال هذه الندوة أدعو السيد الأستاذ إبراهيم طلاي لتلاوة آيات بينات من ذكر الله الحكيم فليتفضل مشكورا.

نتوجه بالشكر الجزيل إلى المجلس الأعلى للغة العربية وعلى رأسه الأستاذ الفاضل الدكتور محمد العربي ولد خليفة الذي مكننا أن نلتقي مع هذا المجمع الكبير من أعلام الجزائر في مناسبتين بالغتي الأهمية وهما شهر رمضان المعظم، وقدوم ذكرى أول نوفمبر المجيدة، حول موضوع جائزة اللغة العربية الموسومة باسم الفقيد الراحل الأستاذ " أبو العيد دودو " رحمه الله، تكريما لذكراه وعرفانا لما قدمه للغة العربية سواء في مجال القصة والرواية أم الترجمة أم غيرها من الأعمال الإبداعية والفكرية. فلقد تبوأ الفقيد الصدارة في مجالات القصة والرواية ونقل مجموعة من الأعمال الأدبية والتاريخية والرحلاتية الألمانية عن طريق الترجمة إلى لغة الضاد فساهم بقدر كبير في إغناء المكتبة الجزائرية، وبذلك كان على حق كما يقول سعادة سفير النمسا بالجزائر " من أفضل المحامين والمرافعين عن فكرة الحوار بين الحضارات ".

أما آثاره فنعتمد على ما يقوله صديقه الأستاذ نويوات " فأوسع من أن يحيط بها بحث مهما طال ومهما بذل صاحبه من جهد لأنه ثمرة حياة كاملة مليئة بعمل دؤوب لا يعتري صاحبه سأم أو كلل هدفه خدمة البشرية في اشرف معانيها " أو كما يقول الأستاذ عز الدين ميهوبي " فهو الإنسان أبدا ".

والثابت أن فقيدنا المرحوم دودو لم تقتصر نشاطاته على المجالات المذكورة آنفا، بل إنه إلى جانب الكتابة كان أستاذا قديرا ومديرا لمعهد اللغة والآداب لمدة 11 سنة، وعضوا نشيطا في لجان وزارية تقويمية، وفي اتحاد الكتاب، ومحررا في عدة مجلات وعضوا في هيئة تحرير المجلة الخاصة بالمجلس الأعلى للغة العربية، هذا المجلس الذي أنشأ هذه الجائزة مشكورا، والتي نشرف معا اليوم على توزيع جوائزه المختلفة التي سميت جائزة الفقيد " أبو العيد دودو " رحمه الله. والجائزة هذه تهدف من بين ما تهدف إلى ترقية الأعمال الجادة وتشجيع البحوث العلمية في مختلف المجالات بما يضمن أن تكون اللغة العربية لغة علم من خلال المضامين على اعتبار أن تقدم أية لغة مرهون بمدى نمو المجتمع وتطوره.

والحقيقة أن مثل هذه اللقاءات والتظاهرات الثقافية ينبغي أن تتوسع وتعمم، وبتدخل إيجابي من السلطات المختلفة عن طريق توفير جميع الوسائل، حتى ننفض الغبار المتبقى على ثقافتنا ونعرف بمثقفينا أمثال الفقيد، الذين نفتخر بأعمالهم وإبداعاتهم وما أكثرهم لحسن الحظ، ونؤسس لنخبة تنير الطريق أمام شعبنا إلى نهضة حقيقية، وهذا لن يتحقق إلا بتظافر جهود الجميع بدءً بالمعنيين أولا وبالمؤسسات المختلفة ثانيا، لأن موضوع التعريف بأدبائنا ومبدعينا وكتابنا في مختلف المجالات لا ينبغي أن يبقى قاصرا على لقاءات مناسباتية، ولعل مبادرة مجلسنا هذه التي نتمنى أن تكون بداية لعمل متواصل

وشامل لجميع مناحي الحياة الثقافية، هي من الطرق الكفيلة لتدارك هذا النقص، خدمة للثقافة الجزائرية بأوسع معانيها.

والسلام عليكم

كلمة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
الدكتور محمد العربي ولد خليفة
في حفل توزيع جائزة المجلس لعام 2004
وتكريم المرحوم أبو العيد دودو

يسعدني في هذه الليلة من شهر رمضان المبارك أن أرحب أجمل ترحيب بضيوفنا الكرام الذين شرفوا مجلسنا بالمشاركة في هذا الحفل الذي زاده شرفا رعاية فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة لفعالياته وحرصه الشخصي على نجاحه.

باسمكم جميعا نتقدم لفخامته بخالص الشكر وصادق التمنيات بالنجاح في مسعاه لنهضة الجزائر وتآلف القلوب وتحقيق مصالحة وطنية راسخة الجذور، مصالحة مع الذات ومع الآخر بدونهما لن ينعم شعبنا بالأمن والاستقرار وهما بداية الطريق نحو عزة بلادنا ورفاهية شعبنا.

إننا لسعداء بمشاركتكم لنا في هذا الحفل المخصص لتوزيع الجوائز في المجالات الأربعة للمسابقة التي ينظمها المجلس سنويا فهنيئا للسادة والسيدات الفائزين.

لقد ارتأى المجلس أن توسم هذه المسابقة والحفل كله باسم فقيدنا الأكاديمي د.أبو العيد دودو الذي تخرجت على يديه أجيال من الأساتذة والباحثين البارزين، وأغنى المكتبة الجزائرية بنفائس إبداعاته في القصة والترجمة والنقد، فضلا عن أخلاقه العالية وخصاله الراقية.

لقد كان المرحوم عضواً في رئاسة تحرير مجلتنا ومن أقلامها البارزة وهذا عدد منها بين أيديكم مخصص لشخصية دودو وجانب من إبداعاته.

لا ريب أن دودو الإنسان ودودو الأديب الفنان يبدأ الآن حياة جديدة في ذاكرة الأجيال، فتحية تقدير وتعاطف أخوي صادق للسيدة "إيما دودو" المحترمة وأبنائها ولسعادة د.مايكل بايير سفير جمهورية النمسا الصديقة واستسمحكم معالي السيد رئيس الحفل في التوجه بكلمات لسعادته:

I Would say some words while I have the flor to welcome our distingshed guest H.E. Thomas Michael Bair and MRS Bair excellency we highly appreciate your presence with us in this ceremony.

Tank you

كما عزم المجلس على مواصلة سنة حميدة ابتدأها في ملتقى تيارت المنعقد في 13-14 أكتوبر 2002 بتكريم شخصيات من أعلى طراز، خدمت الجزائر بالنضال من أجلها قبل خمسين عاما أو أكثر وتنسّكت في محراب العلم فأثْرت ثقافتنا الوطنية وساهمت في المحافظة على لساننا العربي المبين.

إنه من واجب الإنصاف والعرفان أن ننوّه بهذه الصفوة وأن نحيطهم بما يستحقونه من محبّة واحترام، ليكونوا قدوة للخلف ولتعرف الأجيال الناشئة أن الجدّ والجهد والإخلاص والإتقان هي من الباقيات الصالحات عند الله وفي ذاكرة الشعب والأمة.

إن هذه الجوائز المستحقة والتشجيعية، وهذا التكريم يصدران عن قناعة بأن العربية هي لغتنا الموحدّة ولسان عقيدتنا السمحاء، سجل تراثنا المكتوب وقطب رئيسي للوطنية الجزائرية لا تقصي أية لغة أخرى، وتتطلع إلى حداثة تؤصّلها وتأصيل يجدد مضامين خطابها، بعيدا عن التخندق الإيديولوجي والتصنيفات الاقصائية، فلا توصف أية لغة بالتقدم أو التخلف في حد ذاتها إن مثل ذلك التوصيف يصدق في الحقيقة على الشعوب والمجتمعات التي تستخدمها.

إن المجلس يفتح صدره لحوار الأفكار والإثراء المتبادل بلا أحكام مسبقة لخدمة الثقافة الوطنية في كل أبعادها وتشجيع الإبداع الفكري والأدبي والفني في الجزائر الوفية لجذورها وتجربتها التاريخية والمتطلعة لتشييد دولة الحرية والعدل والتقدم.

كلمة رئيس لجنة تحكيم جائزة اللغة العربية لعام 2004

أ. صالح بلعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، ذهب الظمأ وابتلت العروق، وتثب الأجر إن شاء الله

سيدي رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

السادة نواب الشعب

السادة الوزراء

السادة أعضاء المجالس العليا والمستشارون

السادة السفراء

السيدات الفضليات والسادة الحضور الأفاضل

باسم زملائي في لجنة جائزة اللغة العربية، وباسم الخبراء نقول لكم: طاب مساؤكم، وكل عام وأنتم طيبون، والصحة تاج على رؤوسكم ، ورمضان كريم، وصح فطوركم.

أيها الحضور:

لقد عودنا المجلس الأعلى للغة العربية على تنظيم التظاهرات والملتقيات العلمية الكثيرة وعلى تكثيف جهوده في إطار النشاط العلمي الذي يقيمه عن طريق منتدى: "**حوار الأفكار**" "**وفرسان البيان**"، **والموائد المستديرة، وإقامة الموسم الثقافي، وتنشيط الملتقيات العلمية والثقافية.**

وفي هذا المجال يقيم سنويا جائزة موسومة **(جائزة اللغة العربية).** والهدف منها هو البحث في قضايا ترقية اللغة العربية لتكون مطواعة ولغة علم وتقدم، وهذا اليوم تجمعنا جائزة اللغة العربية لسنة 2004م التي نحتفي بها، وقد سجلت حضورها في استحقاق هذه السنة الميمونة، حيث تحتفل الجزائر بالذكرى الخمسين لاندلاع الثورة التحريرية، فأجمل بها من ذكرى ميمونة عزيزة على قلوبنا حيث أعادت للجزائري كرامته وأرضه ولغته.

لمحة مختصرة عن سيرورة الجائزة: بعد المقرر المتضمن إنشاء مجموعة عمل مكلفة بالتحضير والإعداد لتنظيم جائزة اللغة العربية، توصلت لجنة الجائزة إلى تحديد مايلي:

الجدوى من الجائزة: وهي المساهمة في تنشيط المجال الثقافي عموما، والتشجيع على التأليف والترجمة إلى اللغة العربية خصوصا. ويتمثل هدفها في تشجيع أعمال الشباب الباحثين والمبدعين، وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية، ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية والمساهمة في ترقيتها، سواء كانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية أم مترجمة إليها.

تحديد المجالات: حددت مجموعة العمل مجالات خمسة وهي:

1/2 – مجال علوم اللغة العربية.

2/2 – مجال العلوم والتكنولوجية والطب والصيدلة وتاريخها.

3/2 – مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

4/2 – مجال علوم الاتصال والإدارة.

5/2 – مجال الأدب الشعبي في المقاومة الوطنية.

ضبط الشروط والمقاييس: وضعت المجموعة الشروط والمقاييس التالية:

* أن يقدم العمل باللغة العربية.

* أن يكون العمل أصيلا، ولم يسبق نشره.

* أن يكون العمل خاضعا للمنهجية العلمية.

وأما شروط الترشح فقد وضعت لجنة الجائزة الشروط التالية:

- طلب خطي.

- السيرة العلمية والمهنية للمرتشح.

- نسختان من البحث المقدم للترشح مسجل على قرص مرن، بالإضافة إلى نسخة توجه عن طريق البريد الذي يظل تاريخ الختم شاهدا على ذلك.

- توجيه بحث كل مترشح إلى عنوان المجلس الأعلى للغة العربية.

وبعد هذه المحددات وضعت لجنة الجائزة النص الاشهاري الذي ظهر في اليوميات التالية: الشروق – المجاهد – الشعب – البلاد. وفتحت باب الترشح للجائزة ابتداء من نشر الإعلان في وسائل الإعلام، وإلى غاية 31 ديسمبر 2003. وظهرت فيه بعض الشروط الخاصة وهي:

* يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة، والتي تصبح ملكا له.

* لا يحق الطعن في قرارات لجنة التحكيم

* لا ترد الأعمال إلى أصحابها، سواء أجيزت أم رفضت.

وأما مبلغ الجائزة: رصد لهذه الجائزة مبلغ خمس مائة ألف دينار (500000) وقسمت المجموعة هذا المبلغ كما يلي:

* تخصيص قيمة مالية لكل مجال محدد ب مائة ألف دينار (100000) على أن تكون في كل مجال جائزة أولى قيمتها 70 % وجائزة

ثانيــة قيمتهــا 30%. أي مبلــغ ســبعة ملايـين ســنتيما للجــائزة الأولــى، وثلاثــة ملايين سنتيما للجائزة الثانية.

أيها الحفل الميمون: إن فعاليات هذه الجائزة لم تتم إلا بعد سلسلة من الاجتماعات الدورية التي كانت لجنة الجائزة تتابع كل متعلقاتها. ونظرا لبعض الخصوصيات قد مدد أجل استقبال الترشيحات إلى 31 من شهر جانفي الفارط. وهكذا فقد وصلت المجلس ثمانية وعشرون بحثا (28) وعمدت الإدارة إلى إغفال أمساء المترشحين.

وخلال الإطلاع المباشر على جملة هذه الأبحاث، تم استبعاد ستة (6) أعمال من أصل 28 لأنها لا تتوفر شكلا ومضمونا على الحد الأدنى الذي يجعل لجنة الجائزة أو مجموعة العمل توزعها على الخبراء. وبقي إثنان وعشرون عملا يتوفرون على شروط الجائزة. وتم توزيعها حسب اختصاصها في المجالات التالية:

* مجال علوم اللغة العربية : 6
* مجال العلوم والتكنولوجية والطب والصيدلة وتاريخها: 1
* مجال العلوم الانسانية والاجتماعية: 6
* مجال علوم الاتصال والادارة: 5
* مجال الأدب الشعبي والمقاومة الوطنية: 4

كما رأت المجموعة الاحتفاظ بقيمة الجائزة المخصصة لمجال العلوم والتكنولوجية والطب والصيدلة وتاريخها على أن توزع قيمتها جوائز تشجيعية على أربعة من الأعمال التي تستحق التشجيع.

وهكذا نعرف أن عدد الجوائز الأول أربع والجوائز الثواني أربع، والجوائز التشجيعية أربع فيكون مجموع الجوائز التي يقدمها المجلس الأعلى للغة العربية اثنتي عشرة جائزة هذه السنة (12).

وبعد ذلك تم إرسال الأعمال للخبراء بناء على مراسلة من مجموعة العمل التي أقرت جملة من معايير التقييم، وهي:

* أهمية الموضوع وأصالته.

* سلامة اللغة وتسلسل الأفكار.

* المنهجية العلمية والأكاديمية.

* إعطاء علامة تقديرية من أصل عشرين نقطة لكل بحث.

* التنصيص على صلاحية نشره من عدمها.

أيها الحضور الكرام: إنه في خضم فعاليات أعمال اللجنة وفي الاجتماع الثالث يطالعنا نبأ وفاة المغفورله الأستاذ أبو العيد دودو عضو جائزة اللغة العربية، وعضو هيئة التحرير في مجلة المجلس الأعلى للغة العربية. ووفاء من المجلس، ارتأى رئيسه ان تربط جائزة هذه السنة باسم هذه الشخصية العالمة أبو العيد دودو رحمه الله. فنم يا أستاذنا فأنت من الذين لم يموتوا لأنك تركت صدقات جاريات: علما ينتفع به، وطلابا يتداولون علمك، ومكتبات تزخر بمؤلفاتك. وإنها للفتة حضارية أن تربط جائزة اللغة العربية بهذه الشخصية التي قدمت الكثير لهذه اللغة فما أحرانا باتباع من سن سنة حسنة.

وهكذا بعد التصفيات المباشرة وغير المباشرة، وبعد استقبال أراء الخبراء في الأعمال المقدمة للجائزة، رأت مجموعة العمل رفع التوصيات التالية:

1 – ضرورة تنقيح الأعمال الفائزة ومراجعتها لغويا.

2 – ربط تاريخ توزيع الجائزة لاحقا بشكل تقليدي بذكرى يوم العلم.

3 – الرفع من القيمة المالية للجائزة لاحقا.

4 – الاعلان عن جائزة السنة يشهرله على نطاق واسع، وتعطى فترة كافية للتحضير.

أيها الإخوة عودا على بدء. أقول في الاجتماع الأخير تم الكشف عن الإغفال، وبذلك تم التعرف على أسماء الفائزين، وهم يحضرون معنا هنا، ونتشرف بهم، ونرجو منهم ومن غيرهم المزيد من المثابرة والتأليف والبحث والسعي الأصيل من أجل إعلاء اللغة العربية المجيدة. وهكذا يكون التصريح بأسماء الفائزين في كل مجال، وبرتبة كل جائزة، ونوعيتها وبرقم إغفالها، وستعلن هذه الأسماء علانية عليكم أثناء توزيع الجوائز.

وفي الأخير الشكر موصول للسيد فخامة رئيس الجمهورية على الرعاية السامية لهذه الجائزة وعلى كل التسهيلات التي وفرت لنا من أجل أن نلتقي أمسية هذا الرمضان الأغر، وكل التحيات الصادقة للسيد رئيس المجلس

الأعلى للغة العربية، وإلى مساعديه الإداريين الذين وفروا لنا جو العلم بكل حرية، والشكر ممنوح للفائزين على الجهد الذي بذلوه من أجل خدمة هذه اللغة المجيدة، وكل التقدير والاحترام لكل الحاضرين.

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة عن أعمال أبو العيد دودو

أ. عزالدين ميهوبي

قبل رحيله عنا بأيام كتب أبو العيد دودو بعضا من سيرته الذاتية، وتحدث عن أعماله ومؤلفاته، وقد استوقفني في ذلك كلامه عن المذكرات الذاتية التي قال بشأنها "شرعت في كتابة مذكرات ذاتية وموضوعية، بعد أن أتلفت مذكرات أربع سنوات في دفتر من خمسمائة صفحة، كتبتها أيام الدراسة في العراق، أتلفتها لأتدفأ في يوم من أيام القر بفيينا عاصمة النمسا.. ولقد كان الدفء لهبا أسود مدخنا، لا يزال يلهب روحي ندما إلى اليوم، ومع ذلك فأنا سعيد بما وقع إلى حد كبير، لأنني فضلت دفء المذكرات على الموت انتحارا في ديار الغربة لظروف رهيبة مررت بها آنذاك..".

هذا حال الدكتور أبو العيد دودو، عمر من التعب والشقاء والمكابدة، عمر ظل ينزف من أجل الاستزادة من المعارف وكسب الآداب، التي بدأها في كتاب قريته ليظل متنقلا من قسنطينة إلى تونس فبغداد التي لا يخلو مجلس يكون من بين الحاضرين فيه الفقيد من حديث عن العراق وأهله وشيء من ذكرياته الجميلة هناك.. ثم عرج في ختام دراساته العليا إلى النمسا التي لن أكون مبالغا إذا قلت إنها كانت وطنا له.. أحبها وأحبه أهلها، وزوجوه واحدة من بناتهم، عاشا معا أربعين عاما، حتى وفاته، وأنجبا ولدا وثلاث بنات..

غير أن دودو رحمه الله يشبه إلى حد بعيد الكاتب المصري الراحل عبد الرحمن بدوي عندما سأله أحدهم "لماذا لم تتزوج يا دكتور؟ فأجاب تزوجت أفكاري فأنجبت ثلاثمائة كتاب.." دودو" أنجب أولادا لكنه أنجب أيضا اثنين وخمسين كتابا مطبوعا ومثلها مخطوطا..

وهو من النوع الذي يصعب على النقاد والدارسين تصنيفه، فهو المفرد المتعدد، أي الذي له شيء من كل شيء، فهو كاتب القصة البارع، ويعده كثير من النقاد رائدها في الجزائر دون منازع، وإذا صنف من المؤرخين فإنه لا يعدم حس ذلك الذي يسعى لأن يقدم للقارئ الجزائري ما لا يعرفه عن تاريخه الذي كتبه الأجانب، ألمانا وأوروبيين، وكان ذلك من الوثائق الهامة التي استعان بها الباحثون في مجال التاريخ، وخاصة تاريخ المقاومة، وإذا وضع دودو بين كتاب المسرح فإن له حضورا كبيرا سواء بعمليه البارزين التراب والبشير أو من خلال الأعمال المسرحية المترجمة لكتاب عالميين ألمان ونمساويين وروس وصينيين وغيرهم، وأما إذا ذكر اسمه في مجال الترجمة فإنه الفارس الذي لا يشق له

غبار، بل إنه يعد من أكفئ الذين تعاملوا مع اللغة الألمانية بإبداع كبير وحس لغوي لافت، ولي معه تجربة في ترجمته لنصين شعريين شاركت بهما في المهرجان العالمي للشعر بسويسرا قبل أربع سنوات، ومؤخرا في معرض فرانكفورت للكتاب، وقد عبر لي الجمهور الألماني عن إعجابه الكبير بقوة الترجمة ونفاذها إلى وجدان المتلقين، بل إن بعضهم تساءل عن السر في عدم استفادة الأدب الجزائري من أديب مترجم بارع في قامة الدكتور أبو العيد دودو رحمه الله، ولم أجد من تبرير سوى مزيد من الأسف لهذه الخسارة الكبيرة التي يصعب تعويضها..

ومن أجمل ما كتب في مساهمة منه لندوة الترجمة التي عقدها المجلس الأعلى للغة العربية قبل ثلاث سنوات يقول " أنا أعتز بأني مترجم.. مترجم أيضا. ولم أتهرب أبدا من هذه الصفة، فالترجمة عمل جميل، بل إبداع جميل، فرحتي به لا تقل عن فرحتي بإنجاز عمل إبداعي بل قد تكون أكبر أحيانا، كثيرا ما يخيل إلي أن الترجمة موهبة، مثل أي موهبة أخرى ولست أدعي مع ذلك أية عظمة لنفسي".

ويكفي دودو فخرا أنه أول من ترجم كتاب أصل العمل الفني لهايديغر للعربية، وأول من ترجم رواية الحمار الذهبي لأبوليوس كاملة غير منقوصة كما جاءت في ترجمات سابقة.

وخدمة منه للغة الألمانية والعربية فإن الفقيد أصدر قاموسا من الألمانية إلى العربية، بينما أتلف القاموس الثاني من العربية إلى الألمانية بسبب خلل في كومبيوتر الناشر..

وفي مجال التحقيق خاض دودو تجربة مع التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي.

ولم تتوقف اهتمامات الدكتور دودو في هذا المجال بل تفتقت موهبته الشعرية وهو في الستين، فكان كما يقول في سيرته الذاتية "عندما أشرفت على الستين من عمري، وكان ذلك استجابة مني بصفة المغلوب على أمره لهزة عاطفية مفاجئة وغريبة في آن واحد، ولكنني سعدت بها باعتبارها مرحلة جديدة في حياتي الوجدانية والابداعية" ومن بين أجمل ما كتب عن الوطن قوله:

بيضاء تدعوني إلى وطني   لجماله يجتاحه الكمد

وطن على أبنائه نعم   لو أدركوها نالهم رشد

وتنافسوا في حب تربته   فيكون فيهم لعيشهم رغد

فتخاله في وثبة قدما   في أهله التاريخ والأبد

واسمحوا لي في ختام هذه الكلمة بالمناسبة أن أقول بشيء من الذاتية والحميمية،

كنت أزور الفقيد بين الحين والآخر في شقته الواقعة بحي "الاسفوديل" بابن عكنون.. ولم تكن مكتبته تتسع لاستقبال اثنين فكيف بالثلاثة، وما أن يلاقيك في مدخل الباب حتى يطلق واحدة من نكاته الغريبة والعجيبة، فهو ذو دعابة مستحبة، وكثيرا ما يقصده أصدقاؤه لروحه المرحة وتعليقاته الجميلة، وروايته لحكايات عاشها في صباه وأيام دراسته ببغداد أو فيينا.. وكنت أعجب لهذا الرجل في أيامه الأخيرة وهو يقول لي كلما زرته إنني أشرف على وضع اللمسات الأخيرة لترجمة كتاب فلان.." ويضيف "لم يسبق أن ترجمه العرب، فهو

مفيد.." وبعد أن يلقي كثيرا من اللوم والعتاب على الذين لم يعودوا يزورونه.. يسحب من تحت المخدة دفترا يسجل فيه شيئا من يومياته ويشرع في قراءة بعضها، كم هي جميلة ومرة، وأشهد أنها بقدر ما تحمله من متعة في السرد وتوثيق كثير من الأحداث والوقائع، فإنها تحمل إدانة واضحة وصريحة للكتاب الذين وظفوا اسمه في مسائل لها صلة بالثقافة دون استشارته، ويعتبر ذلك استثمارا في تاريخه وسمعته..".

شعرت وأنا أزوره في بيته قبل وفاته أنه يستعجل نفسه في بلوغ شيء ما، فكان لا يتوقف عن الكتابة، يترجم مسرحية لهذا، ومقالا لذاك، ويقدم لكتاب هذا ويطلب رأي ذاك في هذا العمل أو هذه الترجمة.. ولا أبالغ إن قلت إن في جعبته من الأعمال التي لم تنشر ما يفوق العشرين.. لأنه بإيجاز، ولد ليكتب، وكتب ليظل خالدا في ذاكرة الكتابة، وفي وجدان الذين أحبوه.. فليس هناك من لم يحب الراحل أبو العيد دودو.

كلمة باسم الفائزين

د. محمد يحياتن

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

أصحاب المعالي

أصحاب السعادة

أيها الحضور الكريم

السلام عليكم جميعا

إنه ليسعدني ويشرفني أن أقف بينكم لأتوجه للمجلس الأعلى للغة العربية وعلى رأسه الدكتور محمد العربي ولد خليفة، باسم الإخوة الفائزين بجوائزاللغة

العربية، بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لما تبذلونه من جهودجمة في سبيل النهوض باللغة العربية وترقيتها وتنزيلها المنزلة التي هي جديرة بها في هذه الديار.

لقد دأب المجلس الأعلى للغة العربية منذ نشأته وكذا منذ توليكم هذه المسؤولية الجسيمة على تشجيع البحث في اللغة العربية على عدة أصعدة من ذلك على سبيل المثال لا الحصر في التعليم والإعلام والإدارة وما إلى ذلك من المرافق الحيوية، وتشهد على ذلك المنشورات والندوات العلمية التي تنظمونها من حين لآخر والتي عنيت بواقع تدريس العربية وتجلياتها في وسائل الإعلام المختلفة كما وقفتم على مدى إسهام الدول المغاربية في تعزيز أواصر الوحدة وترقية اللغة والثقافة العربية، كما شجعتم ولا تزالون تشجعون الترجمة فدعوتكم الملحة لإنشاء مركز وطني للترجمة من حيث هي رافد أساس من شأنه أن يخدم العربية أيما خدمة.

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية:

إن سردي الجزئي هذا لما أنجزه مجلسكم المحترم أريد من خلاله أن أشدد على حسن صنيعكم وحصافة توجهكم، من حيث انتصاره لتلبية الحاجات العديدة التي تنتظرها منا اللغة العربية، بدل الركون إلى الخطابات التمجيدية التي والحق يقال لا تسمن ولاتغني من جوع كما يقال.

في الأخير لا أملك إلاّ أن نجدد لكم سيدي الرئيس باسم إخواني المكرمين جزيل الشكر والامتنان راجيا من المولى أن يعينكم على أداء مهمتكم النبيلة.

والسلام عليكم ورحمة الله.



نَشْرُفُ بتقديم العدد التاسع من "مجلّة اللغة العربيّة" إلى القرّاء في المجال المرسوم لها، وفي حدود إمكانها، رافد من روافد النشاطات المتعدّدة المتكاملة التي يقوم بها المجلس الأعلى في هذا المجال وفي هذه الحدود تتمّ جهود محرّريها.

والعدد التاسع منها يهدف في مجمله إلى غاية واحدة وإن ظهرت محاوره متنوّعة، يرمي إلى خدمة الفصحى بمقالات كرّسها أصحابها لتسهيل اكتساب هذه اللغة في المؤسّسات التعليميّة بالوسائل الثابتة الطبيعيّة في تعلّم اللغات وتعليمها وأهمّها الممارسة بجميع أشكالها، وتبسيط بعض الموادّ إلى أقصى حدود التبسيط دون إهمال ما ليس منه بدّ، ورفع مستوى التأطير، وتوفير الوسائل الحقيقيّة له، والإفادة من الوسائل المستحدثة المتطوّرة ومن التجارب الرّائدة في هذا الميدان. وفي العدد ما هو نظريّ نرجئ الحديث عنه.

المجلس الأعلى للّغة العربيّة

06 ، شارع العقيد أحمد بوقرة، الجزائر

الهاتف: 25 / 213 21 23.07.24 الفاكس: 213 21 23.07.07

ص.ب. 575 الجزائر، ديدوش مراد

www.csla.dz